الصُّروف في تاريخ الصّحراء وسوف



تأليف :
ابراهيم محمد السّاسي العوامر
تعليق :
الجيلاني بن ابراهيم العوامر





ثالة
THALA EDITIONS

كتاب: الصروف في تاريخ الصحراء وسوف

تصنيف: العلامة إبراهيم محمد الساسي العوامر

تعليق: الجيلاني بن ابراهيم العوامر

وكل الشكر للأخ حسان الذي قام بتصويره ضوئيا

فجزاه الله كل خير



الإيداع القانوني: 198-2007

ر.د.م.ك. : 978-9961-905-57-9

أنجزت هذه الطبعة في إطار "الجزائر عاصمة الثقافة العربية، 2007".

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تبارك وتعالى :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِن ذَكَر وأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُم شُعُوبًا وقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾

(سورة الحجرات : الآية 13).

إلى روح الشيخ إبراهيم بن عامر

إذا حلت بساحتك الصروف ... فذكرك في بني الدنيا نظيف

وأهل العلم كلهم ضحايا ... وعند الله منزلهم منيف

وفي دنيا المحاكم كنت حرا ... فما استهواك في حكم رغيف

ويبكيك اليتامى كل صبح ... وتشكرك الأرامل والضعيف

وكان الحق في يمناك سيفا ... مضاء ليس يحمله الوصيف

فان نقلوك من بلد عزيز[1] ... فان الشمس يدركها الكسوف

إلى أولاد جلال[2] وحيدا ... وتقرت[3] وليس بها أليف

فنفي النفي إثبات أكيد ... وتعرفه النواسخ والحروف

وان الحادثات لها اختيار ... وان الموت للأدنى عيوف

وان النائبات لها اختبار ... ويمتحن المجاهد والشريف

ودارك منزل رحب كريم ... إذا طرقت بكانون[4] ضيوف

---

1. يشير الشاعر إلى نفي المؤلف من وادي سوف من طرف السلطة الفرنسية.
2. بلدة أولاد جلال بالزاب الغربي قرب بسكرة.
3. مدينة تقرت غربي وادي سوف.
4. يقصد بكلمة كانون شهري كانون الأول والثاني في فصل الشتاء واشتداد البرد وهو ظرف أحوج ما يكون فيه الزائر إلى من يستضيفه.

وكانت فيك جامعة الزوايا   إذ الإسلام ليس به صفوف
وليس بديننا حلقات رقص   ولا طرق التخلف والدفوف
ولم يك للوظيفة أي شان   لديك، فأنت بالعليا شغوف
وقد علمت إرشاد الحيارى[1]   وصوت الحكم في الوادي[2] مخوف
ومن يجهر بإصلاح يعاقب   وليس هناك قانون لطيف
وللعربية الفصحى مقام   لديك، فليس تمليه الظروف
ولم تك ترتضي لغة النصارى   فعاشقها له وزن خفيف
فإن المسخ تعشقه قرود   ويرضى السلخ من جلد خروف
وقبلك لم تر الأعراض صونا   فهتكت المئات بل الألوف
وللقبيلة الجهلاء قدس[3]   به تسعى الضغائن أو تطوف
وللمتخاصمين لديك نجح   فحكمك لا يحيد ولا يحيف
فلولا أن مثلك كان فيهم   لقد رمدتهم تلك السيوف[4]
ومنطقة الرمال مكان عز   كما عزت جبال أو كهوف
أباة الضيم هم أهل البوادي   وتقبله المباني والسقوف
وفي مهر[5] ومهري[6] ومهر[7]   جناس نضدت فيه الحروف

1. كتاب "إرشاد الحيارى في تعليم أبناء المسلمين بمدارس النصارى" اعتمده المؤلف كحجة لإيقاف موجة الإقبال على اللغة الفرنسية والإعراض عن العربية.
2. يعني مدينة وادي سوف.
3. يشير إلى سوء التفاهم الذي كان بين قبائل المنطقة وقد عمل المؤلف على إزالته.
4. قد يعني أن لولا وجود المؤلف لكثرت المعارك بين القبائل وبالتالي يرتفع عدد القتلى الذين تدفنهم سيوف الرمل.
5. مهري بضم الميم : ولد الفرس.
6. مهري بفتح الميم : الجمل النحيف السريع العدو.
7. مهر بفتح الميم : صداق المرأة.

فهذا للمفاوز في نعام   ولا يخشى من السيخ الوظيف
وهذا للرياضة والمعالي   ويركبه الفتى البطل العريف
وهذا نحلة الحسناء يؤتى   وكم عقدا[1] به عقد[2] طريف
وقولك في الحديث مقال فقه   وفي التفسير كشاف كشوف
وعلمت النعيمي[3] المفدى   وحمزة[4] والزهور لها قطوف
فإما يضمر الأذناب طعنا   فمثلك في الرجال هم الأنوف
وكلهم لهم علم وذكر   وأعلام الجزائر هم ألوف
وتاريخ الصروف دليل صدق   به التحقيق والعقل الحصيف
أرى الصحراء بالتاريخ أولى   وأولى الأرض في الصحراء سوف

الأستاذ زهير الزاهري الادريسي

1. عقد بفتح العين يعني به عقد الزواج.
2. عقد بكسر العين ما تزين به المرأة رقبتها.
3. الشيخ نعيم النعيمي : ممن تتلمذوا على المؤلف أثناء وجود هذا بمنفاه ببلدة أولاد جلال.
4. الأستاذ حمزة بوكوشة : من تلاميذ المؤلف أيضا وهو الآن من مشاهير رجال العدالة بالمحكمة العليا بالعاصمة الجزائرية.

نبذة من حياة المؤلف

عاش شيخنا المرحوم سيدي إبراهيم بن عامر ظرفا كان فيه ثائرا ومعلما ومناضلا، ظرفا كان فيه الوحيد يواجه عدوا ليس متمثلا في الاستعمار فحسب بل كذلك فيمن يحسبون أنفسهم من علماء الإسلام في ذلك العصر، هذا بالإضافة إلى ما كانت عليه منطقة سوف من ظلمات التأخر ومن الانحراف الديني والاجتماعي.

خرج الشيخ إبراهيم إلى دنيا العمل وقد أتم دراسته بتونس فوجد منطقة سوف ونواحيها ترضخ لحكم استعماري عنيف، مكبلة بنظام عسكري شديد قوامه السيطرة على العقول وإخضاع النفوس، وبث الشقاق والتفرقة بين القبائل بل بين أفراد العشيرة الواحدة أو الأسرة الواحدة ولم يكن حينئذ من وازع ولا قبس للدين إلا ما يجيده البعض من تلاوة القرآن فضربت الجهالة أطنابها وكادت تسود أخلاق الجاهلية الأولى كامل منطقتنا.

فكان اختطاف الفتاة قصد التزوج بها رغم إرادة أهلها وذويها إذ يذهب الشبان فيختطفون أو يفتكون الفتاة ثم يسيرون بها إلى حيث يريدون من الزوايا أو أسرة أحد الوجهاء فيودعونها بها إلى أن يرضخ أب الفتاة أو وليها لعقد زواجها بمن شاءها خوفا من الفضيحة والعار.

وأذكر أن أولى صرخات الشيخ إبراهيم كانت لمحاربة هذه الظاهرة الشنعاء والعادة النكراء.

وكان التنافر والتناحر بين القرى والعشائر بحيث لا تكاد تخلو عندهم مناسبة من المناسبات أو موسم من المواسم من التصادم والتقاتل بالعصي والدبابيس وحتى بالخناجر إذا ما احتدم الخصام واشتد النزاع.

وانقسام الأهالي فيما بينهم واختلافهم باختلاف الطرق ما بين قادري، وتجاني، ورحماني وعلوي، وغيرها مع تضارب أهداف هذه الطرق وتباين مشاربها.

وأخيرا انغماس الشبيبة انغماسا كليا في اللهو والخمر والميسر وما إلى ذلك من المحرمات التي لم تلق صوتا يوقف انتشارها ولا ناهيا يزيل خطبها.

ذلك هو جانب من الوضع الذي كانت عليه المنطقة يوم أن ظهر المؤلف على مسرح الحياة، يوم أن برز وحده إلى الميدان رافعا صوته عاليا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، لا يبالي بغضب الغاضبين ولا بسخط الساخطين.

رفع صوته لإصلاح ما كان فاسدا وقد رسم لكفاحه خطته المستوحاة من ذكائه الوقاد فذهب رحمه الله يجمع الناس حوله بعنوان مسامرات دينية ودروس في تفسير القرآن أو شرح سيدي خليل وذلك يوميا بعد صلاة المغرب بمسجد أولاد أحمد المسمى جامع النخلة.

كانت مسامراته ودروسه مركزة على التوعية وإيقاظ الضمائر فاستطاع بفضل ما جبل عليه من فصاحة وصراحة أن يجمع حوله

الكثير من الأتباع بل قلما كان يتخلف من أهل الوادي عن دروسه والاستفادة من تعليماته. وتوصل بفضل ما عرف به من شجاعة أدبية وغيرة وطنية أن يهدي الله على يديه خلقا كبيرا.

لم يقتصر نشاط الشيخ في نشر التوعية عن مسامراته الليلية بل اقتضى بعد نظره اتخاذ الطرق أعني الزوايا باختلافها وسيلة أخرى لبلوغ هدفه لأن الزوايا في ذلك العهد كانت الرباط الوحيد للدين ولأنها تضم العديد من طلاب القرآن، لذا فكر الشيخ في ربط صلته بها جميعا والانتماء إليها دونما تحيز.

فقد ولد الشيخ إبراهيم عام 1881 في أسرة تجانية إذ كان أبوه محمد الساسي تجانيا. ومن عجائب الصدف أن ظرفا من الظروف جعلت الشيخ ينتقل مع أمه إلى أسرتها القادرية بأولاد أحمد وفي منزل بالشارع الرئيسي الذي كانت تمر به مواكب الطريقة القادرية فكانت تلك فرصة جعلته يربط صلته بالطريقة المذكورة وبذلك أصبح الشيخ تجانيا قادريا.

بقي له حينئذ أن يتعرف على الزاوية الرحمانية أعني زاوية سيدي سالم فتم له ما أراد حينما عبر في كتابه "البحر الطافح" عن إعجابه بالشيخ سيدي محمد الصالح رئيس الزاوية إذاك. أعجب به لأنه كان يدير معهدا يضم زهاء السبعين طالبا من الشاوية والنمامشة تتولى الزاوية إيواءهم وتعليمهم القرآن والإنفاق عليهم. أضف إلى ذلك عدد الطلاب المحليين. ولا غرو أن تكون أريحية الشيخ إبراهيم في ذلك لائقة بتلك الانفجارات التي جاءت له في كتابه "البحر الطافح". فالحقيقة التي كان يحوم

حولها كلام الشيخ هي حقيقة الإسلام المنحصرة في النبع الصافي الذي سرى بأرض واسعة من الجزائر على هدى القرآن إلى أن جاء نصر الله.

اتخذ الشيخ رحمه الله من هذه الزوايا وسيلة للتذكير بالمبادئ الإسلامية وإحياء اللغة العربية التي آلت إلى زوال بإعراض الناس عنها وإقبالهم على اللغة الفرنسية. فعلت صرخته من أجل ذلك في دروسه ومن خلال كتاب "الحيارى وتحذير المسلمين من تعليم أولادهم في مدارس النصارى".

كان الشيخ إبراهيم من جلساء شيخ الزاوية والمدير والمعلم وكانت اللغة التي اختارها لجلب الجماهير لغة القرآن والدين إلى أن كون لنفسه صفا انضم إليه المئات من الزقم والبهيمة وحسى خليفة، وعميش وغيرها وبذلك علا صوت القرآن وانتشر في الآفاق وتكونت طبقة من الشبان المثقفين وجمع كبير من المتفقهين.

وأذكر أيضا أنه رحمه الله يخرج بعد كل عشاء من داره فندخل معه منزلا خاصا بندواته ليلقي علينا مسامرات حول السياسة وأخبار المجاهدين بحرب طرابلس ضد الطليان وحرب تركيا مع البلقان أو غير ذلك. وقد تتواصل هذه الندوات إلى منتصف الليل. وكان شرب التاي يوميا وما تبعه من كرمه الحاتمي وكأننا دائما في أعياد.

أما نضاله داخل المحكمة الشرعية فقد ألبس المحكمة ثوبها الحقيقي فنظم الأحكام وطبق كل شيء حسب الفقه الإسلامي ولا سيما مذهب الإمام مالك. كما كان المرجع والمفتي في جميع القضايا. وإن حادثة

الأرامل اللواتي قتل أزواجهن وأغير على أهلهن في حدود صحراء طرابلس وتآمر الحكام العسكريون عندنا إذاك على الاستئثار بجزء كبير من الدية المالية التي أرسلتها الحكومة الإيطالية لأرامل المتعدى عليهم ثم وقوف الشيخ في وجه المتآمرين وكشف خيانتهم للأمانة، لأكبر شاهد على نصرته للحق والعدالة ودفاعه عن مصلحة الضعفاء وبغضه للظلم والظالمين.

حلت أخيرا بحياة الشيخ فترة فقد أثناءها نخبه أنصاره. مات فيها صهره الشيخ محمد العربي. ومات الشيخ محمد الصالح عام 1918 م والشيخ عبد الرحمان العمودي ورحل الشيخ البشير بوكوشة إلى بسكرة فبقي الشيخ إبراهيم وحده يعالج الظروف ليرضي ربه وضميره واستمر في صراع مع الأوضاع إلى أن أبعد تماما إلى بلدة أولاد جلال ثم إلى تقرت وبها أصيب بمرض أودى بحياته.

وأخيرا أقول كانت أيام الشيخ إبراهيم كلها جهادا وجلادا، ومع الأسف لا يسمح لي المقام بالتعرض إلى تفاصيل مواقفه البطولية ولا بذكر أمور تدعو إلى الإعجاب خصني بالاطلاع عليها لأن المطلوب هنا الاختصار.

فرحم الله أستاذي وشيخي إبراهيم بن عامر رحمة واسعة ولا شك أنه من الذين هم أحياء عند ربهم يرزقون.

حسن الهاشمي

أستاذ اللغة العربية بوادي سوف.

توطئـــــة

سماء صافية الأديم، أشعة شمس تبعث الدفئ في أجسام قلصتها ثلوج ليالي فرنسا، أشعة عكستها مياه البحر الأبيض المتوسط الأخاذ بجماله السحري.

أرض بكر، خصبة يخفي باطنها كنوزا حيوية، معادن طبيعية، طاقة تحرك دواليب الصناعة الفرنسية، جزائر يحيط بها ماء ذهب ذائب.

كيف السبيل إليها؟ وقد منحها الله له لشعب يهيم بها وتثور ثائرته إذا ما اشتم ترابها. شعب اتخذ الإسلام دينا والعربية لسانا، مقومات أصيلة تغلغلت في النفوس ومتنت الصلة بين ماضي الجزائر وحاضرها.

توهم الغزاة -خطأً- فصل الماضي عن الحاضر فمارسوا التجربة التي تناقضت وفطرة الله التي فطر الله الناس عليها.

ماضي الجزائر لم ينفصل ولن ينفصل عن حاضرها. وحاضرها لا يبتعد عن ماضيها.

هذه الصلة وهذا التداخل قد عبر عنها كتاب "الصروف في تاريخ الصحراء وسوف" تأليف ابن الواحة المرحوم إبراهيم بن محمد الساسي بن عامر.

أدرك المؤلف بوعيه الثاقب وعبقريته الفذة خطط الاستعمار الفرنسي بالجزائر الرامية إلى القضاء على اللغة العربية وإضعاف العاطفة

الوطنية والدينية فكرس جهوده وسخر جميع إمكانياته للدفاع عن كرامة الوطن عن حمى الدين واللغة.

لقد أخذ المؤلف تجربته الثقافية وقيمته الدينية والأخلاقية عن علماء الجريد والجامعة الزيتونة بتونس فمارسها قاضيا يحكم بما أنزل الله بلسان عربي مبين في واحة الوادي.

في تقرت، في أولاد جلال المنفى الذي اختارته له غطرسة (قبطان بيرو-عرب) لم يثن عن عزمه هذا المنفى، ولا التهديدات ولم تصرفه شتى المؤامرات عن رسالته المقدسة دفاعا عن العروبة والإسلام.

شارك ابن الواحة المرحوم إبراهيم بن عامر وجدان قومه فأحس بتعطشهم إلى معرفة وطنهم، تاريخه، طبيعته، عناصر سكانه، حالته الأدبية، فجاد إذاك بكتابه الثمين هذا الذي حاول فيه أن يشبع حاجيات قومه الروحية ويروي عطشهم للغة هلال وسليم.

كان في الإمكان أن يضيع هذا الكتاب بعد وفاة مؤلفه وتختفي تلك التجربة مثلما اختفت تجارب عبقريات جزائرية أخرى. وكان في الإمكان أن يهمل هذا التراث في رف تعلوه العنكبوت لو لم يقض الله الابن البار الوفي لتراث أبيه وأعني بالابن البار أخانا الأستاذ الجيلالي العوامر الذي صان الكتاب صونه لنفسه، صانه وهو تلميذ حفظه، وهو أستاذ بل نقحه وأضاف إليه ما تتطلبه الجزائر من عناية.

تحمّل ابن المؤلف في ذلك السهرات العديدة وعقد الرحلات الطويلة المضنية ليطلع القارئ العربي على حرارة تجربة صادقة ونزيهة، رحلات

من عنابة إلى بسكرة، إلى الوادي، إلى تقرت وتماسين، إلى غير ذلك من الأماكن الصحراوية النائية لتشخيص أماكن تضمنها كتاب أبيه لالتقاط صور فوتوغرافية تشعر قراء المغرب والمشرق بصدق عزيمة جزائرية تفانت في حب وطنها وقومها ودينها ولغتها.

قلت صان الكتاب وهو تلميذ فأذكر هنا للتاريخ هذه الحادثة اللطيفة وهي أني كنت وصديقي الجيلالي العوامر والمرحوم الطيب الشريف نزاول الدراسة بالجامعة الزيتونة بتونس، فبينما كنا الثلاثة مجتمعين في يوم من أيام مارس 1950 م نتجاذب أطراف الحديث حول حركة التأليف العربي بالجزائر إذ نهض الأستاذ الجيلالي ليقدم لنا مخطوط أبيه "الصروف في تاريخ الصحراء وسوف" وسواه من المخطوطات ولكنه لم يجده في مكانه المعهود فطال بحثه حتى ظن أنه سرق منه وهنا ارتعشت ركبتاه وخارت قواه فارتمى على فراشه وكاد يغمى عليه وبذلك أكبرنا فيه هذا الوفاء لتراث أبيه الثقافي، وتعلقه بوطنه وقومه.

وأخيرا أدعو صديقي الحميم الجيلاني العوامر أن لا يحرم قراء العربية من الاطلاع على ما بقي لديه من تراث والده لا سيما ما سبق لي أن اطلعت عليه عنده مثل تلك الملاحم الشعرية والمنشورات الاجتماعية وأن لا يحرمهم من إنتاج ثقافي يعكس كفاحا مستميتا في سبيل الدفاع عن مقومات الشخصية الجزائرية وعن ماض أصيل متين الربط بحاضر مجيد.

محمد بوبكري

خريج قسم الفلسفة-بجامعة القاهرة.

تمهيد

عهد إلى الأستاذ العوامر الجيلاني بكتابة كلمة كتمهيد لكتاب "الصروف في تاريخ الصحراء وسوف" تأليف والده أستاذنا إبراهيم بن عامر، حيث عقد العزم على طبعه ونشره.

ويجدر بي قبل التعرض للكتاب أن أتكلم عن مؤلفه، فلقد عرفته فيمن عرفت من شيوخ العلم بوادي سوف، وقد ولد بها سنة 1881 وتوفي بها سنة 1934 وكان من رجال القضاء الشرعي، ولم يشغله الوظيف ومشاكله وتبعاته عن التدريس والفتوى، فكان يلقي دروسا صباحا لطلبة العلم، وبعد صلاة المغرب يلقي درسا في مختصر خليل يحضره الطلبة وغيرهم ثلاث ليالٍ من الأسبوع ويلقي أيضا دروسا في التفسير، ولم تتعطل الدروس سوى ليلة الجمعة وصباحها.

ولقد قرأت عليه مقدمة ابن أجروم فكانت المسائل التي درسناها عليه يستوعبها ولا يدع فيها مجالا لقائل، ومازلت أذكر أنه قال ابن أجروم والإسم يعرف بالخفض والتنوين، تعرض الأستاذ في الدرس لأنواع التنوين العشرة، وقد عابه بعض معاصريه بأنه لم يسلك مع المبتدئين ما يقتضيه الحال من التدرج.

ولقد كان التلميذ في ذلك العهد لا يجلس أمام شيوخ العلم للتلقي عنهم إلا إذا حفظ القرآن أو أوشك أن يحفظه.

فكان الشيخ يرى أن إعادة الكتاب بعد ختمه عدة مرات لا يجدي الطلبة نفعا، لأن الطلبة الذين أتقنوا حفظ القرآن أو كادوا يحفظونه لا يعجزون عن فهم القواعد النحوية أو حفظها إذا جدوا في الطلب، فما الفائدة إذن من تدريسهم الكتاب بصورة مختصرة هذه السنة، وإعادة تدريسهم إياه بصورة مطولة في السنة المقبلة؟

وحضرت عليه دروسا في مختصر خليل، فكان بعد قراءة المتن يذكر أقوال الشيوخ ويقارن بينها وتوجهها ثم يرجح بينها وينقد بعضها ويعضد ما يرجحه بآية أو حديث وقد يخالف صاحب المتن، وفي بعض الأحيان يخرج من المذهب المالكي إلى غيره من المذاهب وذلك دعا معاصريه من الفقهاء إلى اتهامه برقة الدين والابتداع وكان كذلك في الفتوى ورائده قول الله تعالى : **﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾**[1]، وكانت عبارته في الدرس بمنتهى السهولة، يفهمها الحاضرون على اختلاف درجاتهم، وكان مما امتاز به في دروسه أنه لا ينهر سائلا مهما كان سؤاله في الدرس ولو كان خارجا عن الموضوع إلا إذا كان السائل يريد التعنت أو التعجيز فإنه ينبهه من طرف خفي وكان يقول: **﴿وأما السائل فلا تنهر﴾**[2].

1. سورة البقرة الآية : 185.
2. سورة الضحى الآية : 10.

وقد كان كثير الاطلاع، جماعة للكتب، مغرما بها، وقد ترك مكتبة هامة مشتملة على عيون من الكتب لعبت بها الأيدي بعد وفاته.

شيوخه

كان كثير الحديث والثناء على شيوخه الذين تلقى عنهم العلم سواء من كان منهم بوادي سوف كالشيخ عبد الرحمان العمودي والشيخ محمد العرابي بن موسى أو من كان منهم بجامع الزيتونة كالشيخ النخلي، والشيخ لخضر بن الحسين والشيخ حسن بن يوسف، وقد وجدت هذا الأخير بجامع الزيتونة سنة 1924 وقد أوصانا الشيخ إبراهيم بملازمته فقرأت عليه جوهرة التوحيد، ومختصر البخاري لابن أبي جمرة فوجدته مما يسأل الدعاء منهم وهو مغرم بالكرامات ولا يخلو درس من دروسه من ذكر التصوف ورجاله.

الشيخ إبراهيم والطرق الصوفية

هو كعلماء عصره قل أن تجد واحدا منهم لا ينتسب إلى طريقة من الطرق الصوفية يحتمي بها وتحتمي به وينتسب إليها سواء أكان ذلك منه عن إيمان واعتقاد أو عن تقية ومجارة للعوام الذين من أصول اعتقادهم أن من لا شيخ له فالشيطان شيخه، وقد يكون شفيع هؤلاء في هذا الاعتقاد ومستندهم قول ابن عاشر :

يصحب شيخنا عارف المسالك   يــقيه في طريــقه المهــالك

وقد كانت هذه الطرق كالأحزاب السياسية التي تتنازع البقاء والنفوذ بينها تنتشر دعوتها ونفوذها حسب مقدرة دعاتها والمعتنقين لها، وهي حالة شبيهة بحالة شعراء القبائل عند العرب. فالشاعر هو الذي يرفع شأن القبيلة والقبيلة تتمسك بشاعرها وتفاخر به وتنافر، وهو يدافع عن أحسابها وأنسابها :

أنا الذائد الحامي الذمار وإنما يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلي

والدعاية للأحزاب السياسية كانت قديما من الشعراء بالمدح والهجاء وإلقاء الخطب من الخطباء وفي العصر الحديث أصبحت بإنشاء الصحف وتأليف الكتب، وقد ألف الشيخ إبراهيم كتابا تحت عنوان "البحر الطافح، في فضائل شيخ الطريق سيدي محمد الصالح"، طبعه بالمطبعة التونسية، والشيخ محمد الصالح الذي ألف فيه هذا الكتاب هو من شيوخ الطريقة الرحمانية بوادي سوف والشيخ إبراهيم مؤلف هذا الكتاب من إخوان الطريقة القادرية وهذا إن دل على شيء فهو على أن الشيخ إبراهيم غير متعصب لطريقة دون طريقة، وأنه يرى أن الطريقة إن اختلفت أسماؤها فهي ترجع إلى أصل واحد، وهو طريق الجنيدي أمام السادة الصوفية، أو أنه يرى أن هذه الطرق ضرورة اقتضاها الزمان والمكان، وهي مرحلة لا بد من اجتيازها والشيخ إبراهيم وإن كان من إخوان الطريقة القادرية فهو لم يخضع خضوعا تاما لأشياخها فلم يكن كالميت بين يدي غاسله كما تقتضي التعاليم الطرقية.

ويدلنا على ذلك أنه كان من المارقين عن الممثل الوحيد للطريقة القادرية بالجزائر الشيخ الهاشمي بن إبراهيم ومركز زواياه بعميش من أحواز

الوادي فشاقه الشيخ إبراهيم ولم يخضع له ولم يأخذ عنه، وذهب إلى توزر بالجريد التونسي، وأخذ عن ممثل الطريقة القادرية هنالك الشيخ المولدي ومدحه بقصائد وأناشيد ينشدها الإخوان في المناسبات والمواسم، ولم يكتف الشيخ إبراهيم بهذا بل كان في كل سنة يجمع ثلة ممن اتبعوه وأخذوا العهد على الشيخ المولدي ويذهبون في ركب لزيارته بتوزر. ولست أدري هل كان ذلك منه اعتقادا صادقا في الشيخ المولدي أو يقصد من وراء ذلك مضايقة الشيخ الهاشمي أو تفريق كلمة الطريقة القادرية.

تآليفه

للشيخ مؤلفات علمية لها قيمتها بالنسبة للزمن الذي ألفت فيه منها شرح نظم كتاب الكافي في العروض والقوافي، وذلك أن الشيخ المولود بن الموهوب مفتي قسنطينة رحمه الله نظم الكتاب وأسماه "التبر الصافي في نظم الكتاب المسمى بالكافي في الشعر والقوافي" فشرحه الشيخ إبراهيم وسمى الشرح "بمواهب الكافي على التبر الصافي" طبع في تونس سنة 1323. وتوجد نسخة من هذا الشرح في المكتبة الوطنية بالجزائر ضمن مجموعة تحت رقم 1680. وشطر نظما للشيخ المولود بن الموهوب في ذم البدع سماه "مطالع السعود تشطير أدبية الشيخ المولود". ونشر ذلك بعدد 56 في جريدة الفاروق سنة 1914. واختصر نظم الرحبية في المواريث وشرحه وسمى الشرح "المسائل العامرية على مختصر الرحبية" وطبعه بالمطبعة التونسية. وله كتاب "النفحات الربانية على القصيدة المدنية" وغير ذلك من المطبوعات.

وله تآليف لم تطبع، منها رسالة يثبت بها نبوة خالد بن سنان وضريحه بالبلدة التي سميت باسمه تحت عنوان : "حد السنان، في عنق المنكر لخالد بن سنان".

وهذا الكتاب الذي نقدمه الآن وهو "الصروف في تاريخ الصحراء وسوف"، هو وثيقة تاريخية من الأهمية بمكان، ولها شأن وأي شأن إذ لم يمسها محققه بأذى من تبديل أو تغيير أو تقديم أو تأخير، فلقد تعرض لتسمية هذه الناحية بهذا الاسم وأطنب في وصف ترابها وأحجارها وأشجارها وعمرانها وصفة عيش أهلها وصفة جوها وذكر أول من سكنها ومرور العرب بها ومرور العلويين بها، أول مجيئهم إلى المغرب، وانتقال طرود إليها، وذكر أنساب القبائل وأسمائها وما كان بين أهل سوف وأهل تونس وأهل طرابلس من صلات وتراث. أرخ لهذه الناحية منذ عرفت في التاريخ إلى الاحتلال الفرنسي واستند في ذلك على بعض المخطوطات كتاريخ العدواني وغيره، وعول في بعض الأخبار على أقوال المعمرين من الشيوخ الذين أدركهم، وذلك غاية ما وصل إليه، وليس هو بالأمر اليسير.

ومهما يكن من شيء فكتاب "الصروف في تاريخ الصحراء وسوف" وثيقة تاريخية سيقدرها طلاب التاريخ قدرها، ولا ينبئك مثل خبير.

حمزة بوكوشة

مقـــدمة الكتـــاب

الحمد لله، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ...

وبعد فهذه نبذة[1] لطيفة، ومسائل شريفة، في بيان أحوال الصحراء وسوف وما اشتملت عليه من الحوادث والصروف[2] سالنيها ولاة الأمور[3] ومن حولهم رحى الأحكام تدور، وعلى التكال، وإليه المرجع والمآل.

---

1. ضمن مجموعة من المخطوطات قد تركها والدي المرحوم إبراهيم بن محمد الساسي بن عامر الملقب العوامر وصاحب هذا الكتاب، عثرت على مخطوطين اثنين يتعلقان بتاريخ منطقة الصحراء عامة وسوف خاصة. أما المخطوط الأول فقد صممه كمسودة شرع فيه سنة 1913 م الموافقة لسنة 1331 هـ. وأطلق عليه اسم "كتاب الصروف في تاريخ سوف" وأما الثاني وقد شرع فيه سنة 1916 م الموافقة لسنة 1334 هـ، فهو من حيث محتواه العام نسخة من الأول غير أنه أدخل عليه بعض التعديلات وصار متناسبا أن يطبق عليه اسم "الصروف في تاريخ الصحراء وسوف" وهو الذي أعده للطبع والنشر. وقد حرصت على الاحتفاظ به إلى أن حان ظرفنا هذا لنشره. غير ما ذكر هنا فالمؤلف منها براء.
2. الصروف : جمع صرف، يقال صروف الدهر معناه تقلباته وتغير أحواله، وقد أطلق المؤلف كلمة الصروف على الكتاب بناء على أن منطقة سوف عاشت عبر تاريخها شتى صروف الزمن وتقلباته. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن صيغة صروف تتفق من حيث السجع مع صيغة سوف والمؤلف كغيره من القدماء كثيرا ما يميل إلى هذا الطابع في كتابته.
3. ولاة الأمور : يعني بهم رجال السلطة المحلية في ذلك العهد، أما السبب في إحجام المؤلف تقديم هذا الكتاب ونشره فهو الجفوة التي حدثت بينه وبين الإدارة الفرنسية تاريخئذ على إثر خلاف اتهمته عنده بالتمرد على السلطة فنشأ عنه سجنه ثم إبعاده من وادي سوف إلى بلدة أولاد جلال بالزاب ومنها إلى تقرت حتى وافاه الأجل سنة 1934 م.

المغــرب الأوسط

يحد المغرب الأوسط[1] المعبر عنه الآن بالجزائر من جهة الشمال أو الجوف، أو الظهرة البحر الرومي[2].

ومن جهة الجنوب أو القبلة المتهيلة[3] والكثبان[4] الممتدة نحو بلاد السودان[5]، وتعرف عند العرب الرحالة البادية بالعرق[6].

ومن جهة الغرب بلاد المغرب الأقصى وما والاه جنوبا[7]. ومن جهة الشرق تونس وطرابلس.

وينقسم المغرب الأوسط إلى قسمين متميزين[8] الأول شمالي حيث البحر والأنهار والجبال والتلول، والثاني جنوبي حيث الصحراء الواسعة برمالها وبواديها ونخيلها[9].

---

1. كان العرب منذ القديم يسمون أرض الجزائر المغرب الأوسط لتوسطها بين المغرب الأقصى والمغرب الأدنى أي تونس.
2. البحر الرومي يعني البحر الأبيض المتوسط.
3. الجبال المتهيلة يعني بها جبال الهقار.
4. كثبان : ويقال كثب، وأكثبة جمع كثيب وهو التل من الرمل.
5. بلاد السودان يعني بها مالي والنيجر.
6. العرق جمعه عروق، منطقة جبلية رملية ممتدة.
7. مايلي المغرب الأقصى جنوبا هي المسماة الآن موريطانيا.
8. مساحة الجزائر حسب ما جاء في كتاب "جغرافية الجزائر والمغرب" وهي 2381000 كلم مربعا. وحسب ما في كتاب "أطلس الجزائر والعالم" هي 2466833 كلم مربعا. منها 420000 كلم مربعا منطقة شمالية والباقي منطقة جنوبية صحراوية. جاء في غيرهما : تمتد الجزائر على مساحة 2300000 كلم مربعا : الشمال من الساحل إلى جبال الأطلس الصحراوي ومساحته 300000 كلم مربعا، والجنوب وهو يشمل الصحراء ومساحتها 2000000 كلم مربعا.
9. يطلق على المنطقة ذات النخيل اسم واحات.

وأشهر مدن[1] المغرب الأوسط بالشمال مدينة الجزائر التي هي قاعدته[2] الآن، ومدينة وهران، وتلمسان ومستغانم وسيدي بلعباس ومعسكر وقسنطينة وبجاية وسكيكدة وعنابة وسطيف وتبسة.

وفي الجنوب والصحراء مدينة بسكرة وطولقة وسيدي عقبة وأولاد جلال وتقرت وورقلة والأغواط وغرداية وبوسعادة والجلفة وعين صفراء ووادي سوف.

وكان المغرب الوسط عامرا آهلا بسكانه منذ أقدم العصور وغابر الدهور[3].

وبين الأولين قدم إليه قوم يقال لهم البربر استوطنوه إلى الآن. ثم توالت عليه قبل الفتح الإسلامي أقوام جاءت من الشرق والغرب وهم على الترتيب : الكنعانيون فالرومان، فالفندال فالروم كما سيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله.

ولما بعث الله نبيه محمدا (ﷺ) إلى الخلق بالإسلام بشيرا داعيا إلى نشره بين الأنام جاء العرب المسلمون إلى المغرب فاتحين وبدين الله مبشرين ومنتصرين.

---

1. ومن المدن الجزائرية المشهورة أيضا مدينة البليدة وتيارت وسعيدة وشرشال وجيجل وغليزان ودلس ومازونة والعلمة ومسيلة والمدينة والمنيعة وقصر البخاري والقليعة وميلة وقلعة بني حماد وعين بسام والقالة وسوق أهراس وباتنة وجامعة وتماسين وتمنراست وسيدي خالد وبشار وغير ذلك.
2. قاعدته : يعني عاصمته.
3. أكد المؤرخون أن أرض الجزائر كانت عامرة منذ العصر الحجري بأقوام غير العنصر البربري كانوا يسكنون المغاور والكهوف.

وادي سوف

تشتمل منطقة سوف على الكثير من المداشر والقرى المنتشرة هنا وهناك وقد تقدم داخل الكتاب جل أسمائها. وقاعدتها مدينة الوادي المعبر عنها بمدينة آلاف قبة الواقعة مسافة مائتين وعشرين كيلو مترا جنوبا من مدينة بسكرة.

اشتهر أهل منطقة سوف بالحيوية والذكاء في الميدان العلمي والاقتصادي وبميل كبير للعلماء والمصلحين، كما اشتهروا بالتدين والأخلاق الفاضلة.

كانت نسبة الثقافة العربية عندهم مرتفعة جدا ولا فرق في ذلك بين رجالهم ونسائهم كما كان الطابع العربي واضحا في لون تفكيرهم وتقاليدهم، بارزا في عوائدهم وسلوكهم يجلون الكرم والوفاء بالعهد والأمانة. غيورون على لغتهم ووطنهم غيرة نابعة عن نفس طاهرة خالصة لله وللوطن.

وكانت لغة التخاطب عندهم أقرب ما تكون من لغة أهل الجزيرة العربية إذ يحس السامع في لهجتهم وأسلوب خطابهم أسلوبا قرآنيا، إيجاز في اللفظ وسمو في المعنى ونبرات رنانة ذات إيقاع موسيقي جميل وصدق في التعبير عن مكنونات قلب طاهر ونفس صافية ينشدان الخير والحق والجمال.

ومن المعروف أيضا عن أهل سوف تعطشهم للعلم والتعلم وتحمسهم للمبادئ الإسلامية والحركات الوطنية فلم تخل منطقتهم عبر تاريخها

المديد من علماء وفقهاء ومصلحين أذكر منهم على سبيل المثال الشيخ عبد العزيز الشريف الذي عرف بتحديه للسلطات الفرنسية والذي ألب أهل سوف على نواب الوالي الفرنسي وأرادها ثورة في منطقة عسكرية.

وما أن بدأت الحرب التحريرية الجزائرية حتى كان أهل سوف من المتحمسين لرفع مشعل الثورة ضد الاحتلال الأجنبي وقد سجل أبناؤها أثناء الكفاح وقائع بطولية كانت محل إعجاب العدو والصديق، واستشهد من رجالها عدد كبير إن يطل ذكرهم هنا فالتاريخ كفيل بحفظ أسمائهم ضمن صفحاته الذهبية.

لذا نود أن يهتم أهل هذه المنطقة بمآثر علمائهم وإحياء ذكرى أبطالهم والاعتناء بتاريخ أرضهم الطيبة وما أسدته للعروبة والإسلام من عمل صالح وكفاح مرير ومقاومة باسلة في سبيل المحافظة على الشخصية الجزائرية.

بســـكرة

بسكرة مدينة جميلة ومن أشهر الواحات الصحراوية وتدعى أيضا ملكة الجنوب، معتدلة الطقس في الشتاء، حارة في الصيف، تقع بمنطقة الزاب الغربي.

كانت بسكرة إحدى القرى البربرية القديمة وكانت تسمى فسيكرة في عهد البرابرة. وقد تمركزت بها الديانة المسيحية ابتداء من العهد الروماني. فانتشرت في مناطقها الدور والكنائس إلى أن فتحها العرب بقيادة عقبة بن نافع الذي قتل بإحدى ضواحيها المسماة الآن باسمه أي بلدة سيدي عقبة.

وبعد أن تداول عليها الحكم الأغلبي فالحمادي فالمريني فالحفصي فالتركي، استولى عليها الحكم الفرنسي سنة 1844 م أثناء غزوه لأرض الجزائر.

غير أن أهالي بسكرة كانوا كسائر إخوانهم الجزائريين رافضين لهذا الاستعمار فلم يستكينوا مرة طيلة عهد الاحتلال للحكم الأجنبي وكان تاريخهم حافلا بالحركات الثورية والنشاطات الحزبية التي تعبر للمستعمر عن سخطهم وعدم رضاهم به وعن عزمهم الصادق على الإطاحة به والتخلص منه. كما كانت بسكرة دائما أهم مركز للثقافة العربية الإسلامية والإصلاح الاجتماعي في الجنوب لا سيما نشر مبادئ جمعية العلماء الجزائريين التي كان يقودها المرحوم الشيخ عبد الحميد بن باديس.

تقــرت

تقرت مدينة من مدن الواحات الشهيرة، تقع بين بسكرة جنوبا من ناحية، ووادي سوف غربا من ناحية أخرى.

كانت مدينة تقرت مركزا إداريا للمنطقة العسكرية في عهد الاحتلال الفرنسي كما كانت مركزا تجاريا وفلاحيا اختارها المعمرون الأجانب، لذلك نظرا لحسن موقعها إذ كانت تقرت قريبة من مدينة بسكرة التي هي الحد بين التل والواحات وكانت بين التراب العسكري والتراب المدني.

وتقرت اليوم أيضا ذات أهمية اقتصادية لوجودها قرب منابع البترول.

يمتاز أهل تقرت ومنطقتها بانتشار الثقافة الحديثة بينهم والأسلوب الحضاري في العيش وحبهم للعلم والعلماء. فقد نشأت بمنطقة تقرت منذ القدم حركات ثقافية كانت أولا من الداخل لوجود روح إسلامية لدى أهاليها ثم تغذت هذه الروح بفضل الصلة الثقافية العميقة الجذور عبر التاريخ بين واحة تقرت ووادي سوف من ناحية وبين واحات تقرت والجريد التونسي من ناحية أخرى، فكان علماء وادي سوف ونفطة وتوزر يفدون أفرادا وجماعات إلى تقرت وضواحيها وأذكر على سبيل المثال الشيخ مبارك المازقي التوزري الذي كان يقدم كل سنة إلى بلدة تماسين إحدى واحات تقرت وينزل بمحل المرحوم الشيخ الفاضل أحمد بوبكري إذ كان هذا الأخير أيضا فقيها ومحققا ومحبا للعلم والعلماء الأمر الذي جعله يخصص منزلا للوفدين من علماء وادي

سوف والجريد التونسي وقد درس كثير من أهل تماسين النحو والصرف والفقه والحديث والفرائض والأصول على الشيخ مبارك المازقي وما زالت لحد الآن صلة ودية بين أسرة الشيخ بوبكري وأسرة المازقي.

ومن العلماء الذين لهم صلة أيضا بهذه الناحية الشيخ عثمان بن المكي التوزري، والشيخ العربي القيرواني المدرسان بالجامعة الزيتونة، لهما تآليف كثيرة. كما توجد ببلدة تماسين أسرة علمية ماجدة هي أسرة المرحوم الشيخ أحمد الزكيزكي عالما وأديبا ومتصوفا ورعا وقاضيا عادلا محبا للعلم وأهله وكان قد خصص هو كذلك درا لنزول العلماء تسمى دار لاله مامه وبنفس البلدة أسرة علمية هي أسرة بالربح، اشتغل كثير من أفرادها بالقضاء والتدريس. وببلدة تماسين أيضا الزاوية التجانية الشهيرة. وإخلاصا للحقيقة التاريخية: إن رجال الزاوية التجانية المذكورة قاموا بدور عظيم في سبيل حفظ القيم الإسلامية والروح العربية في هذه الربوع، متنوا الصلة الثقافية بين علماء تونس وأهل واحات تقرت. كانت الصلة بين الزاوية التجانية المذكورة وتونس متمثلة في انتشار المبدأ التصوفي للولي الصالح الشيخ أحمد التجاني بتونس بواسطة الولي الصالح الشيخ الحاج علي التماسيني وخلفه، وفي الجامعة الزيتونة التي تعتبر عند أهالي واحات تقرت المثل الأعلى لطلاب الثقافة الإسلامية العربية كما نبغ كثير من أسرة التجانية في الثقافة الإسلامية والآداب العربية منهم الشيخ التجاني محمد الصغير الذي امتاز بسمة العلماء من تواضع وبساطة ودماثة أخلاق. وكان يدرس الفقه والتفسير والحديث والنحو والصرف في مكان ضريح الشيخ الحاج

علي التماسيني. ومنهم الشيخ محمد السايح الذي عرف برقة شاعريته فكان شعره على غرار البحتري وابن زيدون، وهو مع ذلك ناثرا على غرار الجاحظ وابن قتيبة. ويعتبر هذا الأديب من أكبر أصدقاء الشاعر التونسي الشيخ العربي الكبادي، كما كانت له صلة بكثير من علماء تونس وأدبائها. وقد نبغ من أسرة التجانية غير ما ذكر من العلماء والأدباء يطول الحديث عنهم وإليهم يرجع الفضل في تمسك منطقة تقرت بعروبتها وإسلامها.

ورقلة

ورقلة، أو هرقلة، أو أركلى كما كانت تدعى سابقا هي إحدى الواحات الشهيرة بكثرة نخيلها وجودة تمورها على مسافة 160 كلم جنوبي واحة تقرت.

كانت منطقة ورقلة آهلة منذ عصور قديمة بعناصر بربرية. وقد استولى عليها الرومان حينا من الزمن في عهد وجوده بالشمال الإفريقي. وعلى إثر حروب متتالية بين الغزاة والبربر أجبر الرومان على الانسحاب من المنطقة وتركها لأصحابها. غير أن صراعا داخليا جد بعد ذلك بين تلك القبائل البربرية أدى إلى تشتت شملهم وفقدان نظامهم وأمنهم حتى جاء الفتح الإسلامي.

كانت حياة ورقلة الاقتصادية قديما أكثر ما تعتمد على ما تستورده بالقوافل من بلاد إفريقيا الوسطى عن طريق الصحراء الكبرى. أما اليوم فقد اشتهرت بأسواقها في مختلف منتوجاتها الداخلية من تمور نخيلها لا سيما تمر دقلة نور، ومن صناعتها التقليدية ذات الطابع الصحراوي الجميل. كما أصبحت بفضل تقدم عمرانها الحضاري وتوفر مرافقها العصرية وجوارها لمنابع بترول حاسي مسعود خير مكان سياحي يقصده آلاف السواح من الداخل والخارج.

وقد عرف أهالي ورقلة منذ القدم بالشجاعة النادرة والذود عن حمى الوطن وهذا ما رغب البطل الشريف بوشوشة سنة 1871 م في أن

يجعل من ورقلة قاعدته العسكرية لمحاربة الغزو الفرنسي بالجنوب وأن يختار جل جنده من أبناء ورقلة مثل المخادمة والشعانبة وغيرهم ممن صمدوا أمام جيش الاحتلال وكبدوه أفدح الخسائر في الأنفس والعتاد.

ولم يفت أخيرا أحفاد أولئك الأبطال أن يسيروا على منوال أجدادهم فكانوا عند الحرب التحريرية ضمن إخوانهم الجزائريين من المستجيبين الأولين لنداء الوطن وأعلنوها حربا بطولية ضد المستعمر حتى النصر. وبذلك قد أضافوا صفحة ذهبية جديدة لتاريخ كفاح ورقلة المجيد.

غـــرداية

مدينة غرداية أو جوهرة الواحات كما يعبر عنها هي قاعدة منطقة بني مزاب ومن أشهر المدن الصحراوية.

توجد مدينة غرداية جنوب الأغواط وعلى الحافة اليسرى من وادي مزاب، وتسمى هذه المنطقة بالشبكة أو بلاد مزاب.

قيل إن مدينة غرداية أسست في القرن الحادي عشر، ويحكى أن الشيخ بابا ولد جمعة كان في ليلة من الليالي سائرا في طريقه إذ رأى عن بعد قبسا من نور فاتجه نحوه وإذا به يجد نفسه أمام غار تسكنه امرأة بانفرادها قد اتخذت هذا الغار مقرا لها، فاستأنس الشيخ بابا بالمرأة واستأنست به ثم اتفقا على الزواج فتزوجا وبقيا معا في ذلك الغار فكان الغار نواة لمدينة سميت باسم المرأة وهي داية، فقيل غار داية معناه الغار الذي تسكنه داية.

ومدينة غرداية الآن من أهم المدن التجارية بالواحات وسوقها من كبرى الأسواق نشاطا. اشتهرت غرداية ونواحيها بالمصنوعات الجلدية مثل الأحذية ذات الطابع الصحراوي والمحفظات وغيرها، وبالمصنوعات الصوفية مثل البرنس، والجلابية ذات الرسوم الهندسية.

وعرف عن أهل غرداية نشاطهم الاقتصادي وتمسكهم بمبادئ الإسلام الحنيف وتضامنهم المتين وتعاونهم على البر والتقوى.

مدينة غرداية من أجمل الأماكن السياحية، فهندسة المدينة وشكلها الخاص، ومسجدها ذو الطابع الأصيل بصومعته المشرفة على كامل

المدينة ومتحفها الفلكلوري التقليدي، وغار لاله سهلة (غارداية) والسدود التقليدية، والقصر العتيق، والأسوار التاريخية المحيطة بالمدينة كل ذلك كان باعثا على الروعة والجمال في نفوس الزائرين، ولا يقل عن ذلك ما يشعر به الزائر عند تنقلاته عبر منطقة غرداية مثل مدينة مليكة المنتصبة على مرتفعها الصخري، ومدينة بني يزقن ببرجها الجميل بوليلة ومدينة نورة ذات الهندسة العجيبة، والعطاف ومتليلي، وبريان وقرارة وغير ذلك. إن هذه المدن كلها بما لها من طابع أصيل، ومناظر ممتازة تدعو الزائر إلى التقدير والإعجاب.

وأهل هذه المنطقة هم المزابيون الذين نزحوا إلى جنوب ورقلة في بادئ الأمر عندما انتهت الدولة الرستمية التي حلت محلها الدولة الفاطمية. ثم انتقلوا نهائيا من جنوبي ورقلة إلى الشبكة، موطنهم الحالي حيث شرعوا يؤسسون مدنهم المذكورة آنفا.

فإلى المزابيين يرجع الفضل في عمران هذه المنطقة ونشر العلم والحضارة في ربوعها وبعث الحياة الاقتصادية في أرجائها.

الأغـــواط

الأغواط إحدى المدن الجنوبية الشهيرة المعروفة بواحتها البديعة.

يقول الأستاذ أحمد توفيق المدني في تأليفه "كتاب الجزائر" ما يلي: "الأغواط من أبدع مدن الجنوب، واقعة على وادي مزي. وبها سدود محكمة عربية على هذا الوادي لتوزيع المياه في الواحة البديعة التي تشمل نحو 32 ألف نخلة. وقد كانت الأغواط مؤسسة قبل قدوم الهلاليين ثم استوطنها الأحلاف أو أولاد سرين. وكانت أيام الأتراك تدفع اتاوة للجزائر بانتظام فلما وقع الاحتلال استولى عليها الجنرال ماراي مونج سنة 1844 م بدون مقاومة تذكر إلا أنها ثارت بعد ذلك في وجه السلطة الفرنسية فهاجمها الجنرال بيليسي يوم 4 ديسمبر 1852 م واشتعلت بين الفريقين نيران معركة حامية كانت نتيجتها تحطيم الأغواط ومعاقبتها بكل صرامة. والأغواط اليوم مركز تجاري عظيم، ويصنع بها الحرير، والصوف بصفة متقنة، وبها نهضة اسلامية عربية يرجى لها كل خير، وتعلق عليها الآمال..."

نعم كانت ولا تزال بالأغواط نهضة إسلامية كما ذكر الأستاذ المدني بل هي من أهم المراكز الإسلامية. فرغم انتشار الثقافة الفرنسية بها لم يفقدها ذلك طابعها العربي الإسلامي ولم تزل غيرة أهلها على العروبة والإسلام متقدة. ولم يزل الكرم العربي من أبرز شيمهم. وما انفكت ذلاقة اللسان العربي المبين بادية في حوارهم ومحادثتهم.

فقد بذل الاستعمار قصارى جهده وبمختلف الأساليب العلمية محو ما بالأغواط من أثر عربي إسلامي عميق إلا أنه لم يفلح من إزالة صبغة الله التي صبغ عليها أهل المنطقة. وهذه ظاهرة يجدر بأهل الأغواط أن يدركوها، وهي ظاهرة تثبت عمق شخصيتهم الحضارية.

حـــدود ســـوف

يحد أرض سوف من جهة الشمال المعبر عنه بالجوف أو الظهرة: بسكرة والحوش وسيدي محمد بن موسى والفيض والزرائب والميتة وبودخان.

ومن جهة الشرق: نقرين، وأفر كان ونفطة ونفزاوة.

ومن جهة الجنوب المعبر عنه بالقبلة: واحات طرابلس وغدامس وما والاها.

ومن جهة الغرب: ورقلة وتماسين وتقرت وما أضيف لها من القرى التي تمر على طريق بسكرة منها وإليها.

فمن الوادي الذي هو قاعدة سوف الآن إلى بسكرة خمس مراحل[1] لسير القوافل المعتاد.

وإلى بودخان ونقرين وأفر كان خمس مراحل أيضا.

وإلى نفطة أربع مراحل أو أقل.

وإلى واحات غدامس سبع عشرة مرحلة تقريبا.

وإلى ورقلة ست مراحل.

وإلى تقرت ثلاث مراحل أو أقل[2] والله أعلم.

1. مراحل: مفردها مرحلة. وهي المسافة التي تقطعها القافلة في اليوم وتتراوح بين خمسة وثلاثين وأربعين كيلو متر (كلم).
2. المسافة : من الوادي إلى بسكرة 220 كلم - نفطة 116 كلم - غدامس، تختلف حسب الطرق المؤدية إليها، في اتجاه جوي تقدر بنحو 550 كلم - ورقلة 255 كلم - تقرت 95 كلم - نقرين 163 كلم - أفركان 150 كلم.

تسمية سوف

كانت أرض سوف في القديم تسمى الظاهرة. قال القدماء[1] إنها سميت بذلك لأنها أول قطعة من الأرض ظهرت بعد نفطة حين انحصر عنها ماء الطوفان، كما أن أرض نفزاوة ظهر منها جانب في ذلك وهو إلى الآن يسمى الظاهر.

ثم صارت تسمى أرض سوف[2]، قيل لأنها كانت محلا لأهل الصوفة لأن كل عابد من أهل التصوف ينقطع للعبادة فيها.

وقيل سميت بذلك لأن أهلها الأولين كانوا يلبسون الصوف من أغنامهم لعدم وجود غيره من المنسوجات عندهم.

وقيل كان بها رجل عليم أي صاحب حكمة يسمى ذا السوف فسميت هذه الأرض به، والسوف في اللغة معناه العلم أو الحكمة.

جاء في كتاب تغريبة بني هلال : "قيل إن أهل سوف حين دخلت العرب إفريقية دخلوها... وسوف التي ذكرها هي المكان المعروف الآن بسوف البصرة بقرب مدينة حلب الشام. فلعلهم أتوا إلى هذه الأرض فسميت بهم"[3].

1. من المراجع التي اعتمدها المؤلف ما سماه القدماء ويعني بذلك ما بلغه مباشرة من الشيوخ الطاعنين في السن الذين عاشوا تلك الأحداث بسوف ولم يزالوا بقيد الحياة أو رووها عن آبائهم وأجدادهم.
2. وقيل أيضا إنها مأخوذة من لفظة أزوف وهي كلمة بربرية معناها الوادي وبحكم اختلاف تداول الألسنة حرفت وصارت سوف.
3. يعني أنه توجد بأرض سوريا (الشام) منطقة تسمى سوف أيضا قيل إن بعضا من أهلها قدموا إلى أرضنا ضمن العرب الذين دخلوا إفريقية فسموا أرضنا سوف باسم منطقتهم الأصلية بسوريا.

وقيل سميت بمسوفة[1] فرقة الملثمين (أهل اللثام أي النقاب) من البرابرة. ففي ابن خلدون ما يفيد أنهم مرّوا بهذه الأرض فلعلهم سكنوها زمنا أو فعلوا فيها شيئا فسميت بهم.

وقال القدماء: حين أتى طرود إلى هذه النواحي قالوا تسكن تلك السيوف[2] أي الأحقاف والكثبان من الرمل. والسيوف جمع سيف أي كثيب من الرمل فحذفت الياء بكثرة الاستعمال وتداول أول ألسنة العامة عليها مع عدم محافظتهم على أصول الكلمات فصار الذاهب والآتي يقول ذاهب إلى سوف أو كنت في سوف، والله أعلم.

1. مسوفة أو فرقة الملثمين هم المعروفون الآن بالطوارق والمفرد طارقي وهم البرابرة الموجودون الآن بالصحراء لا سيما بنواحي تمنراست والهقار.
2. سيوف : جمع سيف يطلق على الكثيب من الرمل الممتد وأعلاه حاد. سمى بذلك تشبيها له بسيف السلاح القاطع.

صفة أرض سوف

كانت أرض سوف بساطا مفروشا من رمل وبها شطوط قليلة قرب الوادي[1] في الجهة الشمالية وفوق ذلك كالتاجر[2] وشط الغرسة وغيرهما وكانت بها أحقاف[3] قليلة في الكتف وهو على مرحلة من الوادي في الناحية الغربية بطريق تماسين. وكذلك قرب موضع الزقم الآن وهو المحل الذي نزل به بنو عدوان بين الطريفاوي والمرتوم وهي بئر في طريق البهيمة والزقم على سبعة أميال من الوادي.

والرباح كان بئرا على أميال قليلة من الوادي وهو الآن عامر، آهل متصل العمران بعميش وبه كثير من النخيل كما سيأتي.

قال صاحب كتاب تغريبة بني هلال : "أتت الرمل إلى سوف من طرق الصحراء الكبرى من جهة الجنوب وما زالت تتزايد إلى وقتنا هذا"[4].

وقيل إنها تتوالد خصوصا في سني الأمطار.

قال الأنطاكي: اختلف في توليد الرمل فقيل إنه كطبقات الأرض من طفل. وقيل تراب انعقد بالبرد وقليل الرطوبات.

---

1. يعني بالوادي هنا المدينة التي هي قاعدة سوف لا الوادي الجاري.
2. التاجر يعني به شط التاجر. ترك المضاف واكتفى بالمضاف اليه.
3. أحقاف، وحقوف، وحقاف : جمع حقف بكسر الحاء وسكون القاف: هو كثيب الرمل المستطيل مع اعوجاج.
4. ومما ساعد على زحف الرمال إلى سوف نقص الأشجار بها وزوال ما كان بها من غابات في القديم.

والصحيح أنه جبال وأحجار فتتتها المياه بطول الأزمنة ومن ثم يكثر قرب البحار والأراضي التي قلبت برا.

قال صاحب النخبة الأزهرية: "يطلق اسم الصحراء الكبرى على الإقليم الرملي، منظره العام قفر رملي أو صخري به بعض المرتفعات تبلغ إلى مائة متر وإلى مائتي متر ارتفاعا وإلى ألف متر وإلى ألفين وخمسمائة متر"[1].

أما رملها فناعم كالدقيق المنخل، ملح المذاق، وفيه الحلو والمر والحريف. إذا ثارت الرياح أطارته في الجو أعمدة قد تغشى القوافل فتدفنها. وفي زمن الرياح لا يستطيع الإنسان السير في أرضها من غير ستر عينيه بزجاج [2] ونحوه خوفا من وقوع الرمل فيهما.

ومن مضار الرمل إذا شرب يحدث ضررا بالكلي لكن صاحبه ينفعه شرب الدهن وخصوصا الزيت.

ومن منافعه أن الدفن فيه يمنع الاستسقاء وهو انتفاخ البطن ويمنع الأورام الرخوه المتكونة من الماء المتحقن بين اللحم والجلد. وينفع لوجع الظهر وضربان المفاصل وثقل الركبتين وإخراج البرد القديم. والضماد به مسخنا أو سخنا يمنع التراهل وهو الارتعاش والاسترخاء[3].

---

1. يعني بذلك سلسلة جبال الهقار جنوب الصحراء. وأعلى قمة تسمى طهارت يتراوح ارتفاعها بين 3000 متر و 3020 مترا.
2. يستعمل أهل الصحراء زمن الرياح منظارا بشكل خاص يقي العينين من الرمل.
3. المعروف عن أهل الصحراء استعمالهم للحمام الشمسي أواخر فصل الصيف وذلك بأن يدفنوا أبدانهم ما عدا الرأس في الرمل المشمس قصد تداويهم من بعض الأمراض الناشئة عن البرد والرطوبة من بينها مرض الاستسقاء.

وأما ألوانه فقال الأنطاكي هي بحسب ما استولى عليه، فان غلب عليه الحر اصفر لونه، وان غلب عليه البرد ابيض لونه وان اعتدل حاله احمر، وان غلبت عليه الرطوبة المعفنة من قلة الحر اسود.

وهذه كلها موجودة عندنا بأرض سوف إلا أن أكثرها الأصفر ثم الأبيض ثم الأسود ثم الأحمر. لكن الأول لا يكون إلا على وجه الأرض غالبا وقد يكون داخلها ولا يتولد منه حجر في الأكثر لشدة حرارته. وقد يتولد منه حجر صلب أحمر اللون من الحرارة يسمى اللوس. وهو أنواع إذ منه المفرد وهو ما يكون قطعا صغيرة غير متشعبة، وقد يكون قطعا كبيرة وهو بتوالد، ومنه المركب وهو ما يكون قطعا كبيرة ذات شعب ورؤوس حادة ويسمى الكبيشة، والورد[1] وهو قطع صغيرة تكون كهيئة الوردة حين تفتح، والصفية وهي قطع يابسة عسيرة التكسر لا رؤوس فيها ولا أغوار وهذه لا تقطع إلا بالمعاول، والصوان وهو أشد صلابة من الصفية ومنه القطع الصغيرة والكبيرة، والترشة وهي رقيقة توجد عند الماء أو فوقه بقليل وقد تتعقد فتتصلب.

وأما الرمل الأبيض فلا يكون إلا في الأرض غالبا، وقد يكون على وجه الأرض وهو الذي يتولد منه الحجر في الغالب لبرودته ورطوبته.

قال الأنطاكي: حقيقة الحجر تصلب التراب بتوالي الرطوبات ثم الجفاف، وتختلف ألوانه بحسب محله وغلبة الرطوبة والحرارة بقسميها فإن فرط الرطوبة البرد يوجبان البياض وقلتهما توجب التكرج[2] والحرارة مع البيس يوجبان الحمرة.

---

1. وتسمى وردة الرمل، جميلة المنظر كالوردة النباتية تماما، يرغب السواح كثيرا في اقتنائها وحملها إلى بلادهم كأبدع تحفة يهدونها إلى أقاربهم وأصدقائهم أو يحتفظون بها في بيوتهم ضمن سائر التحف.
2. تكرج تكرجا معناه تعفن، يقال تكرج الخبز إذا فسد وعلته الخضرة.

وما يتولد من الرمل الأبيض عندنا أنواع مختلفة :

1. **التافزة** : ويقال لها الرغوة، والتربية والجيرية وحجر التراب، والمشاشة، والريغة، والبوغة، والدبدابة، والفرشة، والقارة.

2. **التافزة الحجرية** : وهي المتصلبة التي تكون غالبا قرب الماء بخلاف الأولى فإنها تكون على وجه الأرض. ومن هذين يكون الجبس الذي به البناء. وهي أيضا المرادة عند الإطلاق بالحجر في القديم وأما الآن فصار يطلق اسم الحجر على اللوس المتقدم الذكر وهو الذي يتم به البناء مع الجبس غالبا.

3. **رأس الكلب** : وهو حجارة مخلوطة بالتراب، قليلة الصلابة ولونها أبيض، تكون مفروشة في الغالب وقد تكون متكرجة.

4. **الربطة** : وهي حجارة رقيقة جدا تكون طبقات، بين كل طبقتين تراب، سريعة التكسر، شديدة البياض تميل إلى الزرقة.

وأما التراب الأحمر فلا يكون إلا قرب الماء أو في الشطوط ونحوها غالبا وتتولد منه حجارة محمرة مخلوطة ببياض، تكون بمحلها صلبة وإذا قطعت منه صارت سهلة التكسر وخصوصا إذا يبست وتكررت عليها الرياح ومن يراها يحسبها مركبة من الترشة والتافزة وتسمى عندنا **التربة**.

وأما التراب الأسود فيكون على وجه الأرض وفي باطنها وتسمى أرضه تنغرت[1] أو غمرة أو الشهباء، تتولد منه حجارة كأنها التربة إلا أنها تميل إلى السواد. اسمها يضاف إلى محلها فيقال لها **حجارة تنغرت** أو **حجارة الشهباء**.

---

1. قال الدكتور ناجح أحمد في كتابه القيم الذي ألفه باللغة الفرنسية وسماه سوف الواحات قال إن لفظة تنغرت كلمة بربرية زناتية تعني عندهم الأرض التي جرفتها المياه.

ومن جميع أنواع التراب تتولد حجارة رقيقة على وجه الأرض تسمى بالغليظ لكن الذي يتولد من التراب الأصفر والأبيض هو المسمى عند أهل العلم **حجر قبطي** ويستعمل لتنظيف الثياب وغيرها.

والذي يتولد من الأحمر والأسود يكون له بريق ولمعان تأخذه العامة في زعمهم أنه إذا ألقي في نار بمحل أبطل السحر من ذلك المحل، أو تبخر به إنسان أبطل عنه السحر ودفع عنه عين السوء.

ويتولد مما ذكر نوع آخر رقيق مفتول ومستطيل: الأبيض منه يسمى حجر الجير: لأنه يحرق فيصير جيرا، والأسود منه يسمى حجر الظفر: لأن النساء يحرقنه ويستعملنه لفتل الشعر وتسويده.

ويوجد على وجه الأرض حجارة تسمى المغرة وهي حمراء مع صفرة تتولد مع التراب الأحمر وهي التي يلتقطها الأولاد فيحرقونها ويخلطونها بالخل ثم يزينون بها ألواحهم في بعض المواسم وغيرها[1] ويسميها أهل الصناعة الونكل. وقيل إن هذا الاسم يطلق على الأصفر فقط. كما يلتقطها الرعاة فيعلمون بها الأغنام لتتميز غنم كل واحد عند خلطها، ويلتقطها بعض الناس فيسحقونها ويخلطونها بالماء ويسقونها لمن به اليرقان.

---

1. يعني بالأولاد الأطفال الذين يلازمون المكاتب القرآنية لحفظ القرآن الكريم. والمعروف أن لكل طالب منهم لوحة خاصة مصنوعة من أجود الخشب يكتب عليها يوميا نصيبا من الآيات قصد حفظها واستظهارها. واعز شيء عند طالب القرآن لوحته هذه التي لا تفارق ذراعيه طيلة أوقاته بالمكتب. فتكريما لها يعمد طلبة القرآن في المناسبات الدينية إلى تزيينها بأنواع من الأشكال الهندسية الجميلة ذات الألوان المتعددة.

قال الأنطاكي: المغرة طين أحكمت الحرارة نضجه فزاد في الحمرة مع يسير صفرة ينتفع بها في الأصباغ وأجودها الرزين الأحمر الخالي من الأجزاء الرملية...

المغرة تزيل الحكة والجرب دهنا ومن خضب يده بها ثم غسلها واختضب بالحناء لا يزول رونقها مدة طويلة.

وكان الأولون يجدون على وجه أرض سوف قطع الذهب الصغيرة كالبريقي الذي تقدم ذكره ويذهبون فيبيعونها في الجريد ولا يدرون من أين تولدت تلك القطع، هل من ترابها أو أطارتها الرياح مع التراب من أرض أخرى كأرض السودان. كما أنه كان في بعض شطوطها ملح البارود ويظنون أن موضعه كان بقرب الذواهب الآن دفنتها الرياح وكثر عليها الرمل وفسد موضعه.

وليس بها الآن معادن تذكر إلا ما كان تحت الأرض خافيا عن أبصارنا. وأما الملح فإنه يوجد الآن بشط التاجر أي الذي مات فيه رجل يتعاطى التجارة[1] مقبلا من عين البيضاء كان مع بني هلال هناك قبل عمرانها وكان قبل ذلك يسمى شط النازية وشط العجيلة وشط الأرواح.

---

1. أما الرواية الثانية في تسمية شط التاجر وهي منسوبة للشيخ العدواني فهي قوله : كان تاجر من عرب محور اكترى رجلا يدلّ به الطريق فلما وصلا إلى ذلك الموضع (أي مكان شط التاجر الآن) وكان الزمن صيفا حدثت الدليل نفسه بالسوء فأخطأ الطريق (عمدا) فعطش التاجر حتى آيس من نفسه فقال للدليل: لا بد أن تأتيني بالماء فقد ذهب عقلي. ذهب الدليل وأبطأ (تباطأ عمدا) لكي يجد التاجر ميتا (من شدة العطش) فيأخذ ما عنده من المال ثم إن التاجر حين آيس (طال انتظاره) حفر بعصاه فنبع له الماء وشرب حتى ارتوى وملأ قربته. ولما كان بعد صلاة العشاء جاء الدليل فوجد التاجر حيا بمائه (عنده ماء) فسمي ذلك الموضع به.. الخ.

والملح الذي به من أحسن الأنواع وهو المسمى من بين أنواع الملح الاندراني والداراني وفي ناحيته القبلية أي الجنوبية نوع آخر يسمى ملح العجين وبناحيته الغربية نوع أبيض بسواد يسمى المر وبهذا يعلم أن تلك الجبهة لا دهنية ولا كبريت فيها لأن من كانت كذلك يكون ملحها أسود لينا دهنا وهو المسمى النفطي.

قال أبو المحاسن: الملح ما يرد على سبخة فتخلط الحرارة ذلك الماء وتحلله فينعقد ملحا.

فإن كانت الأرض كبريتية انعقد أسود لينا دهنا وهو النفطي، وإن كانت الأرض طيبة التربة حمراء اللون والماء أكثر من السباخ كيفا انعقد قطعا شفافة حمراء وهذا هو الهندي. وإن كانت الحرارة خفيفة والأرض صافية بيضاء انعقد صفائح بلورية وهذا هو الأندراني. وإن كانت الحرارة قوية والبخار متعفنا انعقد قطعا صافية بين بياض وسواد مع حرافة وهو المسمى الملح المر. وإن صحت التربة وصح الماء واعتدلت الحرارة انعقد مختلف الشكل ما بين قطع ودقيق ويسمى ملح العجين.

وأجود الجميع وأحسنه الملح الأندراني ثم الملح العجين ثم الهندي أعني أنها في الجودة على الترتيب الأول فالأول.

وجميع مياه سوف الآن مستخرجا من الآبار: منها العذب[1] الفرات ومنها العذب السائغ، ومنها الممتزج، والملح المذق، والملح الأجاج[2] والماء المر. وهي متفاضلة حسب الترتيب المذكور الأول فالأول.

---

1. عذب: معناه حلو. ماء عذب ماء حلو.

2. أجاج: معناه مر عكس عذب. يقال أج الماء أجوجا أي صار أجاجا. قال الله تعالى: **﴿وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج﴾**، سورة فاطر، الآية 12.

وأجودها ما كانت بئرها قصيرة تذريها الرياح وتبلغ لها الشمس أو تقاربها، وأردؤها ما كانت بئرها بعكس ذلك أو كانت قليلة السقي منها بحيث يصير ماؤها راكدا، أو كانت قرب شجر تنزل إلى قعرها عروقها، أو كانت قرب مزبلة أو مرحاض تنزل إلى قعرها أو ساخها، أو كانت البئر مغلوقة أو في وسط بيت لا تدخله الشمس، أو كانت غير مرتفعة عن الأرض بحيث إذا أريق ماء بقربها ترجع اليها الأوساخ التي حولها أو طالت مدتها وكثر فيها الطحلب ونحوه أو كان بقعرها كبريت أو غيره من المعادن، أو كان تراب قعرها رخوا أسهل الاختلاط بالماء فتعسر تصفيته لشدة امتزاجه.

ثم إن جميع ماء سوف به شيء من التافزة المتقدم ذكرها لا تفارقه. فإذا طبخ أو قطر أو صفي بثوب رقيق يتخلف ذلك الشيء بالإناء الذي هو فيه.

قال الأنطاكي: التقطير والطبخ يصيران الرديء جيدا لفصلهما الكثيف عنه[1]. وقال: كل ماء تصحيحه وتعديله بالطبخ والتقطير.

وتقطيره في إناء الطين أحسن من تقطيره في غيره خصوصا إذا كان إناء حديد أو نحاس أو قزدير أو رصاص.

ومن محاسن ماء سوف أنه ينفعل بالحرارة والبرد وسريع التأثر بالجو.

---

1. من المعروف أن تقطير الماء بطريقة التبخير مما يفصل عنه الأشياء الكثيفة والأجنبية عنه مثل الملح والحجارة وغيرهما إذ البخار لا يحمل معه الأشياء الكثيفة إذا كان ماء المطر ماء خالصا صافيا عذب شرابه.

قال الأنطاكي : وكلما كان الماء أشد قبولا للحر والبرد وانفعالا بهما كان أجود.

تنبيه :

إن بعض الناس يخزنون البرد[1] (والمسمى عندنا التبروري) ويشربون ماءه في زمن آخر وبعد أن يتكدر فهو مضر وموقع في مرض السل.

والأحسن تبريد الماء[2] عند فقدان الأهوية المبردة في إناء الخزف (الطين المشوي) وشرب الماء في إناء الخزف أحسن من الشرب في العلب (إناء من الجلد يسمى ركوة) وهو إذا لم يكن فمه ضيقا أحسن من الزجاج، وهو أحسن من الحديد وهو أحسن من غيره. وأما اناء الفضة أو الذهب فحرام[3] عندنا لأن الله تعالى شرفهما ورفع قدرهما حيث جعلهما قيمة لكل شيء ولو الآدمي كدية القتل أو بعض الأعضاء أو غير ذلك. والله أعلم.

---

1. البرد : بفتح الباء والراء يسميه أهل الجنوب التبروري أو الحجري لكونه كالحجر يترل في بعض الأحيان عند المطر الغزيرة يخزنه الناس ويستعملون ماءه غالبا للتداوي من حرق النار. أما شربه فقد يكون مضرا لتعفنه أن طالت مدته.
2. قبل انتشار الثلاجات كان أهل الجنوب يتخذون القرب لتبريد الماء. ومفردها قربة وهي مصنوعة من جلد الماعز غالبا مع بقاء شعره. فإذا زال شعر القربة بطول الزمن سميت عندئذ شنة وجمعها شنات أو شنن. وتستعمل الشنة أيضا لحفظ التمر بها فتطول مدة جودته لا سيما تمر الغرس الذي له رواج في الأسواق خارج المنطقة.
3. عن ابن عدى عن مجاهد عن أبي ليلي أن النبي (ﷺ) قال: لا تشربوا في آنية الذهب (من صحيح البخاري الجزء التاسع).

تغيـــر أرضـــها

بعد أن كانت أرض سوف بساطا مفروشا من رمل لا كثبان فيها إلا في الكتف[1] والرباح وبين الطريقاوي والمرتوم[2] وقرب الزقم كما تقدم، أتاها الرمل من الناحية الجنوبية لأنه كان بها كثيرا وهذا في الزمن القديم جدا ولكنه في كل سنة يتكاثر ويزيد إلى وقتنا هذا. وما من سنة الا والتي بعدها يكون أكثر منها والدليل على ذلك ما نقل.

قال المسعودي في "مروج الذهب" ما نصه: إن ذا الأذعار من ملوك الأذواء الأولين الذين كانوا باليمن وجزيرة العرب قبل إفريقش، كان غزا المغرب ودوخة وفي حال مروره، أتى على الرمل فعجز عن المسير فيه". وقال في موضع آخر: "أن ياسر بن ذي الأذعار سار بعد أبيه إلى المغرب حتى بلغ وادي الرمل فلم يجد فيه مسلكا لكثرة الرمل فرجع".

وقال العياشي: "بعد أن كنا نسير في الرمل بالوادي نزلنا على الرباح وسط رمل يكاد يغلب الذي قبله، ثم نزلنا بموضع آخر يقال له العلنداوي فأصابنا مطر كثير لبد التراب فاستطعنا سلوكه حينئذ، وإني لأتعجب ممن يستسهل المرور فيها على طول السنين إذ هي ذات رمل كثير يضرب به المثل".

---

1. الكتف : مكان عن مدينة الوادي بنحو 35 كلم غربا.
2. المرتوم: مكان بين الوادي والبهيمة.

فكلام هؤلاء الجماعة يدل على أن الرمل كان قديما بأرض سوف ولكنه الآن ازداد كثرة على حالته الأولى. ويدل على ذلك أيضا تسميتها قبلا الظاهرة فإنها كانت ظاهرة من ارتفاع رمالها.

وحسب قول القدماء إن الجهة الجنوبية والشرقية كانت الرمال فيهما كثيرة جدا وأما الجهة الجوفية الشمالية والغربية فكانتا قليلتي الرمال بحيث أن الدخان إذا صعد من البهيمة والزقم يراه أهل الوادي. وكانت ميادين ركض الخيل في الأفراح والأعياد من الوادي إلى قرب موضع الطيبات [1] الآن ومنه إلى الفولية[2].

ثم ما زال الرمل يتدحرج من الجهتين السابقتين. كما أخرجت الناس التراب من بطن الأرض لغرس النخيل فتراكم وتكاثر.

ذكر الشيخ العدواني بأنه كان بأرض سوف غدر[3] النيل منذ قديم إلى زمن إتيان طرود إليها.

أقول اللهم إلا أن يكون ذلك وقت تشتت ماء النيل على وجه الأرض قبل أن يضبطه نقراوش الحدار بن مصرايم الأول.

قال القدماء: كل قبيلة نزلت حول غدير ثم تكاثرت الرمال ويبست الغدر وانقطع جريان الماء.

---

1 .بلدة الطيبات في طريق تقرت تبعد عن مدينة الوادي بنحو 65 كلم غربا.

2. الفولية تبعد عن الوادي بنحو 35 كلم شمالا.

3. غدر ويقال غدران واغدرة، جمع غدير وهو قطعة ماء من بقايا السيل.

أقول : والأقرب عندي أن تكون غدر الماء من باقي الوادي الذي كان يجري من الجبل (بودخان وعقله الطرودي والميتة) في الناحية الشمالية الشرقية على مسافة خمس مراحل أو أقل من الوادي. ثم يجتمع ذلك الماء بقرب القوايرات ويصير واديا عظيما يأتي غربا من مالح الغرب ويقال له مالح الدبائلية[1] لأنهم كثيرا ما يقيمون فيه وينصبون الفخاخ للحيوانات. ثم يمر ذلك الوادي نحو الشط الشرقي والى موضع غوط الصلاعة أو قربة. ثم ينعطف شرقا نحو الصحراء شرقا من الطريفاوي فينتهي هناك.

ومن بقاي الوادي الذي كان ينبع من عيون النازية[2] التي بوادي الجردانية قرب بئر العرب على مرحلة طويلة من الوادي في الجهة الشمالية الشرقية قريبا من وادي الجبل السابق ذكره.

قال القدماء: كان يمر غربا من موضع البهيمة الآن وغربا من شط الوادي ثم ينعطف إلى وادي زيتن وينتهي في مكان غربا من أم الصحوين.

قال الشيخ الورتلاني في رحلته: "ولا يعلم وراء قسطيلة[3] إلا الرمال، وسعر طعامها (أي قسطيلة) غال في أكثر الأوقات لأنه يجلب إليها. ويقال أن في الصحراء واديا يجري...".

---

1. مالح الدبائلية : مكان سمي بذلك نسبة لأهل قرية الدبيلة الذين كانوا ينصبون به الفخاخ أي الشراك لصيد الحيوانات. قال المؤلف لصيد الحيوانات ولم يقل لصيد الطيور فلعل هذا يدلنا على وجود بقايا بعض الحيوانات المتوحشة بأرض سوف حتى إلى عهد ميلاد قرية الدبيلة وإلى يومنا هذا توجد هذه الفخاخ القديمة عند بعض أهل الدبيلة.

2. عيون النازية على مسافة 60 كلم شمال شرقي الوادي.

3. قسطيلة : هي منطقة الجريد بالجنوب الغربي من القطر التونسي.

قال القدماء: ثم بعد زمن طويل انقطع الوادي الذي يأتي من الجبل حيث شق طريقا أخرى وبقي وادي النازية الى قدوم طرود الى سوف فانقطع بفساد عيون النازية من كثرة الرمل وغيره.

أقول إلى الآن يعثر بعض الناس على آثار ذينك الواديين وقد شاهدت منها أحجارا جبلية في طريق وادي الجبل منذ عهد قريب. ومنذ عشرين سنة تقريبا رأيت زجاجا عظيما ورخاما سألت عنه من ظفر به فقال المظنون انه أتى به الوادي من تاكرارات التي كانت قاعدة مملكة زناتة وهي قرب الميتة المتقدم ذكرها والله أعلم.

صفة جوها

جو الصحراء في منتهى الحرارة حرا[1] وفي منتهى البرودة بردا[2] فقد ترتفع فيه الحرارة في النهار إلى ما فوق الخمسين درجة وتنخفض ليلا إلى ما يقرب من درجة الصفر[3].

ومن الرياح التي تهب فيها ريح السموم عندنا ريح الشهيلي وهي ريح جافة محرقة في غاية الشدة.

قال المقريزي: "ومن عادة هذه الريح أنها تهب في أول النهار (أي تبتدئ منه) وكذلك تهب في آخر النهار ولا تهب قبله (أي لا تبتدئ في منتصف النهار وقربه) ولا تبتدئ الهبوب بالليل لأن الشمس تبلغ موضع مهبها في ذلك الوقت فتتخلل منه البخارات".

وضد ذلك ريح الصبا[4] وتسمى عندنا ريح البحري لأنها تأتي من ناحية البحر: وهي النسيم السحري المعتدل الذي يتلذذ به الإنسان ويطيب النوم فيه ويجد المريض راحة عند هبوبه. ويكون هبوب هذه الريح بالأسحار من الليل والغدوات من النهار ولا تهب بعد ذلك غالبا.

---

1. حرا : يعني به صيفا أي فصل الصيف.
2. بردا: يعني به شتاء أي فصل الشتاء.
3. إن طقس سوف وان يكن شديد الحرارة في الصيف نهارا فغالبا ما يبرد أثناء الليل.
4. ريح الصبا أو نسيم الصبا : بفتح الصاد هي الريح الآتية من الناحية الشرقية وتجمع على أصباء وصبوات. أما كلمة الصباء بكسر الصاد فتدل على فترة الطفولة عند الإنسان.

ومن منافعها تلقيح الشجر، وترطيب الأبدان والأثمار، وتذكية الروائح الطيبة، وإزالة العفونات من الأرض إلى غير ذلك.

وبعدم النظر إلى هاتين الريحين فهواء سوف من أحسن الأهواء لاعتداله وعدم انحراف مزاجه وطيب نسيمه وخفته وتنشيطه للأعضاء وهضم الغذاء، وعدم مرارة الفم عند القيام من النوم وصحة الرأس عند ذلك وقلة الوباء. وكل ذلك بسبب جفاف الأرض وقلة مروجها ومستنقعاتها وحياضها الراكدة وغدرانها الكدرة.

أما الأمطار بأرض سوف فنادرة ولا تهطل إلا ببعض الجهات من الصحراء شتاء بينما تحرم منها الجهات الأخرى طول السنة. وقد تهطل في جميعها لكن ذلك نادر كما أنه قد يكون في الخريف أو أوائل الربيع.

والسبب في قلة المطر بالصحراء كما يقول العلماء هو بعدها عن الجبال والبحار لأن البخار الذي يتصاعد من البحار وغيرها إذا وصل إلى كرة البرد المسماة عند علماء الهيئة بكرة الزمهرير أي شدة البرد بالجبال ونحوها يتحلل ويصير غليظه سحابا ورقيقه مطرا فيترل على الجهات التي صعد منها أو يقربها أو تنقله الرياح إلى غيرها من جهات الأرض.

وماء المطر طيب الرائحة عذب المذاق، يمكث الأزمنة الطويلة من غير أن يتغير إلا بفعل فاعل. والله أعلم.

أنــواع نباتــها

ليست الصحراء قاحلة بالمرة كما يتوهم البعض بل تنبت في واحاتها وأرضها الأشجار والنباتات العشبية والحشائش التي ترعاها البهم السائمة وقطعان الرحل من البدو.

فما كان لخصوص الرعي أنواع كثيرة منها الحلفاء والبشنة، والصفار، والعرجف، والسمهري، والعضيد، والسعد، والحارة، والدسلس، والعقفارية، والنتين، وذنب الفار، وكرش الأرنب، والخدة والخبيز، وبوقريبة، والقريطفة، والنصى، والقطف، والنمص، والخذلانة، والطازية، والمنيتنة، واللبين، والحاذ، والغبيثاء، والازول، والحميض، والسويدة، وبزول النعجة، والبدانة، والقصيبة، والبهمة، وسن العجوز، وساق الغراب، والنجم، واللافة، والقيطوط، ومغزل اليتيمة، والشيح، وغير ذلك.

وأما النباتات التي للرعي والتداوي معا فهي كثيرة منها: البسباس: يطيب رائحة الفم مضغا وأكله يطرد الرياح ويفتح السدد[1] ويجفف الرطوبات ويقطع سلس البول (وهذا نبات صغير بخلاف الآتي فانه شجر).

ومنها عنب الذئب ويقال عنب الثعلب، ويقال عنب الحية، أكلها يفتح السدد ويخفف اليرقان[2] ويبخر بها للترلة ووجع الأسنان وورم الحلق.

---

1. السدد كثافة غشاء العين الذي يقلل قوة بصرها أما السداد فهو داء يصيب الأنف فيمنعه من استنشاق الهواء ويقال في اللغة لمن كان فاقدا حاسة الشم أزكم.
2. اليرقان ويقال له الصفير والصفار هو مرض بالكبد ينشأ عنه صفرة أبيض العينين ولثة الأسنان مع فتور في الأعضاء.

الحرمل : ينفع شربا وطلاء للمبرودين وعرق النسا[1] ووجع الوركين والمغص والقولنج[2] .

الفيجل : ينفع كيفما استعمل لخروج الديدان والمقعدة، والبواسير.

الضميران : ينفع من داء الطيحان.

البصيل : ويسمى في اللغة الكراث ينفع لأوجاع الصدر والسعال إذا طبخ مع الشعير وشرب وإذا طبخ وحده ينفع للقولنج ويهيج الباءة وبزره يقطع البواسير ضمادا إذا لوزم وإذا خلط بعسل قطع النمش والثآليل طلاء.

الحنظل : قال الشيخ داود الأنطاكي: "يحلل البلغم السوداوي وينفع الفالج[3] والصداع والشقيقة وعرق النسا والمفاصل وأوجاع الظهر شربا وضمادا" وهذا النوع كبير تسميه العامة دلاع فرعون.

الفقاع : ويسمى في اللغة منتر الأرض، ويقال له نبات أوبر، وبنات التراب والكمأة، وبنات الرعد لأنه ينبت في الرعد بلا بزر ومثله الترفاس إلا أن الفقاع يكون في الأرض الرملية والترفاس في الأرض الطينية وذكرت الفقاع تحذيرا منه إذ العامة يتعاطونه كثيرا وخصوصا الأطفال الصغار. قال الانطاكي: "يولد القولنج والسدد وربما أوقع في الجنون أو ضعف البصر أو الهلاك، إذ الأسود منه سم وقته".

---

1. عرق النسا : وجع من أوجاع الأعصاب يبتدئ من مفصل الورك ويمتد إلى الركبة أو إلى القدم وهناك من يسميه عرق الأسى بدل النسا.
2. قال الشيخ داود الأنطاكي : القولنج هو الريح المعكوس المتصلب.
3. الفالج : داء يحدث في أحد شقي البدن فيبطل إحساسه وحركاته.

الترثوث : ويقال له الطرثوث، ومثله الذانون يقطع الإسهال شربا، ويحلل الصلابات طلاء ويخشن الجلد إلا أنه يضر الرئة.

وأما شجر الصحراء الحطـــبي فقط فأنواع متعددة منها الأزال، والأرطي، والعلندي، والزيتاء والبلبال، والباقل، والمرخ، وغير ذلك.

وشجرها الحطـــبي الذي له خاصية أنواع منها :

الرتم : ينقى الديدان شربا بالعسل.

العرعار[1]: ويقال له العرعر يشفى السعال وسيلان الرطوبة من الاحليل، والبواسير شربا.

الطرفاء : طبيخها يجفف الرطوبات مطلقا ويسكن وجع الأسنان مضمضة ورماده يحبس الدم ويجفف القروح.

الاثل : ويقال له الاهل والعذبة. طبيخه أو رماده بالزيت يشد الشعر ويبخر به للجذري.

تنبيه : جميع ما تقدم من النبات برى ينبت بنفسه وسقيه من المطر أو ثماد الأرض كالنابت بالسباخ ونحوها.

وسأذكر الآن من النبات ما يكون بريا وبستانيا يستنبت في السواني[2] وسقيه من الآبار بالدولاب أو الناعورة أو الخطارة أو بالدلو أو العمورة أو السطل أو نحو ذلك فمنها:

---

1. العرعار: نوع من الحشيش يستعمله الكثير من أهل سوف للتدخين مثل التبغ ويغلب تدخينه عند أهل القرى الثانية.
2. السواني: جمع سانية وهي في اللغة ما يعرف عندنا بالساقية أو الناعورة وصارت تنطلق الآن على الأرض التي تسقى بالناعورة. يقال سنى الأرض معناه سقاها والساني هو الساقي.

الريحان: ويقال له الشلمون. وان كان بريا يقال له الاس ماؤه يفتح السدد ويزيل اليرقان. وان ضمد به الصداع الحار اسكنه.

الرند : ويقال له القار، يستعمل لقطع السم والسعال شربا ويجفف القروح ذرا وبعضهم يسمى هذا رواندا. والصحيح أنهما يتفرقان إذ هذا لا ينبت إلا بالجبال هو خشن بخلاف الأول فانه غض لين.

البسباس : ويقال له رازيانق، ويقال له رازيانج، ولانسيون، والشمار والشمرة، والعريض يعالج به الخفقات والسعال ويجفف الرطوبات ويدر البول والحيض اكلا ويقوى البصر رطبا ويابسا اكلا أيضا.

الرجلة : ويقال لها البردقالا، والبردلاق، والفرنج، والبقلة الحمقاء، والبقلة المباركة والغيلم وبقلة الزهرة، تمنع الصداع والأورام الحارة طلاء بالسويق[1] وتشفى من الجرب والالتهاب وحرارة الكبد والمعدة والبواسير لكن الإكثار منها يسقط شاهية الأكل والجماع ويظلم البصر.

النعنع : ويقال له نعناع، ورافيا، وفونتج، وفودنج، وحبق التمساح، وبقلة العدس، وباذروج، وفرنجشمك. ينفع الغثيان[2] وأوجاع المعدة اكلا وينفع الحكة والجرب طلاء وشربا، والبري منه ينفع الجذام وأوجاع المفاصل شربا. والبستاني منه ينقي الصدر من البلغم والسعال ومرض الرئة.

الكزبرة : ويقال لها الكسبر، وتفاح الجان، والكشنير، ماؤها مع السكر يقوب الشاهية واذا نقعت في ماء ورد وقطرت في العين تمنعها من الجذري، وأكلها مع الشعير والفول يمنع الخنازير[3].

1. السويق : دقيق ناعم من الشعير أو الحنطة.
2. الغثيان : اضطراب نفس الانسان حتى يكاد يتقيأ.
3. الخنازير: هي غدد صلبة تكون غالبا في عنق المصاب بها. ويظهر على سطحها درن شبيه بالعقد.

حبة حلاوة : هي نوع من الانيسون المتقدم تفعل ما يفعله.

الكرنب : ويقال له الكرمب، والكرك، والكرمبيط، والقنبيط، لكن الأسماء الثلاثة الأولى المفروش الورق والأسمان الأخيران لملتف الورق. بزره يقتل الديدان، ويحرك الباءة ويلحم الجروح أكلا ويزيل آثار الجلد طلاء.

الكركم : ويقال له الورس وأصابع صفر. والصحيح أنه يكون منه البري أيضا خلافا لمن قال أنه لا يكون إلا مستنبتا. ينفع البهق والبرص والخفقان ويهيج الباءة شربا.

الخروع : دهنه يلين كل صلب حتى المعادن اليابسة مع ماء الفجل.

الخرشف : ويقال له حرشف وجناح النشر يحلل الرياح ويهضم الغذاء ويكثر الجشاء[1]. ويخرج الاخلاط الفاسدة في البول ويطيب رائحة البدن ولو بالطلاء.

مقل الصيف : ويقال له حيق الفيل، والمرزنجوش وهو نوع من المردقوش والآخر يسمى السرمق والعبقر، دخانه يزيل هواء الوباء، ويحبس الزكام، ومن مزجه بالحناء وطلى به الرأس في الحمام أذهب سائر أوجاعه.

المتنان : ويقال له اللزاز. أصله برى. ويستنبت أحيانا لقضبانه التي يصنعون منها مذابيل[2] لنسج البرانيص وغيرها. وتارة يفتلونها حبالا تزمن[3] وعصيا تشبه الخيزران.

1. الجشاء : ريح يخرج من معدة الانسان عن طريق فمه مع صوت خصوصا بعد الأكل عند الشبع. ومن الآداب أن لا يحدث الانسان به صوتا وأن لا يكون في وجه الغير.
2. مذابيل، مفردها مذبال : هو قضيب صغير حاد من أدوات النسج بسوف.
3. تزمن : معناه تدوم زمنا طويلا.

السعتر : ويقال له الزعتر والأفثمون إذا طبخ بالخل والكمون وتمضمض به سكن أوجاع الأسنان والحلق. وإذا طبخ بالزيت والكمون وطلى به بدن المولود حين وضع حفظه من البرد والرياح وبروز السرة. واذا خلط بالسكر وتمودي عليه صباحا ومساء قطع البخار وقوى البصر.

الحنظل : ويقال له الحدج، والعلقم، ومرارة السخور، أصله بري يستنبت أحيانا للخاصيات التي فيه وهي كثيرة منها: أن رماد قشرته ينفع أمراض المقعدة ذرا وسائر أجزائه تنفع البواسير بخورا وتنفع الفالج وأوجاع الظهر ضمادا، إلى غير ذلك. وهو صغير كالرمانة أو أقل.

الثوم البري : ويقال ثوم الحية، وخصى الثعلب، والحية والميتة، أصله بري ويستنبته بعض الجهلاء، ويزعمون أن إحدى الحبتين تبطل الباءة والأخرى تعيدها كما كانت. وهو كبيضتين مزدوجتين، وإذا حملته المرأة بالزعفران والمسك حملت من وقتها.

الفيجل : ويقال له فيجن، وفيجنه، وحشيشة افجن، وسذاب. وهذا شجر بخلاف السابق. يدفع السموم شربا وأكلا، ويمنع الزحير[1] والدم احتقانا وأكلا، وإدمانه يضعف البصر.

شجرة مريم : ويقال شيبة العجوز وشيبة شيخ، وشيبة شايب. تصلح الأطعمة كالأبازير، وتدفع الصمم ولو قديما أكلا وسائر أمراض البرد. والله أعلم.

1. الزحير: ويقال له الزحار، الزحارة وداء الزنطارية والديسنطاريا هو استطلاق البطن مع دم يسبب شيئا من الألم.

تنبــيه :

إنما ذكرت خصائص هذه الأشياء لإظهار كيف كان أهل سوف في القديم يداوون أمراضهم. وكان فيهم رجال يشتغلون بصناعة الطب والحكمة، يعودون المريض أو يأتونهم به فيعطونه أو يصفون له الدواء.

بقولها :

البقول جمعها بقل وهو النبات الذي يخصر له وجه الأرض. ولا أذكر منها هنا إلا المستنبت البري منها لا يكون بأرض سوف غالبا.

الكابو: ويشمله عموم اليقطين، إذ هو اسم لكل نبت ذي ساق امتدت فروعه على وجه الأرض. وهو أنواع مختلفة منه البلدي: وهو أسود، وأخضر، وأصفر، وأحمر، ومرقط، وغالبه محربش والأملس قليل وأكثره مستدير والمستطيل قليل. ومنه المزابي ويقال له التبسي وهو أبيض وأخضر وأحمر ومختلط.

وكله أملس. وسمي بذلك لأن أول بزره جيء به من مزاب ثم من تبسة. ومنه بوشوكه وهو صغير مستطيل أخضر أو مرقش ببياض. ومنه الحمامي وهو صغير مستدير لا يزيد على رأس الإنسان غالبا، لونه أخضر يميل للصفرة. ومنه الهجني وهو كالمركب من البلدي والمزابي تشبيها له بالحصان الهجين الذي كان أبوه كريما وأمه غير ذلك. وهو مستدير غالبا ولونه أسود يميل للخضرة، وأملس.

وكل هذه الأنواع تنفع المعدة وتطرد الرياح إلا النوع الأول منها فإن الإكثار منه تنشأ عنه الحرارة.

القرع[1] : وهو الدباء، منه الخضراوي ومنه الأربش. والكل مستطيل. يرطب ويلين، ورماده يبرئ القروح.

اللفت : ويقال له سلجم. يسخن الأعضاء الباردة ويحلل الرياح الغليظة.

الجزر: ويقال له السنارية وسفتارية وزرودية، وخبازا، ينفع مرض الساقين ويمنع الأكلة ويقوى البصر ويخفف أوجاع الصدر والمعدة والكبد والاستسقاء[2] ويفتت الحصى ويهيج الباءة.

الفجل : ويقال له أفيوس، ينقى الصدر والمعدة ويهضم الطعام ويجشىء ويحلل الرياح ويزيل البهق طلاء.

الخردل : ويقال له اللبسان، نافع لكل مرض بارد وخصوصا الفالج بماء الورد شربا وضمادا ويسمن الأعضاء ويحمر الألوان.

الذنجال : وهو الباذنجان والمغدا والوغد. يطيب رائحة العرق ويلين الطلابات ويدر البول ويقطع الصداع الحار.

القناوية : ويقال لها الكبلو والبامية. تطفئ الوهيج وتنفع القولنج.

الفقوس : هو القثاء، يسكن العطش وحرارة المعدة والكبد.

الخيار : نوع من الفقوس يسكن الصداع الحار ويدر البول.

البطيخ[3] : وهو الفقوس الشديد الصفرة، وله أسماء: المكي والمطلوق، والجباري، والقلعي، والباجي، وبطيخ اليصاري، والظهراوي وهو كالكابو

1. القرع : يطلق أيضا على الكابو التقدم ذكره.
2. الاستسقاء هو تجمع سوائل ميصلية في تجويف أو تجاويف الجسد أو خلاياه.
3. البطيخ في اللغة يطلق على المسمى الآن الدلاع.

في الصفة، والمرحوم وعند غيرنا يسمى الهناوي، والضميري، والكمالي، والبئري، والعبدلي، وجميع البطيخ ملطف ومرطب ومزيل للعفونات.

الدلاع[1] : وهو أنواع : أخضر، وأسود وأبيض وذو خطوط ويسمى الماوي والهندي، يذهب اليرقان ويدر البول ويفتح السدد ويعين على الهضم وأهل الشرق يسمونه الحبحب وهناك من يطلق هذا الاسم على الصغير منه، الشديد الحلاوة.

البطاط : شبيه بالبطاطس المعروف إلا أنه أكثر منه حلاوة وأطول جسما وأبيض قلبا واصفى قشرا واصلب شحما.

الطماطم : ويقال لها بيض البقول، الأنثى منها كبيرة مفرطحة ذات تجاويف مملوءة بالماء والبزر ونوع آخر ذو تجويف أو اثنين فقط وفي الغالب يكون فارغا من الماء وحموضة هذه مشوبة بحلاوة. والذكر منها صغير مستدير شديد الحموضة وقد يكبر كالبيضة ونحوها.

الحمص : نوعان: أصفر واسود. إذا نقع بماء وأكل نيئا وشرب عليه ماؤه مع يسير عسل يعيد شهوة الجماع. وإذا نقع في خل وأكل على الجوع ولم يتبع بغيره غالب يومه قطع جميع الديدان التي في البطن. ودقيقه إذا أعجن به الوجه أذهب الآثار ونقاه.

الجلبان : هو الخرقي، والبيقة، والبسلة، والقصاص. جميع أنواعه تنقى الكلف[2] غسلا وضمادا، وتحلل الأورام طلاء بالعسل.

1. الدلاع هو البطيخ غير الأصفر.
2. الكلف : بفتح الكاف وسكون اللام سواد تشوبه صفرة يعتري بشرة الوجه ولعل هذا المسمى عند العوام بالدسة التي تعتري وجه المرأة خاصة في بعض الظروف.

الفول : هو الباقلا والترمس. ينفع الاستسقاء ضمادا. ومع الخل والعسل يخفف مرض المفاصل يطلي به الملسوع ويجذب السم به.

الفلفل : هو الفوفل. ينفع أمراض الفم ويشد الأسنان واللثة لكن شرب الماء عليه مضر.

فلفل الماء : ويقال له فلفل العبيد، يحلل الأورام ضمادا والإكثار من أكله مضر.

فلفل غدامسي : هو فلافل السودان. يسكن أوجاع الأسنان، ومع العسل يهيج الباءة والإكثار منه يضر الحلق.

فلفل أكحل : هو الفلفل عند الاطلاق وكان أصله أبيض فيسلق بالماء يسود ويتكرج. يقطع البلغم ويحلل السعال البارد. وإذا طبخ في الزيت ولوزم استعماله أذهب الفالج والخدر[1].

الكروية : هي الكراويا والفرنباد. تحلل الرياح وتدر البول وتجشىء وتفتح الشاهية للطعام وتمنع التخمة.

الحلبة : هي الغاريقا. تحلل جميع الصلابات. وإذا طبخت وشربت بالعسل حللت الرياح وبقايا الدم المتخلف عن النفاس والحيض وإذا جعلت دلوكا نقت الأوساخ وحسنت الألوان. وإذا أنقعت في ماء الورد وقطر الماء في العين نفعت من بقايا الرمد.

المعدنوس: من الأبازير. أكله ينفع من وجع الكلى والمثانة ويقوى الباءة.

1. الخدر بفتح الخاء والدال شنج وفتور يصيب عضو الانسان فلا يستطيع معه الحركة.

الخس : ويسمى عندنا السلاطة. تدفع تغيرات الهواء الوبائي وتنفع من السموم خصوصا سم العقرب طلاء.

الكاوكاو : هو الكووكندم. يزيل الرطابات ويسخن المبرودين.

الكمون : هو السنوت وكرمينون والباسليقون. يحلل الرياح مطلقا ويطرد البرد ويعين على الهضم ويزيل التخم.

السلق : هو جار النهر. يحبس الإسهال ويقطع العطش شربا ويحلل الأورام طلاء ويحلل الرياح أكلا.

الكرافس : هي الكرفس. يزيل اليرقان وعسر البول ويحرك الباءة. ومع النوشادر والعسل يزيل آثار الجلد طلاء.

اللوبيا : ويقال لها سيلين وما ميرا وفريقا. تنفع لأوجاع الظهر والكلى وتهيج الباءة.

الفصفصة : هي الرئيسية والأسفست والبرسيم. تولد دما جيدا وان أدم سفها بالسكر خصبت البدن وغزرت اللبن.

البصل : يفتح السدد ويقوي شاهية الطعام وشهوة الجماع خصوصا اذا طبخ مع اللحم ويذهب اليرقان وداء الطحال ويدر البول وماءه يقطع الدمعة والجرب من العين كحلا خصوصا مع التوتيا أو العسل.

الثوم هو **الفوم** : ويقال له سرماسق. ينفع للسعال وقروح المعدة والقولنج والطحال واليرقان ويقطع النسيان والفالج أكلا. ومن لازم عليه بالشرب قبل الشيب لا يشيب شعره وهو مع النوشادر طلاء يذهب البهق. ولا يأكل منه ما تجاوز سنة أو نشأ في البلاد المفرطة الحرارة.

التابغة : ويقال لها الطابا والتبغ والدخان. مع الزيت دهنا يزيل البرد من الأعضاء.

القطن : ويقال له الكرسف، والطوط. الثياب المصنوعة منه تنفع الرعشة والفالج. وحبه يهيج الباءة وزهره قوى التفريح.

عبد الشمس : ويقال له الخطمى، والخبازي والخبيز سمي عبد الشمس لأنه يدور معها حيث دارت. يلين الصفراء ويطفئ اللهيب، والجرب، وقروح الأمعاء وحرقة البول أكلا.

الذرة : ويقال الذرا. والحاورس: خبزها يغذي وينفع قروح المعدة ويحلل الرياح الغليظة ولا يستعمل منه ما جاوز السنة.

المسطورة : هي القرطم أو نوع من الترمس. تنفع من الأخلاط الرديئة، وتحلل السعال.

الكزو : هو الكزوان ينفع من السموم. ونواره يصبغ به الجلود ونحوها بعد دبغها بدقيق الشعير المسمى عند العامة الطوط.

شجرة الفدة : شجيرة ذات نوار طويل تميل للحمرة توضع في أنابيب ويدخنونها كالطابا : تنفع لضيقة الصدر وتطرد البلغم .

الخشخاش : اذا أطلق يراد به المصرى وغيره. والخشخاش المقري والخشخاش الزبدي وهذا الأخير هو الذي ينبت عندنا. ينفع مرض الاستسقاء.

الحناء : هي اليرنا، ويقال لها افريغس، وأم الفاغية. تطرد الحرارة، وماؤها يذهب اليرقان والطحال.

أشجـــارهـــا :

العنب : يقال له الكرم، والملاحية، وهو أنواع: أبيض يسمى مسكي، والأحمر حلوى، والذي بين الحمرة والبياض بزول خادم. يصفى الدم وينفع السوداء.

التين : ويسمونه الكرموس والكرطوس، ينفع البواسير وعسر البول والخفقان.

الرمان : أنواع، حلو، حامض، ومر، يغسل الرطابات ويزيل اليرقان وتحسر اللون.

البرتقال : ويسمونه البرتقان، والشبنة والنارنج. قشره وورقه مفرح وبزره وعروقه نجاة من السموم الباردة. ومن خصائص قشره أنه يحفظ الثياب من الأرض المسماة عندنا السوسة، ورائحته تدفع فساد الهواء.

الخروب : ويقال له الخرنوب وهو نوعان، الأول يسمى القريط والثاني يسمى النبطي والبطريون والأخير هو الذي بسوف. يحبس الإسهال ويثبت الأسنان وقشره يسقط الثآليل.

الليمون : ويقال له الشمام والبلدي. ينفع القي والغثيان وفساد الغذاء.

القارص : ويقال له الشعيري وهو نوع من الليمون يسمى الاستيوب. يطفئ اللهيب والعطش والصداع .

التفاح : هو كالرمان منه الحلو والحامض والمر وكله يقوي الدماغ والقلب وينفع الخفقان المزمن.

المشمش : ويقال له المشماش والتفاح الأرمني واللوزي والكلابي والخرساني والصيني. الكل ينفع اللهيب والعطش ويلين الصلابات.

الخوخ : ويقال له التفاح الفارسي والدراقن. يسكن العطش ويدر البول.
البرقوق : نوع من الخوخ المتقدم يفعل ما يفعله.
الانجاص : ويقال له الأجاص والقراصيا. يسكن الصداع وأوجاع اللثة.
التوت : وهو الفرصاد وهو أحمر وأبيض والأخير هو الذي عندنا يسمى النبطي والحلبي يصلح الكبد والكلى.
الزيتون : إذا مضغ ورقه أذهب فساد اللثة وأورام الحلق. وثمرته إذا جعل عليها الماء حتى تحلو واستعملت بالملح والحوامض مع الأطعمة جودت الشاهية وقوت المعدة وهذا هو الزيتون الأخضر. وإن أخذت ثمرته بلا دق ووضعت في ماء طبخ فيه الجير ذهبت مرارتها في يومها وهذا هو الزيتون المكلس ولا شيء مثله للهضم وتقوية الأعضاء.
الهندي : قيل أنه اللفاح أو الأقسون فان كان الأول فيسكن حرقة البول وإن كان الثاني فيدفع السموم. وكله يعصم أن أكل قبل غيره من الطعام.
شجرة التاي : ويقال أتاي وشاهي وجاي، وجاهي. وهو أنواع أبيض وهو أجودها، وأخضر وأشهب، وأسود، وأصفر، وأحمر. ولكنها تدخل تحت عموم الخشاف. والذي استنبت منه عندنا الأخضر لكنه لم يتداول. وكله يصفي الصوت ويفتح السدد ويزيل اليرقان وعسر البول لكن الإكثار منه مضر.
شجرة الميعة : هي اللبنى. تحلل السعال حتى بالتبخير.
شجرة القنب : ويقال الكيف والحشيشة والشهادنج. يضر الكلي ويظلم البصر ويورث الجبن ويخدر الأعضاء ويسود الشفتين واللثة ويدنس الوجه ويجفف الرئة.

شجرة الصبغة : وهي النيلاء وهي نوع من الكتم. تصبغ بها الخمر والريطات أي الملاحف والبخانيق وتنفع القروح طلاء والزكام بخورا.
شجرة العليق : هو اللبلاب ويسمى قسوس، وقيناليس، وعاشق الشجر، وحبل المساكين. إذا طبخ في دهن كالزيت حلل الأوجاع مروخا.
شجرة السدر، نوعان : شجرة ذو شوك وقضبان صلبة مشتبكة وهذا عندنا بري. والثاني نباتي غض ذو رائحة طيبة يستنبت في البساتين. الأول إذا غلى قتل الديدان وأزال الرياح الغليظة. والثاني يقوي الدماغ شما. والإثنان إذا جعلا في ماء غسل به الميت لا يبلى دهرا طويلا.
شجرة القصب هو ذو الكعوب، والأنابيب. رماده يبرئ الجرب، والندى الواقع على ورقه يزيل بياض العين.
شجرة الفوة : وهي عروق الصباغين. استنبتت في الزمن القريب بالبساتين بعد أن كانت تجلب لأرضنا من الجريد، وهي هناك تنبت بنفسها حول الخنادق. تنفع لليرقان والفالج شربا بالعسل. وتقلع البهق طلاء بالخل.
نوار عشية : زهر البهار. ويقال له الأقحوان، والبابونج. يفتح السدد ويزيل الصداع شربا.
الورد، هو أنواع : أبيض يسمى الجورى، والوتيرة، وأصفر يسمى القحابي، وأحمر يسمى الحوجم. ولم يكن عندنا في سوف الآن إلا الحوجم. ماؤه ينفع لقروح العين وكذلك الاكتحال بيابسه.
الياسمين : ويقال له ياسمون، وهو السجلاط، أبيض اللون، ومنه الأصفر يسمى الزئبق وأبيض مشوب بحمرة يسمى الفل والكل عندنا يسهل البلغم وينفع أمراض الرحم.

القرنفل، هو نوعان : شجرة كالياسمين ونباتي كنوار عشية. فالأول نوره يعقد حبا في عساليج قصيرة والثاني لا يعقد وهو الذي عندنا، يتخذ للشم فقط وهو مفرح ومهيج للباءة ومقو للدماغ .

الخزاما : ويقال لها خيلي، وخيري البر شمها يقوي الدماغ ويفتح سدده ويقطر منه نوع من العطر يسمي خيليا .

النخلة[1] :

هي الشجرة المباركة التي قال فيها النبي ﷺ : "أكرموا عماتكم النخل". قيل إنها خلقت من فضلة طينة آدم عليه السلام وأنها تشبه الإنسان في أمور كثيرة، الأول : استقامة قدها كاستقامة قد الأدمي. والثاني تمييز ذكرها عن أنثاها. الثالث أنها لا تثمر في الغالب إلا بلقاح الذكر كما أن الأنثى من الأدميين لا تحمل في الغالب إلا إذا لقحت من الذكر. الرابع أن رائحة طلع ذكرها كرائحة مني الرجل. الخامس أنها إذا قطع رأسها هلكت كالأدمي. السادس أن الغلاف الذي تكون فيه الطلعة كالمشيمة التي يكون فيها الولد. السابع أن الجمار الذي في وسط رأسها إذا أصابته آفة هلكت كدماغ الإنسان ومخه. الثامن أنها إذا قطع منها غصن لا يرجع بدله كعضو الإنسان. التاسع: أن عليها ليفا[2] كالشعر يكون على الإنسان. العاشر أنها تعي كما يعي الإنسان وذلك أنها إذا

1. أخر المؤلف الحديث عن النخلة للاهتمام بها أكثر إذ شجرة النخيل أهم وأكثر ما تنتجه أرض سوف وواحاتها.
2. ليف : جمعه ألياف : ويقال للمفرد ليفة هو شعر النخل وما شاكله.

لم تثمر أو تسقط ثمرها يأتيها رجل بيده فاس يتهددها[1] ويقول له آخر أتركها هذه المرة فلا تضربها وستثمر أو تمسك ثمرها فتفعل.

وأنواع النخيل عندنا كثيرة[2] متباينة بالألوان والغلظ والرقة والطول والقصر والملوسة والتجعيد واتساع الأعلى أو الأسفل أو ضيقهما والرائحة الطيبة والمتوسطة والكريهة والطعم الحلو والحريفي والمتوسط واللين واليبس والتعجيل في النضج والتأخير فيه، إلى غير ذلك مما هو معهود. والذي حضرني الآن من أسمائه[3] ما يأتي : الغرس، وأخت الغرس، والدقلاوي (نصف ثمره دقلة ونصف ثمره الآخر غرس) ودقلة نور[4] وأخت دقلة نور، وفزاني، وأخت فزاني، وكبول فزاني، وفطيمي، وأخت فطيمي، وكبول فطيمي، ومسوحية (وتسمى باهية ودقلة عبيد)

1. كان هذا الاعتقاد سائدا لدى الفلاحين أصحاب النخيل قديما بسوف. فإذا ما تأخرت شجرة نخيل عن الإثمار وتمادت في إفساد ثمرها أتاها صاحبها بفأسه مهددا أياها بالضرب كما ذكر المؤلف وتارة يهددها بتجمرها (قتلها وتحويلها إلى شجرة يؤخذ منها مشروب حلو يسمى لاقمي).
2. يقول الدكتور ناجح أحمد في كتابه "سوف الواحات" بأن أنواع النخيل بسوف لا يقل عددها عن المائة والخمسين أو المائتي نوع.
3. عندما نتتبع أسماء هذه الأنواع من النخيل التي ذكرها المؤلف نجد جلها أسماء عربية فنستنتج من ذلك أن وجود النخيل بسوف كان بعد حلول العرب بها وأنهم هم الذين حملوا فكرة غرس النخيل بهذه المنطقة.
4. دقلة نور : هي أجود نوع من التمور وأكثرها رواجا في الأسواق الداخلية والخارجية وأصل اسمها دجلة لأن أول غرسة منها بسوف جلبها العرب من منطقة نهر دجلة ثم تحول النطق بها من لفظة دجلة إليها دقلة ثم أضيفت إليها كلمة نور لجمال منظرها فصارت تسمى دقلة نور.

ويتيم، وأخت يتيم، ودقلة بيضاء، وحمراية، وخضراية، وخضراوية، ودقلة صفراء، وشتاية، وكبول شتاية، والهتيلة، والجائحة، وتمر جرت، وأخت تمر جرت والعنابية، والسرسارة، والمسوسة، والدنجالة، والحتحاتة، والموشمة، ووجه العجوز، والرطبة، والعجروتة، والشهباء، وصبري، وبشعير، والقامدة، وأم القطوشة، وفم البهيم، ولولو، والنباتة وبوسعيد، والكركوبية، والبلوطية، ونعيمة، والحرة ودقلة عش. ودقلة الفرس، وحسينية، وبضين جمل، وبضين كلاب، وبيض حمام، وزق المنقار، والمفتولة، والحلواية، وبسر حلو، والسكرية، ودقلة بعول، ودقلة اللحم، وباجو، وكنتة، وأخت مسوحي، واصباع عروس، وبزول خادم ولية خادم، وكنتيشي، ومناخر، ودقلة النوارة، وتاتي، ودقلة العجين، وفاخت، ودقلة الباب، وحلواية الزاب، وراس الداب، وعبد العزاز، والشواكة والغدامسية، وتوزانت، وقطارة، وعلى اوراشت، ورشتي، وعمارية، وأخت عماري، وبدارة، وتاشلويت، وتانسليت، وبنت خبالة، وكسباية، ودقلة مامن، وقصبي، ولاقو، وقندي وتاوراخت، وظفير قط، وسبعة بوذراع، وتامرزيط، ودقلة مغص، وتنسين وتانزوين، وأخت تافزوين، وتفرزايت سوداء وتفرزايت صفراء، وتكرمست سوداء، وتكرمست حواء، وبوسالم، وبوفقوس، والذكار، وغير هذا كثير.

حكى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : "العجوة من الجنة وهي شفاء من السم". والعجوة هي التمر التام النضج. والبسر مصدع ومقو ومكثر للمنى. والرطب أي المنقر دواء للنفساء ومكثر للمنى. والبلح يقوي المعدة والكبد وبشد العصب المسترخي وإدمانه يقطع الجذام.

قال العياشي: "خرجت من تقرت وصحبتي أناس فقدمنا إلى سوف وهو خط نخيل مستعرض في وسط الرمل، فيه بلاد عديدة، ماؤها كثير طيب قريب من وجه الأرض. أخبرني أهل البلاد أنهم إذا أرادوا غرس نخلة بحثوا في الأرض قليلا حتى يصلوا الماء فيغرسونها هناك، بحيث تكون أصولها (عروقها) في الماء (أي قرب الماء لا فيه مباشرة) ثم يردون عليها الرملة فلا تحتاج الى السقي أبدا. ويعالجون أبعار الإبل تحت أصولها ولولا ذلك لماتت وهكذا يفعلون بسائر الفواكه والخضر والبقول. وتمر نخليهم من أطيب ما يكون. فأقمنا في الوادي واشترينا ما نحتاجه ثم رحلنا ونزلنا على ماء يقال له الرباح على نصف مرحلة من الوادي".

أقول : ومن عادة أهل سوف أن يجعلوا للنخلة ما دامت صغيرة شيئا قليلا من بعر الغنم أو شيئا من روث الدواب مخلوط بالرمل لئلا يتلبد، ويكون ذلك قريبا من جدعها أو تحتها. ثم إذا كبرت يجعلون لها أبعار الإبل (الجلة) مخلوطة بالتراب بعيدة عنها بنحو ثلاثة أذراع أو ذراعين ونصف، وبكون ذلك في زماني الاعتدال. (شهر مارس في الربيع وشهر شتنبر في الخريف). وأهل الخبرة منهم لا يجعلون الأبعار بمجرد حرث موضعها بل يقدمون حرثها لتخرج العروق فيه فيعملون موضعها إذ لو فعلوا قبل ذلك فلربما تكون أسفل من العروق أو أعلى. وفيه فائدة أخرى وهي أن الأبعار لا تبيد قبل خروج العروق. ومن جهل البعض أنهم يجعلون الأبعار تحت النخل غير مخلوطة بالتراب فإنه ينشأ عن ذلك هلاك عروق النخلة بعد سنين حين تبيد تلك الجلة أو يهرب عنها الماء

إذ لا دهنية فيها، بخلاف التراب فإنه ولو بادت الجلة أو هرب الماء تبقى العروق معه سليمة ويسمون هذا علفا تشبيها بعلف الدواب.

وغير النخل من الأشجار يجعلون لها بدل الجلة روثا أو رمادا فوق عروقها ويجرون عليها الماء ثم يغطونه بشيء من التراب ويسقون الشجرة. وأما البقول فيجعلون لها حين غرسها حفرا فيها شيء من السماد.

تنبيه :

ومن الأشجار أيضا التي كانت بأرض سوف: الضريع، والقتار، وأخرى لم يبق لها اسم عندنا. وإن جميع ما ذكر من النبات كان موجودا بسوف لكن البعض منه انقطع الآن منها لتراكم الرمال وبعد الثماد[1].

والله أعلم

1. مما يؤيد صلاحية أرض سوف قديما وقبل تكاثر الرمال لغراسة ما ذكر من الأشجار والخضر وغير ذلك من النباتات ما روى عن الدكتور ناجح أحمد في كتابه "سوف الواحات" فقد ذكر الدكتور أحمد بأن الفرصة قد مكنته يوما من الاطلاع على رسالة موجودة بزاوية تماسين تحمل تاريخ سنة 1828 كان بعث إلى الولي سيدي الحاج على شخص يدعى عبد الله الشريف يعلمه فيها بأنه كان في حسبانه بفضل الري الحصول على إنتاج طيب من القمح بمنطقة النازية.

حيواناتـها وحشـراتها

حيواناتها[1] :

عن القدماء بلغنا أن الأسد المسمى عندنا الصيد كان بأرضنا حين كانت غابة العرعار غربا من محل الوادي الآن ولكنه انقطع منذ زمن طويل.

النمر : كان بسوف وانقطع عنها إلى الجنوب منذ زمن قريب.

الفهد : قال آرسطو إنه متولد بين الأسد والنمر. كان الفهد وقت دخول بني هلال وبني سليم إلى سوف يلعب به رؤساؤهم ويصيدون به ثم انقطع.

الحمار الوحشي : هو اليحمور. كان أيضا موجودا ثم انقطع.

البقر الوحشي : أكثر وجوده كان بالصحراء جنوب سوف. ويقال له بالفارسية كوزن. مخه يطعم به صاحب الفالج فينفعه نفعا بينا.

الزرافة : هي أم عيسى مركبة من عدة حيوانات. فرأسها كرأس الإبل، وقرونها كقرون البقر، وجلدها كالنمر، وأظلافها كأظلاف

1. أثبت الكثير من المؤرخين أنه عندما كانت الغابات بأرض الجنوب منها أرض سوف كان بها الكثير من الحيوانات المفترسة مثل الأسد، والنمر، والفيل، والفهد، والحمار الوحشي، والبقر الوحشي، والنعامة، والتمساح، والزرافة، وغير ذلك. وكان سكان المنطقة يصطادون هذه الحيوانات بالنبال الحجرية ويقتلونها بالفؤوس المصنوعة من الصوان وغيرها من الأدوات المنحوتة من الصخر. وقد عثر غير بعيد على أنواع من هذه الأسلحة في أماكن كثيرة بسوف مثل الدبدابة والمقيبرة وسيف المنادي.
وكانوا يصطادونها لأكل لحومها والانتفاع بجلودها وعظامها وأنيابها وريشها.

البقر، وذنبها كذنب الغزال. ومن الخرافات أن الضبع يترو على الناقة بذكره فيترو ذلك الذكر على البقرة الوحشية فتلد الزرافة.

الغزال : هو الظبي، الأبيض منه المائل للزرقة يسمى الريم، والرمادي القريب من السواد يسمى العفر، والآدم، والأحمر يسمى الأحمير. ومن عجائبه أنه يأكل الحنظل والحدج فيستحليه ويشرب ماء البحر فيستعذبه.

الذئب : ويسمى عندنا السرحان أيضا. وهو عدو الغنم.

الضبع : هو الأعرج يحب لحم الآدمي فلذلك بنبش القبور. وإذا مر بإنسان نائم يحفر تحت رأسه حتى يسقط في الحفرة فيبقر بطنه ويأكل لحمه.

الثعلب : هو ذو الحيل[1]، البعض منه موجود إلى الآن.

الفنك : هو الأبيض من الثعالب وهي رمادية.

القنفد : ويسمى عندنا القنفود ويقال له الكبابة. وهو كالكرة وشوكه قصير. فإذا أحس بأحد يدخل في بعضه، لحمه يوقف الجذام. والبخور بجلده يذهب الحمى.

الظربان : في عرفنا ولغتنا هو القنفد الكبير الذي في حجم الكلب، طول شوكه نحو شبر وأكثر. إذا أحس بأحد وخاف منه يرميه بشوكه فيجرحه.

الأرنب : ويقال له الخزر وهي الخرقق. دماغها ينفع لمرض الارتعاش وإذا شرب في قدر وقيتين[2] من لبن البقر منع من شيب شعر الرأس وغيره.

---

1. سمى الثعلب ذا الحيل، لأنه أكثر الحيوانات حيلة وروغانا حتى أنه شبه به الإنسان الذي في طبعه مثل ذلك فقيل:

يعطيك من طرف اللسان حلاوة   ويروغ عنك كما يروغ الثعلب

2. وقية : جمعها وقايا. يقدر وزن الوقية الواحدة بثلاثين غراما.

الحمار الأهلي : هو البهيم وأنثاه بهيمة أو حمارة أو أتان.

الماعز : واحدته عنز وذكره تيس ويسمونه عتروسا لحمه حسن في الصيف رديء في الشتاء لما فيه من البرودة.

الضأن : هو الغنم. أنثاه يقال لها نعجة وهي الفاغية وذكره كبش والصغير حمل. لا يصلح تعاطي لحمه زمن الطاعون وما عدا ذلك فنافع.

الإبل : الذكر يقال له جمل والأنثى ناقة. لحمه يذهب الحمى ويقوى الأبدان. ولبن الناقة ينفع لقروح المعدة وإزالة الوخم.

البغل : هو الشاحج المتولد بين الفرس والحمار. فان كان الذكر حمارا يكون شديد الشبه بالخيل ولا يتغير اسمه. وإن كان الذكر فرسا يكون شديد الشبه بالحمار ويسمى حينئذ وشفونا. وبعضهم يزعم أن هذا متولد بين البقر أي الثور والفرس. نحاتة حافره اذا حرقت حتى صارت رمادا وطلى بها مع دهن الأس رأس الأقرع ينبت شعره.

الخيل، هي العاديات والصافنات الجياد، والعتاق: الذكر يسمى عندنا الحصان والأنثى الفرس. وفي اللغة الفرس جامع للذكر والأنثى.

الكلب العربي : هو الوازع والكعلي.

سلوقي الديار : هو الهبلع والعاطل .

سلوقي الصيد : هو الهجرع والخفيف.

القط : ويسمونه القطوس هو الهر والضيون والسنور. مجاورة أنفاسه يحدث الذبول ومرض السل.

أطيـــارهـــا[1] :

هي كثيرة لا يسعنا إحصاء جميعها مع مطابقة الأسماء الشائعة عندنا على الأسماء اللغوية لضيق الوقت ولكن لابد من ذكر المشهور منها:

الحداءة : والحداة وتسمى عندنا الحداية.

الأنيس : ويسمى عندنا بوبشير لأنه يبشر بدخول العام الجديد قبل غيره.

العصيفيرة : هي الزراعة.

اليحموم : أو أم رباح: هي العقاية.

الظليم : أو الرفراف والسفنج والعسنج هو ذكر النعام.

بو حبيبي : هو الزرزور.

الصافر : أو الصفار هو بالنطيري.

الطيطوي : هي أنثى تبيب.

الطهيوج : هي الدحرة.

العصفور : هو الزاوس.

العندليب: أو الهزاز هي الغناية.

الجميل : هي خويدم عرب.

أم عجلان : هي المسيسكية.

---

1. يقال أطيار وطيور وطير: جمع طائر: اسم لكل حيوان ذي جناحين. ومن حكايات العوام قولهم أن الطيور عندما صنع الله تعالى لها أجنحة اجتمعت فرحة مسرورة وقالت : غدا سنطير بأجنحتنا إن شاء الله إلا الدجاجة فقد ردت على بني جنسها قائلة: ما دام عندنا أجنحة فسنطير بمشيئة الله أو من غير مشيئته. فعاقبها الله على كفرانها وجهلها بأن جعلها عاجزة على الطيران رغم جناحيها.

الغرغر : أو اللباد هي السمانة.

القطا[1] : أو الغضارة أو الغظف، أو مارية، أو الهوذة هي القطاية.

أبو عباءة : أو الفرفور هو بوعبية.

القارية : نوع من بوبشير السابق هو طير المطر.

القنبرة : أو القبرة هي أم العلعل.

الطواف : أو قطوب هي طير الجن .

القوبعة : ويقال لها أم عروج هي سهاية الرعيان.

النسر : ويقال له أم قشعم وأم الأصبع.

أبو قير : هي الشعيرية.

المقوقس : هو النقاب.

المكاء : أو المطوقة هي المكة.

النحام : هو نقيز الرمان.

النعامة : هي بنت الهيق، والهودع وأم ثلاثين.

أم سوسي : ويقام أم سيسي ويقال الصغيرية هي النقارة.

الحمام التركي : ويقال له الحمام الخوخي هو النواح.

زمج الماء : هو النورس.

الهمامة : ويقال أم الصبيان وأم الليل هي أم الذر.

---

1. قال الشاعر :

بكيت على سرب القطا إذ مررن بي ... فقلت ومثلي بالبكاء جـــدير

أسرب القطا هل من يعير جناحـــه ... لعلى إلى من قد هويـــت أطير

الكروان : طائر شبيه بالبط.

فرخ النعام : هو الهقل.

أبو هارون : ويقال له الغراد والنواح.

النقاز : لونه كالدباغ هو نقيز دباغي.

البوم : والبومة نوع من أم الذر. ويسمى غراب الليل، والضوع. الذكر منه يسمى صدى وفياد، والأنثى تسمى أم الخراب.

أبو الحسن : ويقال له الحسون، والأخطب وبوزقاية هو سير قراق.

الأسفع : هو عمير.

الانوق : هو الرخمة.

الوزة : لا فرق في اسمها اللغوي والمستعمل.

الببغاء : أو الدرة هو بابا غيو. وهذا الطير لا يأتي إلى سوف بنفسه وإنما يجلبه أحيانا بعض أصحاب الحانات.

الوصع : أو الدخل هو بوفسية.

الدغناش : هو حميميرى.

البلبل : أو النغر أو الكعيت أو الشحرور هو اتنكش بلبل.

الغرنيق : الغرنوق أو مالك الحزين هو البلارج.

البهرمان : هو اتنكش غيطان.

البوة : أو البوهة : صغيرة البوم هي أم عكسة.

الحبارة : أو الحباري هي الحبرج.

الحجلة : هي دجاجة البر ويقال لها القبج.

الابرش : أو الملمع أو ابن داية هو الغراب الابقع.

الزاغ : هو الغراب الصغير.

الغداف : هو الغراب الأشهب المائل للسواد.

أبو القعقاع : أو أبو الزاغ أو الحائم [1] هو الغراب الأسود [2].

اليمام : أو السعدان أو الحقم هو الحمام البلدي.

الورقاء : أو حمام الصحراء، أو الوحشي، والدبيسي هو الحمام البري.

ذو الأطواق: والفخت، والصلصل، والقلقاني هي الحمام القمري.

الدجاجة : وأم حفصة، ذكرها ديك تسميه العامة سردوكا وصغيرهما فلوقة وهي الشامرك.

الخطايفة : أو زوارة الهند هي الخرطيفة.

الخفاش : والخشاف، والوطواط، والخندع، ولطمروق هو طوير الليل.

العقاب : ويقال له الكاسر، والصومعة، والحدايرية.

الأغثر : هو بوكرومة.

الأطيش : هو طير الزرع. وأخو الجراد، هو عوينة الزراع.

ويوجد غير هذا لكنه غير مشهور وتركت خصائص الأطيار مخافة السآمة.

---

1. الحائم : اسم من أسماء الغراب : اسم فاعل من حام، يحوم وذلك لأن الغراب يحوم حول ما يريد أكله بلا سيما لحم الميتة وقد قيل:

إذا كان الغراب دليل قوم   يمر بهم على جيف الكلاب

2. أما لونه فأسود معروف وليس هناك غراب غير ذلك. ولعل المؤلف يقصد بقوله الغراب الأسود تركيز انتباه القارئ إلى هذه الخاصية في لون الغراب.

حشـــراتهـــا [1] :

الحنش : نوع من الحيات الزاحفة. اذا طبخ ثوبه مع الزيت وقطر في الأذن خفف أوجاعها.

الورل : ويقال له الورن. إذا وضع لحمه في مكان الشوك بالبدن جذبه وأخرجه.

الضب : شبيه بالورل: بعره يذهب البرص والكلف طلاء.

بوكشاش : هو سام أبرص، الأسود منه دمه يورث البرص.

بوبريص: هو أيضا سام أبرص. أكله يوقع السل وغيره.

الزلقيقة : هي شحمة الأرض أو الخراطي. رمادها مع الدهن يزيل قرع الرأس طلاء.

الزرزومية : ويقال لها الزرمومية. إذا شقت ووضعت على الحبوب الدمية أخرجت ما فيها من دم فاسد.

الوزغة : ويقال لها الوذغة : هي نوع سام أبرص.

الشرشمان[2] : وهو نوع من الجرذون ويقال الحردون. لحمه ينفع لابتداء السل وجلده اذا حرق وطلى به مع العسل منع ألم الضرب.

---

1. ضمن الحشرات تعرض المؤلف إلى أنواع منن الزواحف مثل الحنش والأفعى وغيرها مما يزحف على بطنه.
2. ويقال للشرشمان سمك الرمل لأنه يغوص في الرمل كما يغوص السمك في الماء وحركاته في الرمل كحركات السمك في البحر والأرض الرملية الشاسعة بالنسبة للشرشمان كالبحر بالنسبة للسمك.

العظاء : ويقال لها الزغدودية والسحلية وهي نوع من الشرشمان المتقدم. ويزعمون أنهما شيء واحد وإنما تكبر فتصير شرشمانا والصواب أنهما مختلفان.

البعطوط : نوع من الزغدودية لكنه رقيق جدا وهو المسمى أيضا الحلكة والحلكى والحكاء .

الأفعى : والذكر أفعوان سمه قاتل. ورماده ينفع البواسير طلاء.

العقرب : يستعمل في عرفنا للأنثى. والذكر عقربان. وأما في اللغة فالعقرب تشمل الذكر والأنثى، ثم أن الأنثى يقال لها عقربة أو عقرباء وهي كثيرة بأرض الصحراء عامة. ومن خصائصها أنها إذا رأت وزغة ماتت في حينها. وإذا أحرقت عقرب في بيت فرت منه العقارب وإذا طبخت في زيت ووضع على مكان لدغ العقارب سكن الألم والبعض يطبخها مع سمن البقر ويطلى به موضع اللسعة فيسكنها وأن دقت عقرب ووضعت على لسعتها أبرأتها.

الضفدعة البرية : ويقال لها جرانة الصحراء: تتولد من العفونات وعقيب الأمطار لحمها سم قاتل .

البوية : نوع من الحرباء تتلون بلون ما تمشي عليه وتنفخ كثيرا ولها أنياب حادة. مولعة بالنظر إلى الشمس تدور حيث دارت. لحمها مضر وطبيختها يستعمل للصبغة باللون الأخضر.

السقش : هو نوع من الظربان كريه الرائحة أكل لحمه دواء للوخم والسعال الجاف.

الثعبان : هو الكبير من الحيات الزاحفة ونوع الوزغ وهو عدو الإنسان إذا أصابه يلتوي عليه ويقتله.

الجرذ : ويقال له الجرد. أكدر اللون وبذنبه سواد، سريع العدو.

اليربوع: ويقال له الجربوع، والدرص وذو الرميم.

فأر الصحراء : ويقال له فأر الغيطان وهو الزبابة.

فأر البلد: ويسمى فأر البيت وأنثاه الفويسقة. سميت بذلك لأنها فسقت وخرجت عن الطريق المستقيم بقطعها حبال سفينة سيدنا نوح. والفرق بين فأر الصحراء وفأر البلد أن الأول أبيض وأصفر وأحمر، والثاني أسود وأشهب.

الصرصار[1] : أو الصرصر أو الصرصور هو الجدجد ويقال له بوبزيز، والمغني.

الفراش : ويقال له الأحمق[2] هو بوفرططو.

الجندب : ويسمونه كبش خريف ويطلق هذا الاسم أيضا على العزونة.

العنكبوت : وهي الكبيرة طويلة الأرجل المسماة عندنا السداية تمنع الحمى بخورا.

الرتيلا : هي الصغيرة وكبيرة البطن قصيرة الأرجل. المسماة الورل وهي سامة إذا وضع الورل رطبا على نهشته جذب سمه. وملسوعه إذا نظر إلى آنية الذهب بريء.

---

1. الصرصار، أو الصرصر، أو الصرصور من أسماء الأصوات أعني مأخوذة من الصوت الذي تحدثه هذه الحشرة عند غنائها، مثلما يقال صرير الباب، ومواء القط، وعواء الذئب، وخوار البقرة، وخرير الماء، إلى غير ذلك.
2. سمي الأحمق لارتمائه على النار والنور حتى يحترق من كثرة قربه إليهما وتردده عليهما، ويضرب به المثل على الإنسان الذي يحوم كثيرا حول المخاطر الغير مفيدة حتى يقع في مأزقها.

الدود : هو ابن الندى وابن التراب، وابن العفونة.

دود الغنم : أو دود الإبل هو النغف.

القرنبي : أو نبات الشيح ويسمونه قطاع الشكاوى ينفع من عسر البول طلاء.

الدلق : هو ابن مقرض وابن مقروض ويسمونه بوجلم. جلده ينفع للقولنج والبواسير.

الشبتان : هو كشار السواقي.

فالية الأفاعي : هي خنفوسة الرجلة.

الدنة : هي قراص الأذنين.

الحماط : أو الحموذ هو بوقطيفة.

الحرقوص : هو بو نهيق.

الحجروف : هو بودرن.

الطئرج : هو النمل الأسود.

الفازر : هو النمل الكبير.

السمسم : هو النمل الأحمر.

الذر : هو النمل الصغير.

الدخاس : ويسمونه الغيابة، وهي الدابة الرقيقة الحمراء التي تغطس في الرمل.

الدحرج : ويسمونه الليطي هو دويبة مبرقشة بحمرة وسواد تكون غالبا على أوراق القثاء أن أكلها سم.

القمعة : هي الذبابة التي تقرص الإبل فتضرها.

الأخيضر : هو ذبابة النصارى.

الخشف : هو ذبابة الهند.

الشبابيح : جمع شباح، كالكواسر إلا أنها تكون في جنبيها.

الحلزون : ويقال له بوجغللو، ومزود الغولية، شديد اللسعة. اذا وضع عسل على مكان لسعته أزال ألمها.

الحنظب : ويقال خنفوسة البلاد. إذا شقت ووضعت على القرح أخرجت دمه الفاسد وأيبسته.

الخنفساء : ويقال لها خنفوسة الغيطان إذا أحرقت ووضع رمادها على القرح أبرأته.

الجعل : ويسمى بوزنة، يطير ويموت بالرائحة الطيبة. إذا طبخ مع الزيت وقطر في الأذن فتح صممها.

الجعران : يسمى الزعقوق وهو نوع من الجعل المتقدم ذكره إلاّ أنه أكبر منه، وله ستة أرجل وسنام، يمشي القهقري ويدحرج ما يجده من مأكل.

الفرجان : ويقال له خنفوس تنغرت، شبيه الخلقة بخنفوس البلاد يميل إلى الحمرة مرتفع الظهر قصير الأرجل.

الشبت : أو الشبث ويسمى المزيزة.

وغير ذلك كثير والله أعلم.

صـــفـــة عيشـــها

أما الأولون من أهل الصحراء وسوف فكانت معيشتهم لحوم الأنعام (الإبل والغنم) وألبانها ولحوم الوحوش. والذين بعدهم يقاربونهم في ذلك إلاّ أنهم يكتالون الذرة في بعض الأحيان من بلاد السودان ونحوها. ثم الذين بعدهم زادوا بكثرة الحبوب من التلول حيث كانوا غير قارين بمحل واحد بل ينتقلون[1] من محل إلى آخر، فكلما وصلوا إلى محل أخذوا منه عيشهم بحسب ما فيه.

قال ابن خلدون : أهل الأقاليم المعتدلة التي لا تنبت الزرع سكانها في شظف من العيش كالسكاكين بصحراء المغرب وأطراف الرمال فيما بين البربر والسودان فإن هؤلاء يفقدون الحبوب والأدم وأغذيتهم

---

1 ولما كثر النخيل وانتشرت الواحات بالصحراء صار غالب سكانها يميلون إلى الاستقرار بواحاتهم للمزيد من غرس النخيل والعناية بالأشجار والخضر. وأخيرا قد كشفت الأرض الصحراوية عما في بطنها من ثروات طبيعية بالغة الأهمية مثل النفط والغاز وغيرهما، الأمر الذي جعل اهتمام المسؤولين يتجه أكثر فأكثر نحو هذه المنطقة العزيزة فضاعفوا بها العمران ووفروا لها شتى وسائل الحياة العصرية. حتى أصبح مستوى المعيشة بها لا يقل عن غيرها من المناطق الجزائرية. وبفضل ما أنجزوه بها من طرقات لم تعد الصحراء وواحتها اليوم كما صارت خير مستقر لأهلها وانسب منطقة سياحية يقصدها القاصي والداني من السواح فيجدون بها أمتع إقامة. امتازت بهدوء الطبيعة الباسمة ومنظر الرمال البديع وجمال واحاتها الخلاب، بالإضافة إلى نبل أخلاق أهل المنطقة وطيب معاملتهم وكرم ضيافتهم.

وأقواهم الألبان واللحوم، ومثل العرب الجائلين في القفار وإن كانوا يأخذون الحبوب والأدم من التلول إلا أن ذلك في بعض الأوقات ويكونون تحت ربقة من حاميتها. وهم أحسن حالا في جسومهم وأخلاقهم من أهل التلول المنغمسين في العيش، وأذهانهم أثقب في المعارف والادراكات... الخ ثم قال: وأما العرب فكان عيشهم من لحوم الأنعام ولحوم الصيد إذ غالبهم يتخذ الكلاب لذلك ويشربون الألبان ويأتون بالتمر من الجريد ووادي ريغ والحبوب من التلول والزاب ولكن الحبوب قليلة جدا يدخروها للأضياف ثم حين جعلوا النخيل صاروا يأكلون من تمرهم ويجلبون بعض الحبوب من الزاب. والعرب الرحالة منهم يقتصرون على التمر واللبن واللحم.

قال العياشي : أهل سوف كثيرا ما يقتنون الكلاب للصيد إذ هي كثيرة في بلادهم وجل معيشتهم من الصيد والتمر. وتمرهم من أطيب ما يكون.

وأقول : وأهل التوسعة منهم كانوا يقتلعون الترثوث والذنون ويخلطونه بشيء من الشعير ويجعلونه كسكسا أو كسكسيا وبعضهم كانوا يطبخون الكابو مع الملح والفلفل ويسمونه هبيتة. وبعضهم يجعل على الهبيتة المذكورة شيئا من دقيق الشعير أو القمح ويسمون ذلك مغبر ظهره. وقد يصنعون من جميع الخضر مثل صنعهم بالكابو.

ثم في زمن بعده صار غالب القوت في النهار التمر ومعه الرضخة أو الفقوس أو الدلاع أو الدوبارة وهي ماء الفول أو الحمص مع الفلفل والرمان وغير ذلك ويكون الفلفل تارة أخضر وتارة يابسا مبلولا بالماء منذ أيام معدا لذلك وإن لم يوجد الرمان يجعلون بدله الخل أو الطماطم.

ومنهم من يأكل مع التمر دشيشة : وهي قمح أو شعير يطحن بالرحى حتى تكون الحبة على ثلاثة أو أربعة أجزاء ثم يطبخون ذلك بالأبازير وتكون جارية أي مائعة.

أو يأكلون معه الحساء: وهو قمح أو شعير يطحن حتى تكون الحبة على ستة أو سبعة أجزاء ويصنعون به مثل صنيعهم بالدشيشة.

ومن قوتهم الرغيدة : وهي دقيق القمح أو الشعير الناعم يطبخ مع الأبازير في الماء الكثير وهناك غيرنا من يسمى الأول البرغل والثاني السدر والثالث الشرشور وإلى الآن توجد هذه الأنواع.

وفي الليل أغلب قوتهم الكسكسي[1] وهو كما قال أبو المحاسن، اسم بالمغرب لما يرطب من دقيق القمح أو الشعير أو غيرهما بنحو السمن ويفتل مستديرا ثم يعطي فورا الماء ويمرق بأمراق اللحم. وأجوده المأخوذ من خالص دقيق الحنطة المجفف بعد تفويره.

وقد يكون بدل الكسكسي بودشيش المطحون بحيث تكون الحبة على جزئين في الغالب، يبل بالماء وبعد أن يراق الماء يعطي الفوار مرتين ثم يرطب بزيت ونحوه.

وقد يكون الشرشم : وهو القمح المنقع في الماء يومين أو ثلاثة ثم يطبخ من غير طحن بأبازير ويؤكل كذلك.

---

1. قيل أن الكسكسي، وهو أكلة رئيسية عند أهل الجنوب، أصله أكلة بربرية. وقد نسب للبربر ثلاث ميزات. أكل الكسكسي ولبس البرنس وحلق الرأس.
أما كيفية إعداد الكسكسي وتمريقه، فتختلف عند البعض عما هو عند الآخر. فما هو مثلا بالمناطق الجنوبية يختلف عما هو بالشمالية وما عند أهل البدو عما هو عند أهل الحضر.

وقد تكون الهريسة وهي الشعير يرش بالماء ثم يرضخ بالمرضخ (أي المهراس أو الهاون) حتى تزول بعض قشوره ثم يرش مرة ثانية ويعاد له الرضخ حتى تزول بقية قشوره ثم يطبخ كذلك بالأبازير.

أو **البركوكش** : وهو كالسكسي في الفتل إلا أنه أكبر منه حبا. وبعد الفوار مرة واحدة يلقى في القدر التي فيها الأمراق فيكون شبيها بالدشيشة والكسكسي أي كالمركب منها.

والسفة : وهي كالكسكسي في الفتل والفوار إلاّ أنه لا تكون معها أمراق بل حين تعطى الفوار مرتين تلقى عليها الأبازير وتؤكل كذلك أو تخلط بالأبازير عند الفوار الثاني فيطيب مع المفتول.

وتسمى هذه السفة باسم آخر وهو المحكوك لكنه فيه بدل الأبازير تمر مبلول بالماء أو عسل التمر المسمى الدبس أو السكر.

البزين : وهو دقيق ناعم يعجن بالماء عجنا محكما ثم يقسم أجزاء كهيأة الرمان أو أقل ويجعل ماء في قدر ويوقد تحته النار حتى يغلي فتلقى فيه تلك القطع وقد هيأوا لها مرقا فيضعونها فيه ويأكلون.

العصيدة : وهي شبيهة بالبزين والفرق بينهما أن دقيق العصيدة لا يعجن بل حين غليان القدر يذرون فيها ذلك الدقيق ويصحبون ذلك بالتحريك الدائم حتى ينتهي الدقيق ثم بعد قليل يترلونها ويضعون عليها بدل المرق العسل أو السكر أو التمر الممروس في الماء مع السمن أو الزيت.

القلية : وهي قمح فقط يقلى في الطواجن حتى تفوح رائحته ويؤكل كذلك من غير طحن.

الزميتة : وهي قمح أو شعير يحمص ثم يطحن ويؤكل.

البسيسة : وهي الزميتة إلاّ أن دقيقها يلت بالتمر والماء أو الزيت أو السمن أو العسل .

الكسرة : اليابسة وهي خبز ينضج في الطواجن بعد عجنها بالماء والملح فقط.

الرخساس : وهو الكسرة اليابسة إلاّ أنه يدهن بالتمر والماء أو العسل.

الفطير : وهو ما قبله إلاّ أنه يدهن بالزيت أو السمن .

الملاوي : هي الخبز المعجون بالزيت أو السمن.

الرقاق : هو الفطير إلاّ أنه يعجن عجنا محكما ويخبز رقيقا كالكاغط .

الشحمية : هي الرخساس الذي في أطباقه الشحوم.

المطبقة : هي الرخساس الذي في أطباقه الفلفل والبصل والكرويا والطماطم أو الرمان أو لحم الفرماس، والشحم.

السفنج : أو الفطائر هي الرقاق الذي ينضج في الزيت .

كسرة الملة : هي الرخساس الذي يمل في الجمر أو الرماد حتى ينضج. وقد يضعون في وسطها الشحم والفلفل وغير ذلك.

الرفيس : هو الرخساس المفتت المخلوط بالتمر والسمن أو الحليب.

الشخشوخة : هي الرخساس المفتت المرق بالأمراق واللحم .

والى الآن توجد هذه الأنواع عند عامة الناس وأما خاصتهم فقد ارتقوا إلى أنواع أخرى كما عند أهل المدن.

ولم تكن لهم في القديم آلات طبخ كافية بل بعضهم يضعون اللحم في خرقة مبلولة ويوقدون نارا في حفرة بالأرض ثم يجعلون تلك الخرقة بلحمها داخلها ويردون عليها الجمر والرماد الحار حتى ينضج اللحم وذلك بعد أن يجعلوا عظما مستطيلا مجوفا أو قصبة ويربطون الخرقة عليها ويكون العظم أو القصبة بارزة من الأرض ليخرج منها البخار كالمدخن. ثم تعلموا من أهل الجريد فاتخذوا قدورا من طين يطبخون فيها. وفي وقتنا هذا، كثرت آلات الطبخ من كل نوع وصارت قريبة الشبه مما في المدن المعتبرة. والله له الحكم وإليه ترجعون.

تذنيـــب :

كان لباس الأولين جلود الضأن للرجال وجلود المعز للنساء بعد دبغها. ثم تعلموا الغزل والنسيج فصار الرجل يلبس لحفة أو قندورة صوف، والمرأة تلبس حوليا أو بخنوقا مصبوغين بالحمرة أو الصفرة أو السواد وهو الغالب. ثم اتخذوا أحذية من جلود الإبل مربوطة بأسيار منه. ثم تنوعوا فصارت أسيارهم من جلد الفلالي الأصفر أو الأحمر. ثم اتخذوا خرقا من الصوف خاطوها بالشعر أو الوبر أو الصوف المبروم سموها عفافين واحدها عفان وهي إلى الآن كثيرة. ثم صاروا يأتون بالكتان المالطي من القطر التونسي يلبس منه الرجل ثوبا يسمى سورية ويقال لها قمحة ويقال لها بلوزة وهي القبا والرداء والقميص والشعا. والمرأة تلبس منه ثوبا يسمى ملحفة وهي الملالة والريطة وذات اللفتين. ثم زاد الرجال ثوبا آخر يلبسونه فوق الأول ويسمى قندورة أو قدورة وهي الازرة والدثار والجبة.

وزادت النساء ثوبا آخر تحت الأول يسمى قدوارة.

ومنها كثرت الملابس واختلفت أنواعها وألوانها وكيفيتها.

قال القدماء : إن البرانس لم تكن في سوف إلاّ في الزمن المتأخر جدا وإنما كان بدلها للرجال حوالي الصوف ذات الأعلام بالقطن. وكذلك البخانيق للنساء حدثت متأخرة وكان بدلها لهن خرق صغيرة من صوف لا تتجاوز الكتفين من الرأس.

وغسل جميع هذه الثياب قبل وجود الصابون كان بالجبس أو الطين أو الرماد للأسود أو الماء وحده. والله أعلم.

صـــفـــة عمـــرانـــها

قال الشيخ العدواني[1] : "كانت أرض سوف فقراء فعمرت، ثم بعد زمن قليل خربت ثم عمرت مرة ثانية و لم يطل ذلك فخرجت، ثم عمرت مرة ثالثة ومكثوا زمانا (أي ساكنوها) ثم خربت، ثم عمرت مرة رابعة وطال عمرانها وشاع صيتها وتمكن أهلها، ثم خربت ثم عمرت بعد ذلك بطرود وغيرهم".

أقول : المقصود من قوله غيرهم هم بنو عدوان، وبنو هلال وبنو سليم وما زالوا بها إلى الآن. والمراد بالخراب ولو للبعض دون الكل.

واستبعد كلامه بعضهم قائلين إنه لم يبلغنا عن أرض وقع لها مثـــل ما ذكر.

أقول : إن هذا المعترض لا يسمع كلامه حيث كان بلا حجة والناقل حجة والمثبت مقدم على النافي والأخبار المنقولة عن القدماء تقارب ما ذكره الشيخ وقدرة الله صالحة لتقلب الأمور.

---

1. الشيخ العدواني –رحمه الله– شخصية تاريخية من مواليد قرية الزقم إحدى قرى سوف ومن رجالات تلك المنطقة القدامى. كان عالما مولعا بالبحث والتنقيب أدى به ميله هذا إلى الكتابة في ميدان التاريخ فألف كتابا في تاريخ سوف قام بترجمته إلى الفرنسية السيد ش. فرود Ch. Feraud سنة 1868 م، وكتابا ثانيا يحمل اسم صحراء قسنطينة ترجم سنة 1887 م . ومع الأسف نكاد لا نجد اليوم أثرا لما تركه الشيخ العدواني. ليت شعري! هل من عزائم تتجه إلى بعث هذا التراث الذي هو تراثنا جميعا.

و لم يبلغنا عن البرابرة الأولين الذين كانوا بأرض سوف قبل الكنعانيين أنهم جعلوا فيها بناء بل المفهوم من المنقول كانوا ينتقلون من محل الى محل وذلك يقتضي عدم البناء والتوطن ومنهم من كان يتخذ الكهوف والأغوار، وجدوا أناسا بأرض الرمل أشبه شيء بالأنعام السائمة فخاطبوهم فلم يفهموا بيوتا لهم.

قيل إن في دولة عاد وبنيه بلغ أقوام أرض المغرب وفي حال مرورهم وجدوا أناسا بأرض الرمل أشبه شيء بالأنعام السائمة فخاطبوهم فلم يفهموا خطابهم فقتلوا منهم أناسا وفر منهم أناس.

قيل إن الذين فروا منهم دخلوا المغرب بدليل قول ابن خلدون.

وأما الكنعانيون والرومان فعمروها عمرانا قويا في مواضع سوف تذكر إن شاء الله والى الآن آثارهم يوجد منها شيء في مواضعهم التي كانوا بها.

وأما زناتة[1] فكانت مساكنهم في زرائب من حلفاء قائمة على أعمدة من خشب الآزال والمرخ والرتم. وتارة يبنون بيوتا من طين الشطوط القريب من الماء الشبيه بالجبس. والمتأخرون منهم بنوا أماكن بالطين والجبس. وقروا قرى من ذلك وبنوا حولها أسوارا إلى الآن يوجد منها بعض الآثار.

وأما طرود فكانت مساكنهم في ابتداء الحال بالجبس و لم يبلغنا أنهم بنوا بالطين. ثم حين صاروا أصحاب نخيل جعلوا بدل زرائب الحلفاء

---

1. المفهوم من قول المؤلف أن زناتة هم آخر جنس من البربر عمروا أرض سوف على أنها كانت من قبل ومنذ عهد قديم عامرة بأقوام سواهم من البربر مثل الطوارق. وقد ثبت أنهم استوطنوا هذه الأرض حينا من الدهر قبل الزناتيين.

زرائب من جريدة النخيل قائمة على الحطب ثم حين طال النخيل صاروا يقطعون منها الأخشاب ويجعلونها بدل الحطب.

وأما الأخلاط الذين كانوا من بني هلال وبني سليم المتأخرين فكانت مساكنهم في خيام من شعر أو وبر أو جلد وبيوت من طين وزرائب من حلفاء أو رتم أو نحوهما قائمة على خشب الآزال.

قال العياشي : حين وصلنا إلى الوادي وجدنا طرودا يسكنون في زرائب من جريد النخل وبها يخزنون ما يحتاجون إليه.

أقول : كان مرور العياشي بالوادي في حدود عام 1072 هـ-1662 م[1].

وكيفية البناء بالجبس عندهم أن يجمعوا كثيرا من حجر الترشة ويضعونه على صفحة حجر التافزة الذي هو على وجه الأرض بعد مسح الغبار عنه ويسطونه هناك ثم يجعلون فوقه كثيرا من الحطب والحشيش من بوقريبة واللبين وفوق ذلك كوما من الترشة أيضا حتى يصير كالقبة ويتركون جوانب عارية، ثم يضرمون النار في تلك الجوانب فيشتعل الحطب وما معه ويخرج الدخان على الترشة ويحترق الأسفل فيصير الجميع جبسا. ويقال لذلك حروقا مشتق من الحريق. ودام هذا الحال زمنا طويلا وحتى وقتنا هذا بل إلى الآن يجعله بعض الذين لا يجدون ثمن غيره أو من كان في غوطة محتاجا إلى شيء قليل من الجبس.

---

1. وفي رواية أخرى أن مرور العياشي بأرض سوف كان سنة 1666 م. والعياشي رحالة مغربي مر بسوف أثناء سفره إلى المشرق، وقيل لحج بيت الله الحرام.

ثم صنعوا الأفران، جمع فرن، ويسمونها الكوش جمع كوشة وكيفية ذلك أن يأخذوا حجر التافزة ويركبونه في الكوشة حجرا فوق آخر حتى يصير كالقبة ثم يلقون فوق ذلك الحجارة الصغيرة التي نحتت من الكبيرة ويوقدون النار من فوهة الكوشة تحت الأحجار حتى تصير جبسا فيبني بجميع ذلك مخلوطا برماده.

ثم صاروا يبنون في منتصف الكوشة (الفرن) نوعا من القبة المثقوبة ويسمون ذلك كوشة بالغربال يضعون فوقها الأحجار كالهيئة السابقة.

وأما الأحجار التي يجعلونها خلال الجبس ليتقوم بها الحائط فكانت في القديم أحجار التافزة، ثم إذا هدم بناء يجعلون حجارته عوضا عن التافزة ثم صاروا يبنون بحجارة اللوس الذي له شعاب ويسمونه الكبيشة وهو الكثير في وقتنا هذا.

وكان علو الجدران لا يتجاوز أربعة أذرع[1] في الغالب.

قال كتاب رحلة بني هلال : كان الناس يتعجبون من طول جدران قصر العريش وكان طوله ستة أذرع.

أقول : قصر العريش هذا هو الذي كان في موضع غوط[2] الصلاعة الآن قبلة من الوادي بنحو نصف ميل .

---

1. أربعة أذرع تقدر بمترين. فبالنظر إلى العمارات العملاقة وناطحات السحاب اليوم ندرك مدى تقدم العقل الإنساني عبر هذه المرحلة من تاريخه.
2. غوط : جمعه غيطان، يطلق في اللغة على كل مكان منخفض وفي اصطلاح أهل سوف يطلق على الأرض المنخفضة التي غرس بها شجر النخيل.

وكانت الحجارة بادية ظاهرة في الجدران من داخل ومن خارج. لا يستروها بالجبس إلاّ في الزمن الأخير ويسمون سترها تلبيسا وغيرهم يقول تلكيعا. وإذا كان الجبس مغربلا يقال تلبيقا أو تبييضا نسبة إلى البياض لأن لونه يصير كذلك، ونسبة إلى الليقة وهي خرقة مبللة بالماء يسوون بها ذلك الجبس حتى يصير معتدلا ملسا من غير انخفاض ولا ارتفاع.

وكانت سقوف بيوتهم من أعواد الحطب يضعون عليها الحلفاء وفوق الجميع الطين أو الجبس. وأبوابهم كانت عصيا مصففة مشدودة بأسيار من جلود الإبل أو غيرها على عصي تمتد في الباب عرضا. وتلك العصي إما من المرخ أو الرتم أو الطرفاء. ثم صارت من جريد النخل. وأقفالهم أخشاب في سارية واقفة حذو منفتح الباب. وفي جدار البيت كوة مسامتة إلى تلك الأخشاب يدخل منها الإنسان يده فيدفع الخشبة إلى الإمام فينغلق البيت أو الى الوراء فينفتح.

ثم ازداد البناء في الارتفاع ولكعت الجدران وصارت السقوف من أخشاب النخل وعليها إما جريد النخل أو عصي طوال منتظمة بحبال رقيقة في ثقب جعلت في العصي بعد بلها بالماء أو دفنها في التراب وإجراء الماء عليها. ويسمون ذلك سدة والجمع سدد وهي كهيأة السرير وهذه إلى الآن توجد في بعض السقوف ويتخذونها أيضا عوضا عن السرير ينامون عليها في زمن الحر فيضعونها على خشبات من جذوع النخل ممدودة على خشيبات صغيرة. ويقال للخشبة الكبيرة مرودا وللصغيرة وقافة بحيث يكون كل مردود على وقافتين ويجعلون السدة كذلك في الغوط إما لوضع التمر عليها أو لتسقيف الزرائب ونحو ذلك.

وصارت الأبواب غالبها من أخشاب النخل منشورة مصقولة وغير الغالب من العصي السابق ذكرها. والأقفال من أعواد صغيرة تجعل في لوحات من خشب صغيرة وعريضة في كل لوحة أربع ثقب بها أربعة أعواد رأسها عريض وأسفلها رقيق، والعود الذي هو القفل به أربع ثقب أيضا. وفي قرب منفتح الباب سارية مبنية مثقوبة فيها اللوحة السابقة وفي وسط تلك اللوحة القفل. وأما في العصر الأخير فقد ارتفع البناء أيضا عن الحالة التي قبله وحسن رونقه وقلت الزرائب بحيث لا يسكنها الآن إلا الفقراء أو من كان في الغيطان فيمكث فيها زمنا ثم يرتحل عنها إلى القرى أو ما كان عادته الرحيل كأهل البادية الذين لا اغتباط لهم بالإقامة في المداشر. وغالب هؤلاء يبنون مع الزربية بيتا أو أكثر لخزينه. وصارت أبواب العصى نادرة جدا وأبواب الحطب قريبة من الندور.

وصارت الآن السقوف بالقباب[1] (المدورات) أو الادماس (المستطيلات) أو التربيعات (المربعات) وغير ذلك قليل. وأصبحت الأبواب من الصنوبر وغيره من الأخشاب النباتية المصقولة بل صارت جميع الأشياء من الطراز الحديث المتعارف اليوم في المدن. والله أعلم.

---

1. لو نظر الإنسان إلى مدينة وادي سوف من مكان مرتفع، من على منارة أو طائرة مثلا لتاه بصره بين الآلاف من القباب والأدماس لذا أطلق على مدينة الوادي اسم "مدينة الألف قبة".
وعلاوة على أن هذه القباب والأدماس أصبحت تشكل طابعا معماريا خاصا بسوف، فلها مزايا مقصودة أملتها طبيعة المنطقة وذلك أن شكل القباب أو الأدماس يساعد على تبعثر أشعة الشمس المسلطة عليها وتخفيف حدتها وعلى منع تراكم ما تطيره الرياح من تراب فوقها، كما أن تجويف القبة أو الدمسة داخل البيت لما يوفر مزيدا من الهواء ويحسن درجة الحرارة فيها.

مصنوعات أهل ســـوف

أهم المصنوعات في الصحراء وسوف البرانيس: جمع برنس. ويقال له برنوس منها الرفيع والوضيع، والمتوسط. ولا تكون عندنا إلا من الصوف وحده[1].

الحياك : جمع حائك وهو الحولى الذي سداه ولحمته حرير أو أحدهما فقط أو يكون من صوف معلما بالحرير.

الحوالي الحسنية : وهي لا تكون إلا مع الصوف وكلها للرجال. ثم الحوالي التي تكون للنساء عوضا من الملحفة أي الملاءة ولا تكون إلا من الصوف وكانت لأهل الحاضرة والبادية واختصت الآن بالبادية غالبا.

الحوالي القطنية : أي المصنوعة من الصوف المعلمة بالقطن. وهذه تكون للرجال والنساء لكن النساء يصبغنها بالسواد أو الحمرة. وبعض المترفعات يصبغن حوالي الحرير وتسمى حينئذ مغاطس، جمع مغطوس.

القنادر : جمع قندورة، تكون من صوف وحده أو معلمة بالوبر أو الحرير. وقد تكون كلها حريرا والجميع للرجال.

البخانيق : جمع بخنوق، الكبير لا يكون إلا من الصوف والصغير معلما بالقطن أو الحرير وبعضهم يسمى الصغير طبة والجمع طبب.

---

1. انتشر أخيرا صنع البرانس الوبرية أيضا. ونالت البرانس الوبرية المصنوعة بسوف سمعة طيبة نظرا لدفئها وجمال منظرها وجودة صنعها. وقد بلغت سمعتها أقصى مناطق الشمال بالجمهورية الجزائرية فنالت بأسواقها رواجا كبيرا.

حوالي الفراش : وتكون كلها من الصوف الأبيض معلما بألوان من صوف مصبوغ.

الحنابل : جمع حنبل، سداه وبر ولحمته صوف مصبوغ بألوان مختلفة.

الأحمال: جمع حمل سداه شعر ولحمته صوف ووبر به أصباغ عديدة.

القطايف : جمع قطيفة سداها شعر مخلوط بصوف أو وبر، لحمتها صوف مصبوغ بألوان كثيرة ولها خمل طويل كثير.

الزرابي : جمع زربية. ويقال لها الطنافس، جمع طنفسة وهي كالقطيفة إلا أن خملها قصير قليل.

القشابات[1] : جمع قشابة كالقندورة إلاّ أن لها طربوشا وكمين وفي الغالب تكون من صوف وحده بعضه أبيض وبعضه أسود. وقد تكون معلمة بالقطن أم تكون من صوف أبيض لا غير.

الوسايد : جمع وسادة تكون من صوف مصبوغ بألوان وفي الغالب لا خمل لها وقد تكون ذات خمل قصير قليل.

الأجنحة، جمع جناح : ويقال لها عبانات جمع عبانة، تكون من صوف أبيض أو معلم بسواد أو بوبر وصوفها غير جيد لأنها معدة لنقل الأشياء أو تكون فراشا للفقراء.

اللحافي، جمع لحفة : وهي ما يديرها الإنسان على عنقه زمن البرد تكون من صوف وحده. وقد تكون معلمة بقطن أو حرير.

---

1. يغلب لباس القشابات بالصحراء عند بني مزاب حتى صارت طابعا خاصا بهم.

التليسات : جمع تليسة. سداها شعر مخلوط بصوف أو وبر ولحمتها شلاليق أي خرق الكتان الممزقة. يتخذها الفقراء فراشا وغطاء.

الغرائر : جمع غرارة، من شعر ووبر وصوف معدة لحمل الأشياء.

الأفلجة : جمع فليج وهو الذي تتكون منه الخيمة، شبه الغرارة إلاّ أنه مستطيل.

الطرائق : جمع طريقة. سداها شعر ولحمتها وبر وصوف مصبوغ بألوان تجعل وسط الخيمة في محل رفع العمود.

الكواسر : جمع كاسرة، وهي كالطريقة إلا أنها تجعل في طرفي الخيمة في مواضع العصى.

المخالي : جمع مخلاة، كالغرارة إلا أنها صغيرة.

المحازم : جمع محزمة تصنع من الشعر والصوف وقد يكون فيها الوبر.

الحقبان : جمع حقب، كالحبل إلا أنه يظفر طية فوق طية ولا يكون إلا من الشعر وقد يضاف له وبر أو صوف.

المراير : جمع مريرة، كالحبل من غير فرق في الصنعة وأجزاؤها كالحقب.

البرمات : جمع برمة تتركب من خيوط كثيرة بعضها فوق بعض تجعل على رأس المترفعين من العرب. وأرفع منها العمايت جمع عميته إذ هي أكبر منها.

القشطات : جمع قشطة تكون من الوبر وهي أقل من البرمة بقليل.

الخيوط : جمع خيط من الوبر الاّ أنه أقل من القشطة.

اللبدات : جمع لبدة، كالكبوس. تكون من الصوف الأبيض وتجعل عليها البرمة.

العراريق : جمع عراقية، هي القلنسوة. وتكون من قطن مبروم وهي مثقبة.

التقاشير : جمع تقشير[1] وهي الجوارب ويقال لها كلاسط[2] تكون من صوف أو قطن.

القرب : جمع قربة وهي المزادة. تصنع من جلد الماعز.

الركاوي : جمع ركوة وهي العلبة من جلد المعز.

الدلاء : جمع دلو وهو السبحل.

العفافين : جمع عفان وهو حذاء من الصوف والشعر يلبس غالبا في زمن البرد لدفئه.

القرفات : جمع قرفة، كالغرارة إلا أنها من الجلد الجملي المدبوغ.

الرقعات : جمع رقعة، وهي من جلد تتخذ فراشا للإنسان أو الرحى.

العمائر : جمع عمورة، كالدلو إلا أن فمها مفتوح مبني على عود مستدير.

القراديش : جمع قرادشة هي التي يندف بها الصوف.

كما تصنع عندنا البلغات، والجوارب والامسات والجباير والتزدامات والعلاوات والزواويد، والمزاود والمسروج، والرواحل، والحوايل، والبرادع، والأحلاس وغرابيل الجلد، وغرابيل الحديد وخمر التمر المسمى ماحية،

---

1. تقشير : تعبير جزائري.
2. كلاسط : تعبير تونسي.

وخمر اللاقمى المسمى قيشم، وحبال الليف، وحبال العراجين والقفاف[1] والملايات[2] والعلاقات[3] والأعدال[4] والشوارى[5] والزنابيل[6] والسجاجيد[7] وغير ذلك.

وأما بقية المصنوعات فهي داخلة في جملة الحرف التي شاركوا فيها غيرهم من أهل الجهات الأخرى. والله أعلم.

1. القفاف : جمع قفة.
2. الملايات : جمع ملاية.
3. العلاقات : جمع علاقة.
4. الأعدال : جمع عديلة.
5. الشواري : جمع شارية.
6. الزنابيل : جمع زنبيل.
7. السجاجيد : جمع سجادة : ويسمونها حصيرة الصلاة، وكل ما ذكر مصنوع من سعف النخيل.

الأماكن المعروفة بسوف

أشهر أماكن سوف : الوادي[1] وهو قاعدتها. سمى بذلك لأنه محل جريان الوادي بين (وادي الجبل ووادي النازية) لأنهما وأن كانا يجريان قرب بعض الأماكن من سوف مثل سيدي عون والبهيمة، إلا أن انتهاءها بمحل الوادي، فاعتبر المنتهى.

قيل إن هذه التسمية حدثت له زمن نزول طرود به وفي ذلك العهد لم يبق للواديين جريان وإنما كان محلهما متسعا مستطيلا فشبهوه بالوادي.

أقول : إن في ذلك الزمن وإن لم يبق ماء بالواديين إلا أن محل الوادي الأخير باق قائم وبه شيء من الماء بدليل تنازع الزناتيين وطرود على الحفر التي حفروها في ثماده وعلى هذا فمن الأقرب أن تكون النسبة لوادي الماء لا للمحل المتسع المستطيل.

ومن مزاعم بعض العامة أنه سمي بذلك لأن أهله لا يهدؤون ولا يسكنون بل يتحركون دائما إما بالسفر أو الظعن (الرحيل) فشبهوهم بجريان الماء في محله المسمى واديا.

1. الوادي كان ولا يزال المركز الإداري لمنطقة سوف. وصار يطلق أيضا على مدينة الوادي مدينة الألف قبة كما تقدم.
ومن ألغاز أهل سوف قولهم : واد ما يجريش، كانون ما يقديش، قمرة ما تضويش، هيمة ما تمشيش، فيقصدون بكلمة واد مدينة الوادي، وكانون قرية كوينين، وقمرة بلدة قمار، وهيمة قرية البهيمة.

وقيل إن هذه التسمية أتت من شخص حين عاين طرودا وكثرتهم وعدم انقطاعهم في السير فقال: ما أرى لهؤلاء القوم انقطاعا إن هم إلا كالوادي كلما أقبل منه موج إلا وتلاه موج آخر.

وقيل سمى بذلك لأن طرودا حين دخلوه وعاينوا التراب تسوقه الريح متتابعا قالوا إن تراب هذا المحل كالوادي في الجريان لا ينقطع. والله أعلم.

ويليه من جهة الجنوب سيدي مرغني[1] نسبة للرجل الصالح المقبور هناك وسيأتي ذكر المنتسبين إليه.

ومنه جنوبا عميش[2] : نسبة لرجل من زناتة أعمش العينين مات هناك.

قال القدماء : كان عميش رجلا جوادا في قومه طائر الصيت. وكان من البادية إذا ظعن يتبعه الكثير ممن أقعدهم الفقر. ولا يفارق بيته الدخان في غالب الأوقات لطبخ العصيدة. وكان قريب العهد بمقدم طرود. مات في حال رجوعه من الصحراء. يقال أن سيدي الحاج البكري أخبر عنه بأن قبره بإزائه. والله أعلم.

ويلي عميش شرقا جنوبا النخلة[3] سميت بذلك لأن أول من ابتدع نخيلها غرس فيها نخلة واحدة وعجز عن المزيد فكبرت ولما امتد عمران عميش صار أهله يقولون: نذهب إلى النخلة أو جئت من النخلة فصارت علما للمكان.

---

1. قرية سيدي مرغني هي المعبر عنها بصحن الماسط تبعد عن الوادي بنحو الكيلومترين.
2. غالبا ما يقصد المؤلف بكلمة عميش قرية البياضة خاصة. وهي تبعد عن الوادي بستة كيلومترات.
3. النخلة : إحدى قرى عميش تبعد عن الوادي بنحو 14 كلم.

وغربيها الرباح[1] سمي بذلك لأن الذي سكنه يقال له رباح بن سعيد بن رباح.

ويلي عميش شرقا: الخبنة[2] سميت بذلك لأنها كانت موضعا منخفضا فكأنه مخبون أي مطوي والخبن في اللغة الطي والانخفاض .

ويلي الوادي شرقا الطريفاوي[3] سمي بذلك لأنه كان منبت شجر الطرفاء حيث كان سيح وادي الجبل أولا هناك ثم صار سيح وادي النازية.

وقبلته الإزيرق[4] سمي بذلك لأنه كان به بئر تردى (سقط) فيها حاشي (جمل صغير) أزرق فهو مصغر ذلك الاسم .

وقبلته شرقا منه الخفى[5] سمي بذلك لخفاء محله عن كثير من الناس فكأنه مخبأ أي مخفى والناس إلى الآن يسمونه به ولا يعرفون محله.

وشرقيه بانحراف إلى الجوف (الشمال) المحل المسمى واد وراغ يعنون ماء الوادي لا يتجاوز ذلك المحل فكأنه يغور فيه أي يتسفل ويترل وذلك لكثرة رمله الذي يشرب ماءه .

ويلي الوادي غربا جنوبا عرعر. سمى ذلك المحل بشجر العرعار الذي كان نابتا هناك وقيل سمي بذلك لأن أحد المحتطبين نزل هناك فأراد الشرب من بئر فيه وكان معه كثير من العرعر ليخلطه بالدخان فأريق له في تلك البئر فقال لمن لحقه لا تشرب من هنا فإن البئر قد

---

1. الرباح : من قرى عميش أيضا تبعد عن الوادي بنحو 10 كلم.
2. من الوادي إلى الخبنة 12 كلم.
3. من الوادي إلى الطريفاوي 22 كلم. قيل تأسست الطريفاوي سنة 1850 م.
4. من الوادي إلى الإزريق 27 كلم.
5. من الوادي إلى الخفي نحو 28 كلم.

امتلأت بالعرعير (أي بالعرعر الكثير) وقيل سمي برجل مات فيه كان إذا ذهب إلى نواحي بودخان وقدم يسألونه بما جئت معك يقول أتيت بالعرعير والإكليل والدفلة فيلقبوه عرعيرا.

ويليه في الجهة الجوفية واد زيتن[1] وحين كثر الاستعمال صار يقال لها وزيتن سميت بذلك لموت عبد لزناتة فيها كان ملازم الجلوس عند منعطف الوادي أي وادي النازية قبل تحوله.

وقيل إنه غرق فيه وقيل إنه غرق في مكان آخر من الوادي وألقته الأمواج هناك فوجد بها .

وبغربيها : أم الصحوين[2] سميت بذلك لاتساعها فكأنها هي التي ولدت الأصحن إذ هي أكبر الأصحن التي قربها .

وقبلة غربا منها شقامط[3] سميت بذلك لانقباض وتقارب بعضها من بعض. وأهل هذه الأرض يسمون المنقبض مشقمطا.

وغربا من الصحوين : وادي العلندي[4] سمي بذلك لشبهه بالوادي في الانخفاض والامتداد وبه بدل الماء شجر العلندي وكان كثيرا هناك لا يستطيع السالك المرور فيه إلا بكلفة خصوصا إذا كانت إبلا موقورة.

1. من الوادي إلى واد زيتن 5 كلم.

2. من الوادي إلى أم الصحوين 15 كلم.

3. من الوادي إلى شقامط 29 كلم.

4. من الوادي إلى وادي العلندي 20 كلم . قيل هذه تأسست سنة 1895 م.

ويليه قبلة بانحراف للغرب سحبان[1]، سمي بذلك لموت رجل هناك. قيل إنه من بني سليم الذين كانوا هناك، والراجح أنه من بني شباط الذين كانوا نازلين في الكتف لسد الثغور.

ويليه في الجهة القبلية أمية الكلبة[2] : سمي بذلك لموت كلبة في بئر هناك. وأهل سوف يقولون للماء أمة إذا كان مصغرا تحقيرا له.

ويلي وادي العلندي جوفا : وادي الترك[3] : الكلمة الأولى تصغير واد وتقدم أنه يطلق على الموضع الفسيح الطويل سمي بذلك الاسم لمرور بعض من الوادي الى تقرت ونزولهم فيه.

ويلي الوادي جوفا (شمالا) سيدي عبد الله[4] : سميت القرية باسم الرجل الصالح المقبور فيها .

وبقربه جوفا غربا القارة[5] سبب تسميتها بهذا الاسم أنها كانت بها ربوة عالية والربوة تسمى قارة ثم أزيلت تلك الربوة وبقي الاسم محلها .

ويتصل بها شمالا تكسبت[6] سميت باسم تكسبت القديمة لأن بعض أهلها الذين اختطوها أتوا من الزاب وعمروا أولا في الذواهب عمرانا

1. من الوادي إلى سحبان 27 كلم.

2. من الوادي إلى أمية الكلبة 30 كلم

3. من الوادي إلى وادي الترك 33 كلم . قيل تأسست هذه سنة 1900 م.

4. من الوادي إلى سيدي عبد الله نصف كيلو متر تقريبا.

5. من الوادي إلى القارة كيلو متر ونصف.

6. من الوادي إلى تكسبت كيلو متران.

حفيفا والتف حولهم لفائف من العرب فلم يسعهم المحل لضيقه فارتحل منهم جمع ونزل بالوادي والبعض إلى قرب كوينين ولم يبق منهم الآن إلا النزر القليل إذ انتقل غالبهم فيما بعد إلى الوادي واختلطوا بأناسها وتصاهروا منهم. ثم ارتحل بعض العائلات ونزلوا بهذا المحل وسموه بما كان يسمع قبل من أصهارهم فصار ذاك علما.

ويليها جوفا كوينين[1] : سميت بذلك للعثور على كانون من حديد بقربها وكان صغيرا فأطلق على تلك النواحي ذلك الاسم مصغرا كما سميت مدينة فاس بذلك الاسم للعثور على فاس بأساسها حسبما حكاه الوزاني في حاشيته على الزقاق. وقال الشيخ العدواني: سميت كوينين بهذا لأن أول من نزل بمحلها بيت واحد يوقد النار في كل آن من البرد فإذا احتاج أحد للنار وكانت قليلة في ذلك الوقت يجدها عنده. وإنما كانوا يوقدون من القداحة (وهي قطعة من حديد تضرب على حجر جبلى) أو من حك عود على عود مع وضع خرقة مسودة من تراب البارود والرماد أو شيء من الطعم وقيل كانت في ابتداء أمرها بها ثلاث بيوت متجاورة هيئتها كالأثافي أي كالأحجار التي يوضع عليها القدر والمسماة عند العامة مناصف فصار يقول الرائي إن هذا إلا كالكوينين في الهيئة. وتكرر ذلك فتداولته الألسنة حتى جعل علما عليها، والله أعلم.

1. من الوادي إلى كوينين خمسة كيلو متر.

وبقربها شرقا منها : القوارير[1] قرية صغيرة جدا نسبة إلى قرارا (أهل تاغزوت) لأنهم من هناك أي جدهم أتى منها ودفن هناك واستقرت عليه القرية من ذويه وكان القرارى المذكور جاء الى سوف قبل عمران كوينين بنحو المائة سنة ونزل أولا على من وجده في الهنشير قبل التفرق ثم انقطع عنهم الى محل زاويته الآن يتعبد فيه حتى أدركه به الموت. وبعد ذلك انجلى أبناؤه بانجلاء أهل الهنشير وعند حصول الأمن رجع منهم البعض.

ويلي كوينين في الجهة الغربية الجنوبية أمية باهي[2]، الكلمة الأولى تقدم مثلها والثانية منحوتة من كلمة إبراهيم يقولونها استلطافا واستطرافا للمسمى بذلك لأن الذي حفر بها البئر الأولى يسمى إبراهيم ويلقب بالباهي وكان معناه حسن ورجل باهي أي ممدوح على فعاله وحسن أخلاقه. سميت القرية بذلك لأن الذي حفر بها البئر الأولى يسمى ابراهيم ويلقب بالباهي وكان هذا الرجل من بني عدوان حسب إحدى الروايات وقيل إنه من بني سليم. وقيل إنه من بني محور لأن بني محور هم الذين كانوا بتلك الناحية .

ويليه شمالا ورماس[3] : سمي بذلك لموت رجل مشهور من زناتة هناك يسمى ورماس بن لوا بن مطماط بن فاتن بن تمصيت بن ضريس بن زحيك ابن مادغيس الأبتر بن بربر بن كنعان. الخ... وقيل انه ورماس بن فاتن ابن شماس بن ورتوجين بن زناتة بن نوار بن شريد بن لوا

1. من الوادي إلى القوارير خمسة كلم.
2. من الوادي إلى أمية باهي تسعة كلم.
3. من الوادي إلى ورماس 20 كلم.

بن مطماط الخ... وهذا هو الراجح لنسبة الناس إياه لزناتة. قيل جاء من جبل الظاهر الذي بنفزاوة حين تفرقت في نواحيه البرابرة وعمروه زمنا بادين فقال لهم: ننتقل إلى إخواننا الذين ذهبوا إلى تقرت فلم يقبلوا منه وكان مسموع الكلمة سابقا فخرج مع من أطاعه مغتاظا حتى وصل ذلك المحل فأقام فيه مريضا مدة ثم مات وقبر هناك. وعمل من كان معه بوصيته فذهبوا إلى تقرت، قيل إنهم إلى الآن بها في مستواه.

ويلي كوينين في الجهة الشمالية تاغزوت[1] : سميت بذلك لأنه حل بها حين نزلوا ذلك المكان فقيل له أرض أهل تاغزوت.

وهو من بنى سليم الذين نزلوا أرض الزاب. وأصله من قرية في جبل شتار يقال لها في ذلك الحين تاغزوت. سميت بما ذكر في زمن الرومان الذين قدموا إلى افريقية. وقيل سميت بجماعة أتوا من تاغزوت المذكورة يعلمون الناس القرآن كانوا نزلوا بمحل جلهمة فاجتمع عليهم القوم وقروا تلك القرية ونسبوها لهم. وقيل أن الرهبان الذين كانوا بجلهمة أصلهم من تاغزوت التي بأرضهم حين نزلوا ذلك المكان فقيل له أرض تاغزوت.

وقبلتها بانحراف للغرب بوبياضة[2] سمي بذلك لكثرة الفار (اليربوع) الأبيض به.

---

1. من الوادي إلى تاغزوت 14 كلم. قيل هذه تأسست سنة 1580 م.
2. من الوادي إلى بوبياضة نحو 13 كلم.

وبقربها شمالا بانحراف قليل إلى الشرق قمار[1] : قيل سبب تسميتها بذلك أن رجلا من تاغزوت كان يعلم الطرقات أي يضع عليها علامات لخبرته بها وجهل كثير من الناس لها فلقب القمار.. ثم سمي أبناءه أبناء القمار. وكانوا كثيرين فنزلوا موضع قمار فقيل له محل أبناء القمار. ثم تداولت الكلمة الألسنة فصار يقال لها قمار. وقيل إن جماعة كانوا ذهبوا إلى الحج فاجتمعوا فيه ببعض أهل قمار الهند. وكان أحدهم يشبههم كثيرا في الخلقة فقال جماعة سوف لصاحبهم: كأنك قمارى، ثم لقبوه بذلك عندما رجعوا من الحج ولما نزل بموضع قمار قيل له محل القمارى وقال: هو أنا قماري وهذا المحل قمار. وقيل إن رجلا من أهلها كان يتعاطى كثيرا القمار والمراهنة فاشتهر بذلك ولقب بالقمار. وقيل إن ذلك المكان كان كثير الحمام القمارى يذهب الفتيان ينصبون به الفخاخ ويسمونه محل القمارى ثم تصرفت الألسنة في الكلمة حتى صار يقال قمار. والله أعلم بالحقيقة.

ويلي ذلك في الجهة الغربية الشمالية بورقيبة[2] ويقال له الرقيبة لكثرة الاستعمال سميت بذلك لموت رجل من طرود هناك حين كانوا في الثغر يقال له بورقيبة لطول رقبته ودقتها أي أن طول عنقه كان متفاحشا ولذلك ظهر اسمه بين أقرانه إذ لا يظهر اسم أحد دون أبناء جنسه إلا إذا كانت به خاصية لا توجد فيهم أو يندر وقوعها.

---

1. من الوادي إلى قمار 15 كلم . قيل هذه تأسست سنة 1597 م.
2. من الوادي إلى بورقيبة 35 كلم. قيل تأسست منذ 1880 م.

ويلي قمار من الشمال الدميثة[1] لم يذكر لي أحد تعليل اسمها وأظن أنها سميت بذلك لكثرة الأوساخ بأرضها فإنها كانت في حافة غدير من الماء لا يفارقه الوسخ غالبا وأهل هذه الأرض يسمون الموسخ مدمثا ويقولون إنسان دمث أي وسخ وأما في اللغة فالمكان الدمث هو السهل اللين. ورجل دمث الأخلاق أي حسن الأخلاق وألين الطبيعة وموضع الدميثة الآن سهل إذ السهل عندنا هو الذي لا رمل فيه وإن كان صلدا بخلاف اللغة.

ويلي هذه شرقا بانحراف إلى الشمال[2] غمرة وهي من الأماكن المشتركة الأسماء لكن هذه ليست بلدة بل هي بساط من الأرض به قليل من النخيل وسميتها قرية وكانت خرابا وقت التسمية على ما قيل ويسمى بهذا الاسم أيضا طائفة مسكنهم الزاب الغربي سميت بذلك تشبيها بغمرة التي في تراب تقرب لتقارب صفة أرضهما وقيل إنها كانت مغمورة بالماء من سيح الوادي أحيانا الذي كان يمر غربا من البهيمة وبالقرب من هذا المحل فقيل لها من أجل ذلك غمرة. وقيل لأنها كانت موضع الغمرات أي الشدائد والأهوال إذ وقعت فيها كثير من الحوادث. وواحدة الغمرات غمرة. قال الشاعر :

زعم العواذل أنني في غمرة   صدقوا ولكن غمرتي لا تنجلي

---

1. من الوادي إلى الدميثة : 25 كلم. تأسست القرية منه 1882.
2. من الوادي إلى غمرة : 20 كلم.

فشددت العامة ميمها وكثيرا ما يسمى المكان باسم ما وقع فيه والعكس. فمن الأول بورقيبة ورماس وسحبان ونحو ذلك ومن الثاني النادي فانه في الأصل اسم لمحل جلوس الجماعة فصار يطلق على الجماعة نفسها .

ويلصق الوادي جوفا بانحراف قليل للشرق قرية ضواي روحه : سميت باسم المكان الذي شوهد فيه ضوء كان إنسان هناك يوقد الضوء لروحه أي لنفسه من غير أن يجعله له أحد. وبنيت قبيبة (قبة صغيرة جدا) بذلك المحل وتزوره الناس إلى الآن للتبرك به. ومكان هذه القرية في حافة محل تكسبت القديمة الشمالية الغربية.

وفي موضع حافتها الغربية الجنوبية وموضع الشرقية بويتان تسمى باسم ساكنيها الآن وهم المعاوي وأولاد فرح. ويقال لها نزله سيدي بلقاسم بن لعجال.

وبإزاء الوادي شمالا أولاد مبروكة.

ويلصق الوادي شرقا نولة سيدي مسطور.

وقبلته نزلة البق وشرقيها العلالقة.

ويبعد عن الوادي شمالا شرقا بنحو ثلاثة عشر ميلا البهيمة[1]: سبب تسميتها بذلك أن طرودا حين أتوا من وادي الجردانية ونزلوا بذلك المكان وجدوا بئرا كان حفرها زناتة في ممرهم إلى عدوان وحيث اشتد العطش بطرود ازدحموا على البئر بحيواناهم وكان لهم بهيمة (حمارة

---

1. من الوادي إلى البهيمة : 14 كلم.

أو أتان) موقورة بالمتاع سقطت في البئر فما أخرجوها إلا ميتة فأخذوا المتاع وأرجعوا البهيمة إلى البئر.

وبإزائها في الجهة الشرقية الزقم[1] : سبب تسميتها بذلك قيل إنه أتاها أناس من بني يزقن أي أناس من مزاب فسموها باسم بلدهم وبكثرة الاستعمال أبدلت النون ميما. وهم الخضراويون. وقيل إن بني عدوان كانوا كثيرا ما يأكلون التمر النفطي بالزبدة وهذا يسمى الزقم فسمى المحل بذلك. وكانوا ينطقون بالقاف الفارسية[2] المشوبة بالكاف بدل القاف العربية الأولى. وهذا إلى الآن يوجد في طرود وبقية عرب سوف. ووقع مثله في العرب الأولين حتى نسبه بعضهم للنبي ﷺ حين قدم عليه إنسان من قحطان اليمن وكان بنو عمه الأنصار الذين بالمدينة المنورة فقال :

إن قيل جئتم بما رجعتم   يا أكرم الخلق ما نقول

فقال له ﷺ :

قولوا رجعنا بكل خير   واجتمع الفرع والأصول

1. من الوادي إلى الزقم: 15 كلم. قيل تأسس مسجد الزقم الأول سنة 1560 م والقرية سنة 1580 م.

2. القاف الفارسية التي ينطق بها أهل سوف وغيرهم في غالب المناطق الجزائرية بدلا من القاف العربية لم يرمز لها بحرف خاص ضمن الحروف الهجائية العربية. غير أننا نجد في بعض المقاسات من يرمز لها بزيادة نقطة ثالثة على القاف هكذا: (ڨ) بالفرنسية G وكذا بالنسبة لحرف الفاء الفارسية بوضع ثلاث نقط أسفل الحرف (ف) بالفرنسية V وبالنسبة للباء الفارسية هكذا (ب) والمؤلف ممن وضع ثلاث نقط على حرف القاف في الكلمات التالية الواردة بالبيتين: قيل، الخلق، قولوا.

يعني بالفرع القائل وبالأصول الأنصار رضي الله تعالى عنهم.

أقول : إن صحت نسبة هذا القول للنبي ﷺ وقد قال الله تعالى في حقه: "وما علمناه الشعر وما ينبغي له" فالجواب عنه بما أجيب به على قوله ﷺ :

أنا النبي لا كذب   أنا بن عبد المطلب

وقوله :

هل أنت إلا أصبع دميت   وفي سبيل الله ما لقيت

وهو أنه ليس كل من قال قولا موزونا لا يقصد به الشعر شاعرا وإنما وافق وزن الشعر كما في كثير من الآيات القرآنية منها قوله تعالى: ﴿**لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون**﴾[1]. فإنه على وزن مجزوء الرمل المسبغ.

قال الشيخ السباعي : "النظم هو الكلام المقفي الموزون المقصود من قائله".

ومن الناس من يقول أنها سميت الزقم بسبب شجر شبيه بالزقوم غطى جميع تلك الأرض.

ويليها في الجهة الجنوبية نزلة بلالة[2] : هي نخيل به منازل قليلة، سميت بهذا الاسم لأن الذين غرسوا بها بعض النخيل ثلاثة أفراد متجاورين وكان كل واحد منهم يسمى عبد الله وأهل هذه الأرض يقولون لعبد الله بله وإذا جمعوه يقولون (بلاله) فنسبت الأرض لهم وسمى باسمهم المكان.

1. سورة آل عمران الآية : 92.

2. من الوادي إلى بلاله 19 كلم.

ويلي الزقم في الجهة الجوفية الشمالية الذكار[1]: وهو فحل النخل سمي ذلك المحل به لأن أول ما غرس فيه نخلة واحدة كان غارسها يظنها دقلة نور فظهرت ذكارا فهجرت حتى طالت ثم قدم الناس إلى ذلك المكان فسموه باسم ما وجدوه فيها وهو الذكار.

ويليه في الناحية الشرقية : الدبيلة[2]: قيل: سبب تسميتها بهذا الاسم أن العرب تزعم بأن ذلك المحل كانت فيه غولة (أنثى الغول) وهي السعالة تهلك جميع من ظفرت به فتأخر الناس عن المرور بتلك الناحية وقالوا إن هذه الأبيلة أي داهية عظيمة مهلكة وسموا أرضها أرض الدبيلة حتى جاء سيدي علي ابن خزان فأخرجها من ذلك المحل فسكنت غمرة ونواحي الدميثة حتى جاءها ابن سيدي الحاج عمار فقتلها في تلك الجهات وإلى الآن توجد آثار حفر فرسه حين كان لاحقا بها. يعظمها أهل قمار ويعطون شيئا من التمر إلى زمننا هذا لأبنائه مكافأة لما دفعه جدهم. وقيل إن غويلة ذات كانت تسمى دبيلة حسبما أخبر عنها عرفاء ذلك الوقت من بني عدوان وقيل أن سيدي هعلي بن خزان طاف أماكن كثيرة وفي آخرها نزل على البهيمة فأمر في المنام بالخروج منها ويجعل ابنته أمامه في المسير ففي أي محل يحصل بها التعب وتقف يترل فقال لامرأته بإنني أمرت بالانتقال وجعل دبيلة تسير أمامي الخ.. وكانت البنت عندهم تسمى دبلة فإذا اصغّرت قيل لها دبيلة فسارت أمامه حتى وقفت في موضعها الآن، وكان سيدي علي بن خزان حاملا متاعه على ظهره وزوجته كذلك وقد تعب وتخلف عن البنت

1. من الوادي إلى الذكار 18 كلم.
2. من الوادي إلى الدبيلة 20 كلم.

فلما رأياها قالا ذاك موضع الدبيلة فصار علما على تلك الأرض وسميت القرية بذلك أيضا. وقيل إن سيدي عليا المذكور كان حاملا متاعه وتخلفت زوجته أو ابنته و لم تهتد له فصار يقول لها دبي لي دبي لي والأخرى تقول لها دبي له أي سيرى نحوه. والدبيب هو السير البطيء جدا.

قال الشاعر :

زعمتني شيخا ولست بشيخ   إنما الشيخ من يدب دبيبا

فسمى المحل الذي قيل فيه ذاك بهذا الاسم وهذا الرأي الأخير سمعته من كبار أهل القرية نفسها. وقيل إنه كان بذلك المكان شجر مهلك للإبل تسمى الشجرة الواحدة دبيلة أي مهلكة.

ويليها في الجهة الشمالية الدريميني[1] : تسمى بذلك لموت رجل من طرود هناك يسمى دريمين لأنه كان متقارب الخطوات في المشي لعجزه.

ويليه في الجهة الشرقية الغوط : سمى بذلك لأن الذي ابتدع فيه النخيل جعل غوطا واحدا وبقى زمنا طويلا منفردا ثم قدم عليه جماعة وقالوا نترل بالغوط. والغوط عبارة على مكان منخفض فيه نخلات متجاوزات مغروسات بقرب الماء.

ويليه في الجهة الشرقية الشمالية أحسي خليفة[2] : يزعمون أن ذلك المكان حفر فيه خليفة الزناتي بئرا عند مروره بسوف ثم خربت وبقى المحل يسمى بذلك والبئر عندهم يسمى حاسي فإذا صغر قيل له أحسى.

1. من الوادي إلى الدريميني 23 كلم.
2. من الوادي إلى أحسي خليفة 30 كلم.

ويلي البهيمة شمالا السويهلة[1] : سميت بذلك لانبساط أرضها وعدم وجود الرمل على وجهها فهي مصغرة سهلة .

ويلي ذلك شمالا أيضا بانحراف إلى الشرق سيدي عون[2] : سميت القرية باسم الشيخ الذي نزلها أولا واستقرت عليه القرية بأبنائه غالبا. وهو سيدي عون بن مهلهل.

ويليه شمالا قطاي : سمى بذلك لوجود كثيب عال من الرمل بقربه. والعرب تسمى الحقف الذي على الأرض المعتدلة قطايا، وقرنا، وغريبا، لأنه كخصلة الشعر الزائدة على شعر الرأس المسدولة على الكتفين أو قربهما. أو تشبيها بقرن الشاة الخارج على رأسها والله أعلم.

1. من الوادي إلى السوهيلة : 19 كلم.
2. من الوادي إلى سيدي عون 21 كلم. قيل تأسست القرية المذكورة سنة 1740 م تقريبا.

تذييل

قيل أول ما تقرى من قرى سوف ما سوى الوادي تاغزوت ثم الزقم وبعدهما كوينين ومنها قرية قمار وتلتها البهيمة، ثم امتد العمران عميش وما يليه، وبعده عمرت الدبيلة، ثم قرية سيدي عون وبعد ذلك تسلسلت بقية الفروع أغلبها من أهالي الوادي.

وقد حكى لي الشيخ نصر المتقدم ذكره عمن ينقل عليهم أن ترتيب العمران بسوف كان على خلاف ما تقدم وهو أنه أول ما تقرى من القرى الزقم لوجود آل عدوان بالمكان من قديم ومن انضم إليهم من حديد، وبعدها بقليل عمرت تاغزوت ثم قمار ومنها البهيمة فكوينين فالدبيلة فسيدي عون؛ وأما عميش فلم يكن له وقت محدود وإنما كان كل من ضاق عنه المجال من طرود ينتقل إلى تلك الناحية، فجميع سكان عميش أتوه فرادى كما أن تلك القرى كان تقريها تدريجيا لا دفعة واحدة ولم يكثر بها البناء إلا بعد عام ألف ومائة هجري والله أعلم بالصواب.

تنبيه :

ليس لنا من الأماكن المشتركة الأسماء في هذه الأرض إلا أربعة :

الأول : قمار فإنه يطلق على القرية التي بأرض سوف وعلى بلد بالهند يجلب منه العود القماري، لكن الفرق بينهما أن تلك بفتح القاف وهذه بضمها.

الثاني : تاغزوت، فإنه يطلق على قرية أرضنا وعلى مكان قرية بجبل ششار وعلى مكان بأرض الغول (أرض فرنسا).

الثالث : القوارير يطلق على القرية التي بقرب كوينين وعلى مكان جدهم الذي بناحية توات.

الرابع : سوف، يطلق على هذه الأرض بتمامها وعلى مكان بالشام.

حكى لي إنسان يقال له عثمان لا أعرف اسم أبيه وهو من البهيمة وجدته بالجزائر عام (1327 هـ-1909 م) وكان عاملا مع أخيه إبراهيم بمحل تجارة ناطاف اليهودي. حكى لي بأنه حين أراد الذهاب إلى الحجاز وكان لا مال له، طوحته الطوائح يسأل الناس فدخل أرض سوف بالشام وهي قليلة السكان وأهلها شبيهو الخلقة واللباس بأهل أرضنا فاستطعمهم فأطعموه وأكرموه بعد أن عرفوا نسبته.

أقول : لعل الذين قدموا إلى هذه النواحي أولا كانوا من ذلك المحل فسميت الأرض بهم والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.

الأجنـــاس في ســـوف

البـــربـــر[1]

كانت أرض البربر الشام ونواحي فلسطين وكان ملكهم جالوت فلما قتل سارت البرابرة إلى المغرب.

قال الطبري والسهيلي وكما هة في كتاب تحفة الأنجاد، وكتاب الخلاصة النقية في أمراء إفريقية إن لسبب خروج البربر من الشام التي كانوا فيها أن إفريقش استجاشهم لفتح إفريقية وسماهم البربر وينشدون من شعره:

بربرت كنعان لما شقتها من أراضي الضنك والعيش الخصيب

وقال ابن الكلبي : اختلف الناس فيمن أخرج البربر من الشام، فقيل داود عليه السلام وقيل نبي الله يوشع بن نون عليه السلام ابن أخت سيدنا موسى عليه السلام، وقيل بعض ملوك التبايعية. وعن البكري أن بني إسرائيل أخرجوهم عند قتل جالوت. وعن المسعودي أنهم فروا بعد موت جالوت إلى المغرب وأرادوا مصر فأجلتهم القبط فسكنوا برقة وإفريقية والمغرب ونزلوا القفار عصورا في الخيام[2] وانتجاع الأمصار من الإسكندرية إلى البحر وإلى طنجة والسوس حتى جاء الإسلام.

---

1. قيل إن كلمة بربر لم تكن موجودة قبل دخول اليونان إلى شمال إفريقيا. وقيل عندما دخلوها وجدوا في ألسنة أهلها لثغة فأطلقوا عليهم من أجل ذلك اسم بربر.

2. كان البربر في هذه المرحلة التاريخية يسكنون الخيام والكهوف ويعتمدون في معيشتهم على اصطياد الحيوانات الوحشية وتربية الحيوانات الأهلية ثم انتقلوا بعد ذلك إلى مرحلة الزراعة فحرثوا الأرض وزرعوها حبوبا، فارتفع مستوى معيشتهم. ولم يكن لهم مجتمع منظم وإنما كانوا منقسمين إلى جماعات صغيرة تشكل في مجموعها القبيلة الخاضعة لسلطة القائد الذي ينتخبونه والمسمى : أقليد.

وكان منهم من تهود ومنهم من تنصر، وآخرون مجوسا يعبدون الشمس والقمر والأصنام، ولهم ملوك ورؤساء.

وفي كتاب إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان : أن حام ابن نوح فر إلى المغرب وتبعه بنوه من ولده بربر بن كلوجيم فنسل بنوه بالمغرب، ثم قال : وانضاف إلى البربر حيان يمنيان عند خروجهم من مأرب وهما كتامة وصنهاجة.

والحق الذي لا ينبغي التعويل على غيره في شأنهم أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح عليه السلام.

وجاء في المنهل العذب : بعد أن كانت اليونان بطرابلس تغلبت عليهم البرابرة واستوطنوها إلى أن جاء الإسلام. وأن هؤلاء البربر شعوب وقبائل أكثر من أن تحصى وكان سبب مسيرهم إليها وإلى غيرها من المغرب أنهم كانوا بنواحي فلسطين من الشام وكان ملكهم جالوت فلما قتل سارت البرابرة وطلبوا المغرب وانتهوا إلى ليبيا ومراقية فسارت زناتة ومغيلة (قبيلتان) إلى المغرب وسكنوا الجبال والصحاري التي قبلة من زاب إفريقية. ونزلت نفوسة (قبيلة من البربر) مدينة صبرة وأجلوا من كان من الروم في ذلك الوقت وأقام الأفارق وهم خدمة الروم وبقيتهم على صلح يؤدونه إلى أن كان صلح عمرو بن العاص.

إن برابرة زناتة انتقلوا إلى الزاب، وقسطيلة، ووادي ريغ، وورقلة وسوف متأخرين [1] فقاتلوا من وجدوه هناك وأجلوهم عن جميع تلك الأراضي وحلوا محلهم.

---

1. يفهم من كلام المؤلف أن أرض سوف كانت عامرة بقوم غير بربر زناتة قبل قدوم هؤلاء إليها.

قال القدماء : إن البرابرة الذين وصلوا إلى سوف وما حولها متأخرين هم بنو زناتة وأن أكثر الأماكن الموجودة الآن بها تسمى بهم.

وجاء في المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب : أن زناتة [1] من فرق كثيرة منها زوارة، وزواغة، ودمر، وهراطيل، وبضلتين، وبنو توجين، وبنو مغرا، وبنو يفرن [2] وبنو ورشفانة وبنو باذين الخ.

وإذا قدم برابرة زناتة إلى سوف بنوا بها أماكن كثيرة منها الجردانية والبليدة. وقيل أصلحوا ما انكسر بهما لوجودهما من قبل [3] وزادوا فيها. والمنقول عن القدماء أن البليدة انهدمت كلها ولم يبق منها بقية. وأما الجردانية فزادوا فيها وبنوا أماكن أخرى منها البليدة التي قبلة غواط الصلاعة، الآن كانت قرية كبيرة ذات سور عظيم إلى الآن توجد آثاره في غوط أبناء حمد بالناحية الشرقية، وآثار مقبرتها (جبانتها) في ناحية الغوط الغربية، ومقبرتها الأخرى بغوط بن حريكة. فقد رأيت بنفسي جثثا فيهما قبل التاريخ بنحو ثلاث سنوات. وعثر أيضا في الغوطين المذكورين على قلال وقدور وآوان من زجاج وخزف ونحو ذلك من الآثار.

ومنها تكسبت التي كانت بمكان ضواي روحه الآن. ومنها حزوة [4] التي قرب تراب الجريد، كانت عامرة آهلة ذات بناء محكم لا سور لها.

---

1. جميع بربر زناتة تنسب إلى جانا بن يحي.
2. يفرن إليه تنتسب الكاهنة بطلة الأوراس الشهيرة.
3. قيل أيضا إن الجردانية والبليدة القديمة كانتا موجودتين عند قدوم زناتة إلى سوف وقد بناهما الفنيقيون من قبل.
4. حزوة مكان موجود الآن على مسافة 75 كلم من الوادي شرقا في طريق الجريد. وقد سمي باسم امرأة بربرية زناتية تدعى حزوة.

جاء في كتاب تغريبة بني هلال : نزلنا في موضع حزوة فرأينا الآثار بها قائمة والحجارة مفرقة.

أقول : إلى الآن توجد بعض آثار ذلك وقد شاهدت الكثير منها.

وتاكرارت[1] محلها المعروف الآن قرب الميتة وأبي دخان وعقلة الطرودي في الطريق بين الجردانية وعين البيضاء. وإلى الآن آثارها موجودة وجدرانها قائمة وحجارتها مبعثرة ويسمى الشجر النابت هناك عريش تاكرارت أوتاقرارت والناس يسمون الشجر الملتف عريشا كما كانوا يسمون قصر زعيم البلدية السابق ذكرها قصر العريش والقصر هو البرج. وأخبرني من أثق به أن البليدة نفسها كانت تسمى قصر العريش لأن القرية بتمامها كانت تسمى عندهم قصرا وجمعها قصور والنسبة إليها قصرى. وذلك لوجود الأشجار الكثيرة حولها.

وجاء في تغريبة بني هلال : أن تاكرارت كانت عامرة عمرانا عظيما، كثيرة الأهل، مستحكمة الحضارة والنضارة، مبنية بالصخر الكبير ...

وقد عثر في الزمن القريب عن خشبة ساج حولها لا يدري هل هي من خشب سقوفها أم أتت بها السيول من مكان آخر.

ومنها قريتان متجاورتان بطريق تقرت الآن بنواحي سيف سلطان لا أدري ما اسمها، وبموضعهما الأثار إلى اليوم.

وفي زمنهم كثر الزرع بالجردانية وتاكرارت وما حولهما.

---

1. يقال لها تاكرارت وتاقرارت.

وكانت الرئاسة على هؤلاء البربر الذين بالواسطة للكاهنة المشهورة المسماة دهيا أو وهيا، أو واهيا بنت تابتو الجراوية ساكنة جبل أوراس[1]. اتخذت جموعا عظيمة حولها وتسلطت بهم على سائر القبائل فخضعت لها العباد وتمكنت من البلاد حتى صار يذهب الذاهب أو يأتي إلا بمشورتها. إلا تونس والقيروان وقابس وما حولها فكانت تحت سلطة جرجير الرومي الذي تحت هرقل ملك القسطنطينية، وهو صاحب سبيطلة ولم تقدر دهيا على التسلط عليه لشدة شوكته وحمايته.

وقيل إن دهيا أيضا مع جميع رعاياها كانوا تحت أمر جرجير ولكن استفحل أمرها بعد موته كما أن جرجير نبذ طاعة هرقل واستقل بالملك وحده، وضرب السكة باسمه أي اسم جرجير إلى أن جاء الفتح الإسلامي كما سيأتي إن شاء الله.

---

1. تناول حديث المؤلف هنا الفترة الأخيرة من تاريخ البربر أعني عهد الكاهنة لعلاقة هذه بالزناتيين في منطقة سوف قبيل العرب إذ كانت المنطقة عهدئذ آهلة بالبربر من بني زناتة.

الكنعانيـــون[1]

يتصل نسبهم[2] بنسب البربر المتقدم ذكرهم في كنعان بن حام بن نوح عليه السلام. كانت أراضيهم بناحية بلاد الشام[3] فاحترفوا البحارة والتجارة[4] ويعيشون الأيام والشهور في الأسفار وركوب البحار لبيع مصنوعاهم في البلاد القريبة والبعيدة.

وابتداء من خمسة عشر قرنا قبل الميلاد تقريبا صاروا يفدون في غالب الأيام على أرض المغرب[5] فيبيعون إلى البرابرة ما يحملونه من بضائع عديدة وحلل ثمينة. ثم أنهم بنوا مدينة قرطاجنة[6] (ترشيش) بتونس.

قيل أن امراة تسمى عليسة[7] إحدى أميراقم تخاصمت مع أخيها علي الملك ولما خلعها عن العرش ضاق بها المجال وصعب عليها الحال

1. الكنعانيون يعنـــي بهم الفنيقيين.
2. الفينيقيون أو الكنعانيون هم من حيث النسب أبناؤهم البربر والعرب.
3. كان الكنعانيون يسكنون بلاد فنيقيا الواقعة بين جبال لبنان والبحر الأبيض المتوسط.
4. كانوا في بادئ الأمر فلاحين ممتازين غير أن صغر أرضهم الفلاحية دفعتهم إلى أن يصيروا بحارة تجارا.
5. قاموا برحلات طويلة في حوض البحر المتوسط حاملين مختلف منتوجاقم الصناعية إلى البلدان الساحلية. وأخيرا أرسى بهم الحال إلى إنشاء مراكز تجارية قارة أصبحت فيما بعد مدنا هامة مثل قرطاجنة، بنزرت، عنابة، سكيكدة، القل، جيجل، بجاية، الجزائر، شرشال، تنيس، طنجة ...
6. تأسست مدينة قرطاجنة حوالي 814 ق.م.
7. عليسة أو اليزة وتسمى أيضا ديدون خلعها شقيقها عن العرش بعد أن كانت ملكة بمدينة صور في لبنان.

فقدمت مع جمع من حاشيتها إلى ترشيش حيث بنت مدينة وأسمتها قرطاجنة آثارها إلى الآن موجودة ومن المزارات المقصودة.

وكان لهذه المدينة شأن عظيم إلى أن تسلط عليها قوم الرومان عام 146 قبل الميلاد كما سيأتي.

ويزعم برابرة زناتة المغرب أنهم هؤلاء الكنعانيين وليس بصحيح.

والذي ترجحه الأخبار عن الأوائل أن الكنعانيين بلغوا أرض سوف[1] وما حولها. وكانت مساكنهم في وادي الجردانية السالف ذكره، وفي البليدة القديمة التي بقرب سيف المنادى في الناحية الشمالية من الوادي على مسافة يومين.

وقد عمروها عمرانا قويا وبنوا فيها بناء كثيرا وحسب ظني إن البلدة التي في وادي الجردانية كان محلها قريبا من موضع عيون النازية الآن وهي بقرب بئر بوزلفة المعروفة في التاريخ بدليل الآثار التي عثر عليها في الأزمنة المتأخرة منها خشب ساج وأسلحة. ذكر المؤرخون أن قرطاجنة كان بها مثل ذلك في زمنهم أي في زمن الكنعانيين. وكلام العدواني يفيد أن تلك البلدة كانت تسمى الجردانية وأن الوادي الذي يجري هناك ينسب إليها أو إلى النازية. فيقال : وادي الجردانية أو وادي النازية.

1. يذكر بعض المؤرخين انه كانت علاقة تجارية بين الفينيقيين وبلاد السودان عن طريق البر. وكان هذا الطريق هو العرق الشرقي أي الناحية الشرقية من سوف. وهذا مما يرجح وجودهم بها ولعل بعض الآثار التي اكتشفت بعدة مناطق من سوف هي آثار فنيقية نسبت للرومان.

وبعد خراب البلدة واضمحلال الوادي بقي ذلك الاسم على المحل كما أن جميع الأماكن التي في سوف بقي عليها الشيء الذي اتسمت به أولا ولو بعد زواله.

وطالت إقامتهم بسوف وكانوا أصحاب أموال وإبل وتجارة قياسا على من هم بإفريقية. والله أعلم.

الـــرومـــان[1]

قال الشيخ العروسي في كناشه : "أتى الرومان إلى هذه الأرض (أرض سوف) منذ دهر طويل لا نعلم أوله، وقاتلوا من فيها وأخرجوهم منها فتفرقوا في إفريقية، وسكنوا في مساكنهم (الجردانية والبليدة)[2] وجددوا ما تهدم

---

1. رأى الرومان ما بلغه الفنيقيون (الكنعانيون) من عظيم الشأن وقوة السلطان فأوجسوا خيفة وذهبوا يكيدون لهم المكائد قصد الوصول إلى محاربتهم والحلول محلهم بأرض إفريقية. وفعلا قد أشعل الرومانيون نار الحرب ضد الفنيقيين منذ قرن ونيف أظهر فيها أهل قرطاجنة من البطولة مما جعلت انتصار الرومان امرا عسيرا لولا استعانتهم بالبرابرة الذين كانوا يظنون في هزيمة الفنيقيين خلاصا لوطنهم، إلا أن الرومانيين بعد انتصارهم لم يتركوا الأرض لأصحابها البرابرة رغم وعودهم بل استولوا على كامل البلاد. واستمر وجود الرومان مع البربر عهدا طويلا تخللته فترات هدوء تارة وثورات من البرابرة تارة أخرى ولما جاء المسيح عليه السلام اعتنق الرومانيون دينه وتبعهم في ذلك البرابرة فكانت مدينة قرطاجنة ومدن غيرها قاعدة للرهبان والقسيسين. وكان من بين هؤلاء من ذهب إلى أرض سوف وما حولها من المناطق الجنوبية للتبشير بدين المسيح عليه السلام.
دام حكم الرومان نحو الستة قرون بشمال إفريقيا لم يقيموا أثناءها عدلا نحو الرعية وإنما كان همهم المتعة الشخصية حتى ضعف حالهم واضمحلت آمالهم وسلط الله عليهم قوم الفندال بجيوشهم الجرارة كما حاربهم البربر بشدة وضراوة فهزم الرومان في كل معركة وميدان وخرجوا من الأرض تاركين وراءهم آلاف الموتى أو من اختار البقاء تحت حكم غيره.
2. لم يكتف الرومان عند قدومهم إلى سوف بالسكن في الجردانية والبليدة بل بنوا قرى عديدة أخرى في مختلف أرض سوف ويوجد آثار ذلك في سندروس وقمار، والرقيبة، وغرد الوصيف، وقرية البليدة الجديدة المسماة قصر العريش على القول بأنها من تشييد الرومان.

منها وتعمقوا في أراضيها ... الخ. أقول : أتى الرومان إلى هذه الأرض في القرن الأول المسيحي لأنهم في تلك الأوقات تسلطوا على فرنسا وإفريقية.

وعن كتاب السيرة السنية في أخبار ملوك الدولة الفرنسية أن الرومان استولوا على أرض الغول[1] أي فرنسا قبل بعثة سيدنا عيسى بخمسين عاما وكان ملك الرومان وقت استيلائهم عليها يسمى جول سيراز. فدفعوهم (أي القوليون) عن أرضهم بالقتال تسعة أعوام فأدركهم الضعف من كثرة الحروب فحينئذ أذعنوا للطاعة ودخلوا تحت حكم الرومان، وأخذوا في تعلم العلوم والصنائع والقوانين فكان لهم في استيلائهم عليهم فوائد كثيرة. واستقر الرومان هناك نحو الخمسمائة سنة وعمروها بالبناء ومازال أثر ذلك في فرنسا من القناطر والأبراج وغير ذلك ... الخ.

وقال في المنهل العذب : من جملة من سكن أرض طرابلس الرومان وكان وقت إتيانهم لها في أوائل القرن المسيحي.

---

1. في القرن الثاني قبل المسيح كان اليونانيون متمركزين بالمنطقة الجنوبية من أرض القول (فرنسا) وعندما نشب القتال بين القوليين واليونانيين استنجد هؤلاء عند عجزهم بالرومان الذين لم يترددوا في مساعدتهم غير أن الرومانيين بعد انتصارهم على القوليين لم يعودوا إلى أرضهم بل تمركزوا بالمنطقة التي سميت فيما بعد منطقة البروفانس بأرض فرنسا. وفي سنة 58 قبل المسيح استنجد القوليون القاطنون بالشمال بالرومانيين لمساعدتهم على رد الجرمانيين الذين جاؤوا لغزو أرض القول فتوجه إليهم جول سيراز بجيشه وأجبر الجرمانيين على التراجع، لكن الرومانيين رفضوا هذه المرة أيضا مغادرة المنطقة وبذلك أصبحوا مسيطرين على غالب أرض القول.

ونص كلام الأول : ثم ضعف حال الرومان فهجمت عليهم أمم كثيرة من الجرمانية استولت على بعض أرضهم وعمروها بالبناء فمنهم السويف، والفندال والإسكلافيون، والسكسون، والنورمان والفرنك.

ونص كلام الثاني : ثم بعد الرومان سكنها (أي طرابلس) الوندال وهم جنس من الجرمان. أقول : الوندال في كلام هذا هم الفندال في كلام الأول لأن الفاء هنا ليست حقيقية بل هي الباء الفارسية التي ينطق بها بين الفاء والباء وإذا ضعفت أي شددت كما هنا ينطق بها واوا صريحا.

وكلام المؤنس في تاريخ إفريقية وتونس يفيد أن الرومان بعد حروب وقعت لهم مع صاحب قرطاجنة على وادي مجردة انحازوا إلى الجهات الغربية.

وحسب قول القدماء إن تلك الجهات هي الزاب وورقلة وما حولهما وسوف وقسطيلة (الجريد).

أقول : وفي ذلك الوقت وقبله بقليل مر بهذه الأرض سيدي خالد ابن سنان العبسي واستقر قراره بزاب بسكرة الغربي وإلى الآن قبره مشهور يزار هناك.

جاء في المؤنس : قال غير واحد إن إفريقية دخلها نبي الله خالد بن سنان العبسي وكان في زمن الفترة ولكن لم يدخلها بدعوة وهو مدفون في المغرب في بلد بسكرة[1] وأنكر بعض الفقهاء ذلك وصححه آخرون والشيخ التواتي ممن أثبت أنه هو. ورأيت بخط والدي رحمة الله عليه قال:

---

1. المكان الذي به قبر خالد بن سنان اصبح بلدة معروفة باسم خالد، بنواحي بسكرة.

حضرت الشيخ المذكور (التواتي) وهو متوجه لزيارة نبي الله خالد بن سنان العبسي، وله كتاب صنفه الشيخ وثبتت عنده صحته، وفي تلك البلاد يسمونه خالد النبي ويزورنه ويتبركون بمقامه ﷺ ... الخ.

وقال الشيخ الدسوقي في الراجح أنه نبي، قيل بعث لأصحاب الرس وهي بئر كانوا قعودا حولها فانهارت بهم وبمنازلهم، وقيل كان نبيا غير رسول بين سيدنا عيسى وسيدنا محمد عليهما السلام.

وقال الفارابي : كان قريبا لسيدنا محمد عليه السلام.

أقول : وكان السبب في إتيان الرومان إلى إفريقية هو عداوتهم وعداوة بعض البربر الكنعانيين وبعد أن وعدوا البربر بتسليم البلاد لهم إن هم تغلبوا على الكنعانيين لكن حدث منهم كما قال الشاعر :

قلت أنجزي الوعد سيدتي　　قالت كلام الليل يمحوه النهار

ولم يزل الرومان هنا نحو الستمائة عام إلى أن تسلط عليهم الفندال سنة 427 م. ولله عاقبة الأمور.

الفنـــــدال[1]

الفندال ويقال الوندال وقد تقدم ذكر ذلك.

كانوا في أرض الإسبان فضاق عليهم المجال في العيش لكثرة عددهم فأرادوا الخروج منها ومزاحمة الرومان والبربر فيما هم عليه من الخصب والرفاهية.

وكان ملكهم يسمى جنسريق[2] ومعه من رعيته نحو المائة ألف بين رجال ونساء. وله من المعسكر خمسة عشر ألفا قدموا جميعا إلى إفريقية عن طريق المغرب الأقصى[3] سنة 427 متوجهين إلى مدينة قرطاجنة فأحرقوا

---

1. الفندال جنس سلافي كان بشمال ألمانيا ثم انتشر في سواها من البلاد بغية العيش.
2. كان ملك الفندال آل جنسريق رجلا قصير القامة إلا أنه كان صاحب طموح وإرادة قوية.
3. كان الفندال قبل دخولهم إلى إفريقية قد بلغوا أرض إسبانيا وتمركزوا بشمالها واشتهرت هذه الناحية باسم فاندولسيا التي سماها العرب فيما بعد : الأندلس. وكان الجيش الروماني بإفريقيا أذاك تحت قيادة الكونت بونيفاس الذي ساءت علاقته مع السلطة المركزية بروما فعرض بونيفاس على الملك جنسريق أن يقتسما فيما بينهما أض إفريقيا الرومانية على أن يأخذ جنسريق القسم الغربي وبونيفاس القسم الشرقي. وعلى هذا الأساس قدم الفندال ونزلوا بالمغرب الأقصى. إلا أن جنسريق تراجع فيما بعد ورفض التقسيم وبالتالي واصل غزوة نحو الشرق إلى أن استحوذ على قرطاجنة وبذلك اكتمل نفوذ الفندال على سائر شمال إفريقيا.

في طريقهم المدن والقرى وقتلوا السكان وعضدوا الشجر[1]. ولما وصلوا إلى مدينة قرطاجنة قاتلوا من وجدوه فيها من الرومان. وهدموا الصوامع والكنائس وأجلوا أصحابها من الرهبان إلى جهة الجنوب حيث نزلوا بالزاب وورقلة والجريد.

وذهب كثير منهم إلى أرض سوف[2] فاستقروا في سحبان[3] وجهلمة[4] وغيرهما.

وكانت أفعال الفندال في إفريقية أفعالا شنيعة فأضمر لهم البربر الكراهية والبغضاء وتربصوا بهم الدوائر إلى أن هلك جنسريق فثاروا ضدهم وقاتلوهم قتالا شديدا سنة 530 م تقريبا. وبعد حرب دامت نحو ثلاث سنوات انجلي قوم الفندال عن إفريقية، وتلك سنة الله في الذين ظلموا ولن تجد لسنة الله تبديلا.

---

1. ورد في كتاب تاريخ الجزائر المصور عند ذكر أفعال الفندال بإفريقيا مايلي :
... وخاضوا حربا ضارية، فأحرقوا المدن وذبحوا ألوف السكان لا فرق عندهم في ذلك بين طفل وشيخ ذكر وأنثى وبلغوا في توحشهم درجة حز أعناق أسراهم حول أسوار المدن ليفسدوا هواءها وقطعوا الأشجار بكل أنواعها واستولوا على هيبون (عنابة) بعد حصار دام طويلا وقد غدت قاعا صفصفا كما ذكر بروكوب...
2. أبعد الفندال رجال الدين المسيحي إلى المناطق الجنوبية لأن هذه المناطق لم يكن بها الفندال و لم يستوطنوها إذ أقصى نقطة الفندال جنوبا لا تجاوز خطا مارا بين باتنة وتوزر.
3. سحبان : جنوب غربي الوادي بنحو 20 كلم.
4. لم يبق اليوم ذكر لاسم جهلمة وقيل إنها مكان قمار الآن أو قربة.

الـــــروم[1]

بسط الروم سلطانهم على غالب الجهات الشرقية[2] من إفريقية. وكان في نيتهم الاستحواذ على النواحي الغربية منها لكن البربر منعوهم من ذلك لعدم رضاهم بحكمهم[3] لأن أخلاق الروم كانت مثل أخلاق سابقيهم فدبت النفرة والجفوة بين الجانبين وساء بسبب ذلك حال الروم.

ثم ان المسمى جرجير[4] أحد البطارقة خرج عن طاعة الملك هرقل واستقل بالملك فزاد ذلك في هوانهم وشغف سلطانهم.

وتربص البربر بهم الدوائر كما تربصوا بمن تقدمهم إلى أن بعث الله للأنام محمد بن عبد الله ﷺ هدى وبشرى للعباد. وقدم العرب المسلمون إلى إفريقية لرفع راية الإسلام ونشر العدل والسلام.

---

1. قيل إن الروم جنس مزيج بين رومان ويونان. وكانوا يقطنون الإمبراطورية الشرقية. ويقال للروم بيزنطيين نسبة إلى مدينة عاصمة مملكتهم.
2. استولى الروم على الجهات الشرقية من إفريقية بينما زعماء البربر بالجهات الأخرى ورفضوا احتلال الروم فكانت لهم سوى حمايتهم.
3. لم تتحسن حالة البربر في عهد الروم عما كانت عليه من قبل بل ازدادت سوءا بسبب الضرائب الفادحة المسلطة على الأهالي وسوء معاملتهم من طرف الموظفين ورجال السلطة البيزنطيين.
4. جرجير البطريق البيزنطي كانت عاصمة مملكته سبطيلة وهو الذي قتله عبد الله بن الزبير في أول غزوة للمسلمين لإفريقية كما سيأتي ذكر ذلك.

ومن الروم ذهب جماعة من الرهبان إلى جهة الجنوب ومنها أرض سوف فنزلوا عند من سبقوهم من الرومان بجهلمة وسحبان وبنوا أمكنة سواها للعزلة والعبادة والاستيطان.

تنبيه :

كان كثير من الأفارقة[1] مختلطين بالروم تحت رعايتهم والبعض صار منهم بالمصاهرة والتوالد إذ كل جنس يتزوج من الآخر ويتدين بدينه وانتشروا في جميع إفريقية والسودان بحيث لا تجد محلا مما ذكر ليسوا فيه. والله أعلم.

1. يقصد بقول الأفارقة البربر وغيرهم من سكان إفريقيا إذ بلغ رجال الدين المسيحي وغيرهم من الروم كثيرا من مناطق إفريقيا الوسطى منذ ذلك العهد.

الفتح العـــربي لإفريقية

في حدود عام 24 من الهجرة الموافق لسنة 646 مسيحية، كانت الخلافة لسيدنا عثمان بن عفان[1] فأرسل أخاه من الرضاعة عبد الله بن أبي سرح[2] إلى إفريقية ووجه معه جيشا حتى نازل قابس في طريقه ورحل عنها وبث سراياه في إفريقية.

وعن كتاب المؤنس في تاريخ إفريقية وتونس : "إن هذا الجند كان عدده عشرين ألفا ومازال يسير إلى أن وصل سبيطلة. وكان الملك في ذلك الوقت جرجير. وذكر أيضا أنه كان أعظم ملك بإفريقية وأنه قبل ذلك كان عاملا لهرقل ثم خلع طاعته واستقل وضرب الدينار باسم نفسه.

وكان سلطانه من برقة إلى طنجة ودار ملكه سبيطلة وكانت بينه وبين عبد الله بن أبي سرح مراسلات فأبى جرجير طلبات عبد الله وتأهب

1. في عهد خلافة عمر بن الخطاب توقفت الفتوحات الإسلامية عند أرض مصر والجزء الشرقي من ليبيا. وقد سبق القول بأنه لما تولى الخلافة عثمان بن عفان سمح للمسلمين بالتوجه نحو المغرب فأرسل ابتداء من سنة 646 م. حملة لفتح إفريقية بقيادة أخيه من الرضاعة عبد الله بن سعد بن أبي سرح.

2. هو عبد الله بن أبي سرح العامري. كان يكتب الوحي لرسول ﷺ. ثم ارتد عن الإسلام والتحق بالمشركين في مكة وكان معاوية بن أبي سفيان قد أسلم فاتخذه الرسول كاتبا للوحي بدلا من عبد الله بن أبي سرح. ولما فتح المسلمون مكة استجار عبد الله بدار عثمان بن عفان فأخذ له عثمان الأمان من الرسول عليه الصلاة والسلام فحسن إسلامه بعد ذلك. وفي خلافة عثمان ولاه على مصر وجندها.

للحرب وجعل ابنته على ديدبان عال وأقسم بدينه ليزوجن ابنته بمن يقتل أمير العرب. وبلغ الخبر إلى عبد الله فأقسم بالذي جاء به محمد ما من أحد يقتل جرجير إلا ونفله ابنته أي ابنة جرجير.

والتحم القتال فتغلب جيش العرب على جيش جرجير. وقتل هذا، قتله عبد الله بن الزبير وأخذ ابنته[1] ودخل المسلمون المدينة وكان ذاك هو عام فتح إفريقية.

وفي عام 46 من الهجرة الموافق لسنة 667 مسيحية ولي عقبة بن نافع أمر إفريقية واختط القيروان عام 49 هـ-سنة 670 م ثم عزله يزيد أبو المهاجر عام 55 هـ- سنة 676 م وقبض عليه، ثم كتب إليه الأمير وأعاده واليا على إفريقية ولم يزل في الفتح بمن معه إلى أن قتله هو وبعض أصحابه كسيلة ملك البرانس من البربر، وذلك في تهودة[2] من أرض الزاب.

قال الإمام ابن خلدون : "أجداث الصحابة رضي الله عنهم أولئك الشهداء (يعني عقبة وأصحابه) بمكانهم من أرض الزاب لهذا العهد وقد

1. جاء في بيان المغرب ذكر أشياخ من أهل إفريقية أن ابنة جرجير لما قتل أبوها سمعت الناس يتساءلون عن قاتله، فقالت لهم لقد رأيت الذي أدرك أبي وقتله. فقال لها الأمير عبد الله بن أبي سرح : هل تعرفينه إذا رأيته؟ قالت نعم. فمر الناس بين يديها الواحد بع الآخر حتى مر عبد الله بن الزبير. فقالت هو قاتل أبي. فسأله عبد الله بن أبي سرح لما كتمتنا قتلك إياه؟ قال ابن الزبير : قد علمه الذي من أجله قتلته. فقال : لك ابنته. فنفله ابن أبي سرح ابنة الملك.
2. تهودة مدينة قديمة بأرض الزاب على مقربة من مدينة بسكرة، لها أسواق كثيرة وبها جامع جليل يعرف بجامع سيدي عقبة وكان يسكنها قوم من البربر. وصارت الآن تسمى سيدي عقبة لموت الصحابي المذكور بها سنة 683 م.

جعل على قبورهم أسنمة ثم جصصت واتخذ على المكان مسجد عرف باسم عقبة وهو في عدد المزارات ومظان البركات بل هو أشرف مزار من الأجداث في قباع الأرض لما توفي فيه من عدد الصحابة والتابعين الذين لا يبلغ أحد مد أحدهم ولا نيصفه".

أقول : قصد الإمام ابن خلدون من قوله "أشرف مزار" من أمثاله بإفريقية.

وجاء في كتاب المؤنس في تاريخ إفريقية وتونس وكذا في كتاب الخلاصة النقية في أمراء إفريقية : "أن غدامس أيضا فتحت في أيام عقبة ولكن في ولايته الأولى عام 46 هـ.

فقتل وسبى وبلغ في غزوته عامة بلاد البربر. وفتح فزان، وودان، وقفصة، وقسطيلة وما حولها فتحا ثانيا لأنها فتحت قبله وارتدوا فأعادهم بغزوته هذه حتى أذعنوا له، وكذلك نفطة وتقيوس والحامة.

وهذا يفيد أن عقبة أو قومه وصلوا إلى سوف وفتحوا قراها[1].

ثم أن حسان بن النعمان الغساني عامل عبد الملك مروان حين دخل إفريقية سأل هل بقي أحد إذا قتل خافت البربر والنصارى؟ فقيل له امرأة يقال لها الكاهنة وهي بجبل أوراس تخافها النصارى والبربر. فتوجه إلى لقائها. وعلمت الكاهنة بأمره فقدمت إليه في عسكر عظيم من البربر والروم.

1. قيل إن عقبة قد عين حسانا بن النعمان على رأس جيش وأمره بالتوغل في المنطقة ما بين بسكرة وورقلة وفي ضمنها منطقة سوف وكان ضمن سرايا المسلمين التي بقيت تلقن تعاليم الإسلام بالمنطقة البعض من بني عدوان كانوا النواة الأولى لوجود قبيلة عدوان بأرض سوف.

فالتقى الجمعان واقتتلوا قتالا شديدا فر إثره حسان مغلوبا وقتل من قومه خلق كثير وأسرت الكاهنة منهم ثمانين رجلا. ثم تبعت حسانا حتى خرج من قابس ونزل في برقة بمكان يعرف إلى اليوم يقال له قصور حسان وذلك عام 78 هـ.

وكتب حسان إلى عبد الملك يخبره بما لقي من الكاهنة فوافاه الجواب يأمره بالمقام حيث أدركه كتاب أمير المؤمنين -فأقام هناك خمسة أعوام.

وملكت الكاهنة إفريقية خمس سنوات على الصحيح منذ أن انصرف حسان عنها.

ولما سبرت أحوال العرب قالت لقومها : يا قوم إن العرب يطلبون من إفريقية المدائن والذهب والفضة ونحن إنما نطلب منها المزارع والمراعي فالرأي عندي تخريب مدنها وحصونها وأشجارها حتى نقطع أطماع العرب فأرسلت قومها إلى كل ناحية فخربوا ديارها، وعضدوا[1] أشجارها ومحوا جمالها، وجالوا بالفساد[2] خلالها، وكانت كلها قرى متصلة.

وفي كتاب سرح العيون وأيضا في كتاب اتحاف أهل الزمان : حكى بعض المؤرخين عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم أنه قال :

1. عضد الشجرة عضدا معناه قطعها بالمعضد. والمعضد جمعه معاضد : آلة مثل المنجل لقطع الأشجار والعضيد جمعه عضدان هو ما قطع من الشجر.
2. إن سياسة التخريب التي سلكتها الكاهنة قد تسببت في إيجاد موجة من الاستنكار سواء من طرف البربر أو من طرف الروم الذين كانوا معها ولعل هذا الاستنكار أحدث جوا مساعدا للعرب على التقدم أكثر. وقد بلغت سياسة التخريب هذه منطقة الصحراء وسوف أيضا فعمد بربر المنطقة بدورهم إلى عضد الشجر وهدم المباني.

كانت إفريقية من طنجة إلى طرابلس ظلا واحدا وقرى متصلة عامرة فخربت جميع ذلك الكاهنة ... الخ.

أقول: ومن ذلك الوقت بقيت سوف كغيرها خرابا لا بناء فيها إلا ما تهدم.

ثم رجع حسان إلى الكاهنة بمن انضم إليه وفي ذلك الحين قد أطلقت الأسارى إلا واحدا اسمه خالد فآخت[1] بينه وبين ولديها وقالت لهم إني لا شك مقتولة وذلك لأنها رأت في المنام كأنها تنظر إلى رأسها يركض به إلى ناحية المشرق. ثم أمرت ابنيها وخالدا بأن يمضوا إلى حسان ويستأمنوه فتوجهوا إلى حسان وأعلموه بالخبر.

ثم تقدم حسان حتى التقى بها واقتتلا قتالا عظيما حتى انهزمت الكاهنة وتبعها حسان وقتلها بمكان يعرف ببئر الكاهنة الآن[2] وبعث برأسها إلى عبد الملك.

وعقد حسان لولدي الكاهنة على اثني عشر ألفا من البربر الذين أسلموا وبعثهم إلى المغرب يجاهدون في سبيل الله وذلك عام 84 هـ-سنة 703 م.

وبقي البربر مع بعض الروم المختلطين بهم جوالة في الآفاق لا يرتعون في محل معين ولا ينسبون إلى بلدة خاصة.

ثم تجدد عمران قسطيلة والزاب وغيرهما وبقيت أماكن سوف على حالتها السالفة من الخراب والاضمحلال. والله أعلم.

1. أعجبت الكاهنة بشجاعة خالد بن يزيد وطيب أخلاقه فعمدت إلى عملية المؤاخاة بينه وبين ولديها الاثنين وذلك بأن حللت كمية من دقيق الشعير في الزيت ووضعته على ثدييها ثم دعت خالدا وولديها لأكله معا من على الثديين وبذلك أصبحوا الثلاثة إخوة من الرضاع حسب تقاليد البربر في ذلك العهد.
2. يسمى المكان بئر الكاهنة وشهر الآن ببئر العاطر أو العاتر. ويقال له أيضا بئر حسان.

مرور العـــرب بـــسوف[1]

في حدود عام 88 هـ–سنة 708 م، سمع البربر ومن معهم بتولية موسى ابن نصير[2] وكان ولاه عبد الملك بن مروان عاملا على إفريقية ففروا إلى المغرب فتبعهم حتى بلغ السوس الأدنى فاستأمنه البربر فأمنهم وولى عليهم واليا واستعمل على بلاد طنجة طارق بن زياد وبه سمى جبل طارق. وترك معه سبعة عشر ألف فارس من العرب والبربر ثم رجع إلى إفريقية.

قال صاحب فتوح إفريقية : "ثم استثقلت بعض الأعراب بالمغرب الحكم فرجعوا إلى إفريقية بعد أن كانوا عازمين على التعمق في الصحاري حتى لا يراهم احد، فدخلوا قسطيلة بعدما أطالوا الإقامة دونها (في ارض سوف) يترددون بين الإقدام والإحجام".

1. المقصود بقوله العرب هنا هم الذين قدموا من إفريقية مع الجنود الفاتحين او المهاجرين الفرديين.

2. ولي موسى بن نصير عاملا على إفريقية خلفا لحسان بن النعمان فبعد أن كان هذا الأخير عاملا على إفريقية إثر انتصاره وقتله للكاهنة عمد إلى عزله عبد العزيز ابن مروان والي مصر وأخوه الخليفة عبد الملك بن مروان. وذلك أن عبد العزيز المذكور كان يرغب كثيرا في تولية موسى بن نصير على إفريقية بدلا من حسان وقد تم له ما أراد رغم مشيئة أخيه الخليفة عبد الملك وذلك سنة (86 هـ–706 م). وحينما قدم موسى بين نصير إلى إفريقية وجه اهتمامه إلى إخضاع البربر فحارب قبائلهم وفتح بلدانهم من القيروان إلى المغرب.

وفي السنة المذكورة توفي الخليفة عبد الملك بن مروان. وفي سنة (92 هـ– 711 م) اتجه طارق بن زياد بجيش من العرب والبربر إلى فتح الأندلس فافتتحها.

وفي سنة (98 هـ– 716 م)، كانت وفاة موسى بن نصير وخلفه على إفريقية محمد ابن يزيد.

وحسب قول القدماء وعلى ما أظن أن هؤلاء العرب هم الذين بلغنا عنهم أنهم نزلوا بنواحي سندروس قبلة عميش ووقعت لهم مناوشات خفيفة مع البربر الذين كانوا بادية رحالة لا يستقر لهم قرار بمحل معين. والله أعلم.

انتقال العرب من الحجاز إلى مصر

كانت العرب[1] في مساقط رؤوسها بالمشرق أي بجزيرة العرب فضاق عليهم المجال لكثرة التناسل. فأراد بعضهم الخروج منها والعيش مع القبط والبربر وغيرهم بأرض مصر.

فأول من انتقل من هناك بغض طرود وبقي معظكهم بالحجاز والشام واليمن. وكان ذلك الانتقال حوالي (90 هـ-709 م)، ولا زالوا سائرين حتى وصلوا مصر فنزلوها وأعجبهم أرضها فاستوطنوها وتغلبوا على من

1. يقصد بقوله العرب هنا القبائل التي هاجرت إلى مصر بعد فتحها من طرف المسلمين. وهذه القبائل هي طرود وعدوان وبنو هلال وسليم الذين قدموا فيما بعد من مصر إلى إفريقية ثم إلى أرض سوف ونواحيها. أما العرب الفاتحون فقد كانوا بمصر منذ خلافة عمر بن الخطاب الذي أذن لعمرو بن العاص بفتح مصر ففتحها سنة (19 هـ-641 م)، كانت أصل تلك القبائل من معد بن عدنان. ومقرهم بين الحجاز ونجد. وكانوا بعد الفتح الإسلامي لأرض مصر يتوافدون عليها قصد استيطانها ولما ظهرت حركة القرامطة المنتمين للشعية الإسماعيلية بالجزيرة العربية انضمت قبائل منها إلى هذه الحركة وناصروها. وفي عهد الخليفة الفاطمي العزيز يالله، وجه الخليفة المذكور حملة ضد هذه القبائل العربية وأجبرها على مغادرة وطنها الأصلي والهجرة إلى مصر. فأنزلوا بأرض الصعيد إلى أن استعملهم الخليفة المنتصر سنة 1050 م أداة انتقام من أمراء صنهاجة بإفريقية كما سياتي. نستخلص مما ذكر أن هذه القبائل العربية بدأت تتوافد على أرض مصر غداة الفتح الإسلامي لها فوجا إثر فوج، ومعظمها لم يستقر بل يرتحل عن مصر تارة ويعود إليها تارة أخرة. حتى كانت سنة 980 م فاضطروا للهجرة إلى مصر بصفة جماعية والبقاء بها.

كان بها من القبط والبربر فصارت الرئاسة لهم. ولم يلحقهم غيرهم من بقية العرب حتى أفضت الرئاسة إلى الوليد بن رفاعة الفهمي الطرودي فبعث إلى كثير من بني عمه عدوان فأتوا واستوطنوا معهم هناك.

ورد في تاريخ ابن خلكان والمقريزي في تاريخ الخطط : قال الكندي : وفي ولاية الوليد بن رفاعة الفهمي بفتح الفاء وسكون الهاء أي الطرودي على مصر في عام 109 هـ. ولم يكن بها أحد من العرب قبل ذلك إلا ما كان من فهم وعدوان فوفد ابن الحبحاب على هشام بن عبد الملك فسأله أن ينقل إلى مصر منهم أي من العرب أبياتا فأذن له هشام في لحاق ثلاثة آلاف منهم وتحويل ديوانهم إلى مصر وأن لا ينزلهم بالفسطاط. فاستقدمهم ابن الحبحاب وأنزلهم الحرف الشرقي.

ويقال إن عبيد الله بن الحبحاب قال لمولاه هشام : ما أرى لقيس فيها حظ (أي في مصر) إلا لأناس من جديلة (وهم فهم وعدوان) فكتب إلى هشام : "إن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه قد شرف هذا الحي من قيس ونعشهم ورفع ذكرهم وإني قدمت مصر ولم أر حظا إلا أبياتا من فهم وفيها كور ليس فيها أحد وليس يضر بأهلها نزولهم معهم ولا يكسر ذلك خراجا فإن رأى أمير المؤمنين أن ينزلها هذا الحي (أي بلبيس) من قيس فليفعل". فكتب إليه هشام : "أنت ذاك".

فبعث إلى البادية فقدم عليه مائة أهل بيت من بني مضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ومائة أهل بيت من بني سليم فأنزلهم بلبيس وأمرهم بالزرع وأعطاهم نصيبا

من أموال الزكاة فاشتروا إبلا وصاروا يحملون البضائع والمؤن إلى القلزم فكان الرجل منهم يصيب في الشهر العشرة دنانير وأكثره ثم صاروا يشترون المهور فلا يمكث المهر أكثر من شهر حتى يكون صالحا للركوب. وليس عليهم مؤونة في علف إبلهم وخللهم لجودة مرعاهم.

فلما بلغ ذلك بقية قومهم تحاملوا إليهم والتحقوا بهم فوصل إليهم خمسمائة أهل بيت من البادية فكانوا مثل ذلك وبعد سنة أتاهم نحو الخمسمائة أهل بيت فصار في بلبيس نحو ألف وخمسمائة أهل بيت من قيس حتى إذا كان زمن مروان وبها ثلاثة آلاف من أهل بيت. ثم توالدوا وقدم عليهم من البادية من قدم.

ثم خرجوا من مصر إلى نواحيها حوالي عام (129 هـ-747 م)، ثم رجعوا إلى مصر ولازموها إلى أن قدموا إلى المغرب كما سيأتي إن شاء الله. وكان رجوعهم إلى مصر حوالي (369 هـ-980 م)، والله أعلم.

مرور العلويين بسوف

من العرب الأوائل الذين انتقلوا من المشرق إلى المغرب العلويون ومن تشيع لهم. وذلك أن الرشيد وقعت له عداوة عظيمة مع العلويين يطول تفصيلهاه بسبب ما وقع لهم مع أبيه محمد الهادي حين أراد أن يمكر بهم وأرسل جماعة خفية ليقتلوا أشرافهم فتفطن العلويون لذلك وقتلوا من أراد خديعتهم فتكاثرت عليهم أقوام بني العباس ووقع القتل في الفريقين فصارت تلك الواقعة تسمى معركة فخ[1] لأنه اسم من أضرم النار بين الجميع أو اسم الموضع الذي وقعت فيه المعركة.

1. عن كتاب البيان المغرب في أخبار المغرب، ذكر العذري وغيره أن إدريس وسليمان ابني عبد الله بن حسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم فروا من الواقعة التي كانت في أيام جعفر المنصور وهي واقعة فخ وكانوا ستة إخوة : إدريس، وسليمان، ومحمد، وإبراهيم، وعيسى، ويحي. أما محمد فخرج إلى الحجاز وقتل، وأما إبراهيم فقام بالبصرة من العراق فقتل ايام المنصور، وأما يحي فقام في الديلم في خلافة الرشيد وهبط على الأمان ثم سم ومات، وأما إدريس ففر إلى المغرب ودخل إليه من الطالبيين في إيامه إخوة سليمان فاحتل بتلمسان، وداود بن القاسم بن إسحاق بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، ثم رجع داود إلى المشرق وبقيت ذريته بالمغرب. واحتل إدريس بن عبد الله بالمغرب سنة 170 هـ واستوطن وليلى وكانت أزلية وكان وصوله مع مولاه راشد ثم نزل إسحاق بن عبد الحميد سنة 172 هـ فقدمه قبائل البربر وأطاعوه وبلغ خبره هارون الرشيد، فدس إليه من سممه وكان المدسوس إليه رجل يقال له الشماخ فسمه وهرب إلى المشرق. ومات إدريس في سنة 175 هـ فقام بأمر البربر مولاه راشد وترك إدريس جارية بربرية اسمها كنزة فولدت له غلاما سمي باسم أبيه، فولى إدريس بن إدريس سنة 187 هـ وهو ابن احدى عشرة سنة، وقيل أكثر من ذلك.

قال صاحب الخلاصة النقية في أمراء إفريقية : "وكان الرشيد عمال بإفريقية وكان جميع هؤلاء العمال يبغضون العلويين تبعا لبني العباس إلا عامل الإسكندرية فإنه كان محبا لهم ويراسلهم بالمكاتيب خفية ويطلعهم على أخبار العباسيين بقدر الطاقة والإمكان".

ثم كثر الهرج والنزاع، فخرج إدريس الأكبر بمن معه من الشام والحجاز ومصر وقصد بعضهم طبرستان واستوطنها وقصد بعضهم الآخر المغرب وهم الذين معهم إدريس.

قال ابن خلدون : "كانت لإدريس الأكبر عداوة مع بني العباس بالشام وبني الأغلب عمالهم بإفريقية وولائهم وذلك لما فر إدريس من واقعة فخ، أوعز الرشيد إلى الأغالبة أن يقعدوا له بالمرصاد ويذروا عليه العيون فلم يظفروا به، وخلص إلى المغرب فتم أمره وظهرت دعوته".

واطلع الرشيد بعد ذلك على ما كان من واضح مولاهم وعاملهم على الإسكندرية من دسيسة التشجيع للعلويين ومساعدته على نجاة إدريس إلى المغرب ودس (بعث خفية) الشماخ من موالي الهادي أبيه للتحيل على قتل إدريس فأظهر الشماخ اللحاق به والبراءة من بني العباس مواليه فقربه إدريس وصيره من جملة خواصه المقربين حتى ناوله الشماخ في بعض خلواته سما استهلكه به فمات رحمة الله عليه وترك زوجته حاملا فولدت إدريس الأصغر ومنه ذريته الذين بفاس الآن، ووقع خبر مهلكته من بني العباس أحسن المواقع وذلك لما رجوه من قطع أسباب الدعوة العلوية بالمغرب. ثم إن الدعوة قد ظهرت

ودولة البربر في المغرب بإدريس بن إدريس قد تجددت وكان الفشل قد نزل بدولة المغرب إلى القاصية فلم يكن منتهى قدرة الرشيد على إدريس الأكبر بمكانه من قاصية المغرب واشتمال البربر عليه إلا التحيل في إهلاكه بالسم فعند ذلك فزعوا إلى أوليائهم من الأغالبة بإفريقية لسد تلك الفرجة من ناحيتهم يخاطبهم بذلك المأمون ومن بعده من خلفائهم فكان الأغالبة على برابرة المغرب الأقصى أعجز، فخشي هؤلاء الأمراء الأغالبة بوادر السعايات وتلوا بالمعاذير، فطورا باحتقار المغرب وأهله وطورا بالإرهاب بشأن إدريس الخارج به ومن قام مقامه من أعقابه، يخاطبونهم بجهة حدود التخوم من عمله أن يتجاوزها وينفذون سكته في تحفهم وهداياهم ومرتفع جباياتهم تعريضا باستفحاله وتهويلا باشتداد شوكته وتعظيما لما دفعوا إليه من مطالبه ومراسه وتهديدا بقلب الدعوة أن ألجؤوا إليه، الخ ...

قال القدماء : في حال مرور العلويين من المشرق إلى المغرب أتوا على طرابلس كما في تاريخها وذلك في عام 190 هـ- سنة 807 م.

أقول وهذا خطأ[1] من قائله إلى أن يكون ذلك تاريخ جماعة آخرين لحقوا بالأولين ويرجع هذا ما نقل أن المتشيعين للعلويين تلاحقوا في مرات عديدة لكن لم يظهر مرورهم على أي محل والمظنون أن بعضهم مر بتراب سوف القبلي لما حكي أنهم مروا مروا بورقلة فإن صح ذلك

1. كان اعتراض المؤلف في محله. أبي إلا أن يكون ذلك التاريخ تاريخ جماعة آخرين كما قال لأن وصول إدريس ومن معه إلى المغرب كان سنة (170 هـ-787 م).

نتيقن بمرورهم هنا، وأما الحماعة الذين خرجوا مع إدريس فكانوا قبل ذلك التاريخ بكثير ويذكر بعض أوائلنا أن العلويين حين مروا بهذه الأرض نزلوا بنواحي سندروس لحسن أرضها وكثرة أشجارها ثم بعد زمن لحق بهم جماعة آخرون وارتحلوا جميعا، وكانت الأرض يتردد عليها بعض البربر ومن معهم من الأحلاف والموالي فالتقوا بالعلويين المتخلفين فنازعوهم.

أقول : وفي ذلك الزمن نضب ماء وادي الجبل[1] لتفلته في مواضع عديدة حتى لازم الجريان مشرقا بانحراف إلى القبلة، وإلى الآن أصله موجود يسمى وادي تاقرارت لأنه يمر بعريش تاقرارت ثم يلتفت شرقا قبلة إذا كثرت المياه وإذا قلت قد يتشتت هناك كما أن وادي النازية اختلط أسفله بوادي الجبل فصار يجري في مجراه وترك محل جريانه الأول. والله أعلم.

1. كان المؤلف يتحدث عن العلويين طبقا للموضوع فانتقل أخيرا إلى الكلام عن وادي الجبل ووادي النازية. فقد يلمس القارئ هذه الخاصية عند المؤلف في كتابته إذ يجده يستطرد قليلا أو كثيرا كلما واتته المناسبة لإقحام ما يروق له إقحامه من مسائل علمية أو احتماعية أو أدبية أو غيرها، قد تحول القارئ نوعا ما عن صميم الموضوع.

تذييل[1]

قال أبو العباس : "في عام 196 هـ –سنة 812 م، كان إبراهيم بن الأغلب عاملا على الزاب لبني العباس ووقعت له وقائع مع البربر ومن

1. قدم المؤلف هذا التذييل بمناسبة موضوع العلويين وفرار إدريس الأول ومن معه إلى المغرب الأقصى لأن هذا الحادث كان في عهد خلافة اميرالمؤمنين هارون الرشيد العباسي وقد برزت في نفس العهد مرة اخرى الحركة الدينية التي تتنافى والإسلام وقام بمحاربتها إبراهيم بن الأغلب عامل هارون الرشيد بإفريقية. وحركة الارتداد عن الإسلام هذه كان قد تزعمها في عهد هشام بن عبد الملك ما بين 740 و 724 م شخص يدعى طريف، قيل : إنه يهودي الأصل من سلالة شمعون بن إسحاق، فقد قام طريف المذكور يدعو إلى نفسه في بعض بلاد البربر فبايعوه.

وشرع لهم دينا جديدا فآمنوا به.وبعد موته خلفه في ذلك ابنه صالح بن طريف، ثم إلياس بن صالح حتى كانت سنة 790 م، زمن الدولة العباسية وخلافة الرشيد حيث جرت وقائع بين عامله بإفريقية إبراهيم بن الأغلب والمتمسكين بدين صالح بن طريف المذكور. أما إبراهيم بن الأغلب فقد كان بادئ الأمرعاملا للدولة العباسية بالزاب وقسطيلة (الجريد) وما والاهما بينما كان الوالي على سائر إفريقية هو المسمى ابن العكى. ثم عزل هذا الأخير وعين الرشيد مكانه إبراهيم بن الأغلب حوالي سنة 800 م. ومنها اتفق إبراهيم المذكور مع الخليفة العباسي على تأسيس الدولة الأغلبية بإفريقية تحت وصاية الخلافة العباسية لحمايتها من العلويين (الأدارسة) فدخل إبراهيم بن الأغلب مدينة القيروان سنة (184 هـ–800 م) وبنى قصره الذي هو على ثلاثة أميال من القيروان سنة (185 هـ –801 م) والذي صار فيما بعد دار أمراء بني الأغلب. وهكذا بتأسيس الدولة الأغلبية بإفريقية أصبح ببلاد المغرب ثلاث دول متجاورة (دولة الأغالبة بتونس والرستمية بالجزائر والإدريسية بالمغرب الأقصى)، إلى أن قامت الدعوة الفاطمية التي تزعمها أبو محمد عبيد الله بن محمد وبويع بالإمامة سنة (297 هـ–910 م)، وبذلك تأسست الدولة الفاطمية.

بعضهم الذين بتراب سوف وقسطيلة وقفصة وغيرها، وفر أكثر أصحاب تلك النواحي إلى الصحراء القبلية اختفاء عنه، وكان اكثرهم متدينا بدين الروم الذين خالطوهم. وبعضهم متدين بدين صالح بن طريف المدعي النبوة زمن هشام بن عبد الملك والذي شرع لهم دينا خبيثا وسننا سخيفة".

وقال صاحب المؤنس في تاريخ إفريقية وتونس : "انتشر صيت صالح المذكور وعمت شعوذته غالب إفريقية وأكثر متبعية من القيروان إلى بني غواطة الأغواط وكانت تلك الدعوة عام (122 هـ - 740 م)".

أقول إن في الكلام الأول وهو لأبي العباس خطأ من وجهين : الأول أن السنة التي ذكرها كان مات فيها إبراهيم المزبور الثاني أن إبراهيم بن الأغلب قبل موته لم يكن عاملا على الزاب فقط بل صار على إفريقية تماما ومسكنه في قصره الذي بناه على ثلاثة أميال من القيروان وسماه العباسية، وأن تلك الوقائع كانت في السنة التي قبل ذلك كما هو في الخلاصة النقية في أمراء إفريقية وغيره.

ثم قام بعد إبراهيم ابنه عبد الله بن ابراهيم بن الأغلب بن سالم بن عقال ابن خفاجة بن سوادة التميمي عام 196هـ -سنة 812 م. وفعل كأبيه أو أشدّ ففر البرابرة منه وأكثرهم سكن الرمال القبلية وبعضهم جنح إلى المهادنة والمداهنة والمصانعة ظاهرا مع إخفاء دينهم أي دين صالح. والله اعلم بذلك ثم صفا الدين وتمكن منهم الإسلام.

قال ابن خلدون : "وفي أيام داود بن يزيد بن حاتم المهبلي وروح بن حاتم انخضدت شوكة البربر والإباضية واستكانوا للغلب وأطاعوا للدين فضرب الإسلام بجرابه وألقت الدولة المضرية على البربر ومن معهم بكلكلها إلى أن انقرضت عام (296 هـ) ست وتسعين ومائتين على يد الصنعاني الداعي للشيعة وذلك سنة 999 م".

أقول : ومن ذلك الوقت ساد واستفحل مذهب الشيعة وعم سائر إفريقية على أن كانت دولة المعز بن باديس المتولي عام 406 هـ-سنة 1016 م).

قال صاحب الخلاصة النقية : "فمحا (أي المعز بن باديس) شعائر الشيعة وعطل مذهبهم الذي بثه داعيهم عام 196 هـ وأظهر مذهب أهل السنة والاقتصار على مذهب الإمام مالك".

قيل : إن ذلك كان في المدن الخاضعة أتم خضوع للسلطان والحكم أما الجانحون عن ذلك البعيدون عن الأحكام فلم يتمكن منهم غاية التمكن. والله أعلم.

دخول بني علال وسليم إلى إفريقية

قال صاحب المؤنس في تاريخ إفريقية وتونس : "في أيام المعز بن باديس خرج غالب البلاد عن طاعته وكثر عليه المخالفون وخالفت سوسة وقفصة وصفاقس وباجة وخرج جل البلاد الغربية وفي أيامه كان ظهور المتونة ببلاد المغرب واستولوا على جميعها. وفي أيامه جاءت العرب[1] من المشرق وسكنوا بإفريقية".

وسبب دخول العرب إلى إفريقية أن المعز بن باديس لما قطع[2] خطبة صاحب مصر وهو المستنصر بالله كان يسب بني عبيد سرا إلى أن صرح بذلك على المنابر. وكان يكاتب وزير المستنصر ويستميله ويعرض له بالتحريف عليهم وإنما يكتب له تلويحا لا تصريحا. وكتب إليه قطعة بخط يده وتمثل فيها ببيت الشعر وهو :

وفيك صاحبت قوما لا خلاق لهم   لولاك ما كنت أدري أنهم خلقوا

1. مقصوده من العرب هنا بنو هلال وسليم.
2. ورد في كتاب البيان المغرب ما يلي لما رحل بنو عبيد إلى مصر لم تزل ملوك صنهاجة يخطبون لهم بإفريقية ويذكرون أسماءهم على المنابر. وتمادى الأمر على ذلك حتى قطع أهل القيروان صلاة الجمعة فرارا من دعوتهم وتبديعا لأقامتها بأسمائهم فكان بعضهم إذا بلغ إلى المسجد قال سرا : "اللهم اشهد، اللهم اشهد" ثم ينصرف يصلي ظهرا أربعا إلى أن تناهى الحال حتى لم يحضر الجمعة من أهل القيروان أحد فتعطلت الجمعة دهرا. وأقام ذلك مدة إلى أن رأى المعز بن باديس قطع دعوتهم (رأى دعوة بني عبيد) فكان بالقيروان لذلك سرور عظيم).

فقال لبعض أصحابه : "ألا تعجبون من صبي بربري مغربي يحب أن يخدع شيخا عربيا عراقيا وإنما أراد المعز أن يوقع بين الوزير وخليفته الشر".

ولما خلع طاعة بني عبيد وجاءته الخلعة من بغداد أشار الوزير على المستنصر العبيدي بإرسال العرب (بني هلال وسليم).

قال ابن خلدون : "كانت بطون هلال وسليم من مضر لم يزالوا بادين ناجعة ففي دولة العباسيين كان بعضهم محلاتهم من بعد الحجاز بنجد فبنو سليم مما يلي المدينة وبنو هلال في جبل غزوان عند الطائف وربما كانوا يطوفون رحلة الصيف والشتاء أطراف العراق والشام ... الخ".

ثم تحيز[1] بنو سليم والكثير من ربيعة بن عامر إلى القرامطة عند ظهورهم وصاروا جندا بالبحرين وعمان. ولما تغلبت شيعة ابن عبيد الله المهدي على مصر والشام وكان القرامطة قد تغلبوا على مصر والشام فانتزعها العزيز منهم وغلبهم عليها وردهم على أعقابهم إلى قرارهم بالبحرين. ونقل أشياعهم من العرب من بني هلال وسليم فأنزلهم بالصعيد وفي العدوة الشرقية من بحر النيل فأقاموا هناك وكان لهم أضرار بالبلاد. وكان أحياء هلال من هؤلاء من جشم والأثير ورعبة ورياح وربيعة وعدى في محلاتهم بالصعيد كما ذكرنا وقد عم

1. المتحيزون من هلال وسليم إلى الحركة المذكورة هم الذين لم يزالوا إذذاك منهم بالجزيرة العربية ولم يهاجروا بعد إلى أي أرض مصر مثل غيرهم من إخوانهم لكن اضطروا اخيرا بأمر العزيز بالله الفاطمي لمغادرة الجزيرة العربية والالتحاق بمن سبقوهم إلى الصعيد المصري، حتى كانت سنة 1050 م، تاريخ حملتهم على إفريقية.

ضررهم فأشار الوزير أبو محمد الحسن بن علي اليازوري باصطناعهم والتقدم لمشايخهم وتوليتهم أعمال إفريقية وتقليدهم أمرها ليكونوا عند نصرة الشيعة في الدفاع عن الدولة والوطن.

فبعث المنتصر وزيره إلى هؤلاء الأحياء عام 442 هـ-سنة 1048 م. وأرضخ لأمرائهم في العطاء ووصل عامتهم بعيرا ودينارا لكل واحد منهم وأباحهم إجازة النيل وقال لهم : "قد أعطيتكم المغرب والمعز بن بلكين الصنهاجي فلا تفتقرون".

وكتب اليازوري إلى المغرب : "أما بعد فقد أنفذنا إليكم خيولا فحولا وأرسلنا عليها رجالا كهولا ليقضي الله أمرا كان مفعولا". فطمعت العرب إذاك وأجازوا النيل إلى برقة ونزلوا بها وافتتحوا أمصارها وكتبوا لأخوانهم الذين شرقي النيل يرغبونهم في البلاد[1]. فطلبوا من الخليفة اللحاق بمن تقدمهم فمنعهم من ذلك إلا إذا أعطوه شيئا من أموالهم فأعطى كل منهم دينارين فأخذ الخليفة منهم أضعاف ما أخذوه، وتقارعوا البلاد فحصل لسليم الشرق ولهلال الغرب. وخربوا المدينة وجدابية وسمرا وسرت.

وأمامه لهب من سليم وأحلافها رواحة وناصرة وعمرة بأرض برقة.

1. ذكر بعض المؤرخين أن كثيرا من بني هلال وسليم لم يغادروا مصر عند هذه الحملة على إفريقية بل منهم من آثر البقاء بالصعيد ومنهم من انتقل إلى سواه من المناطق المصرية ومنهم غادرها مؤخرا للالتحاق بالسابقين إلى ليبيا وإفريقية. كما أن بني سليم تأخروا بطرابلس أي لم يدخلوا إفريقية صحبة الحملة الهلالية بل تأخروا حينا من الزمن.

وسارت قبائل ذياب وعوف وزغب وجميع بطون هلال إلى إفريقية كالجراد المنتشر حتى وصلوها عام 444 هـ- سنة 1050 م.

وكان أول من وصل أمير رياح موسى[1] بن يحي الصنبري، فاستماله المعز واستخلصه لنفسه وأصهر إليه وألزمه على استدعاء العرب من قاصية وطنه للاستغلاظ على بني عمه[2] فاستنفر القرى وأتى عليهم فاستدعاهم لكنهم أبوا فعاثوا في البلاد وأظهروا الفساد ونادوا بشعار الخليفة المستنصر. فتمخط المعز بكبره وأشاط بغضبه وتقيض على أخي موسى وعسكر بظاهر القيروان وبعث بالتصريح إلى ابن عمه صاحب القلعة القائد ابن حامد بن بلكين فكتب إليه كتيبة من ألف فارس

1. قيل : يسمى موسى بن يحي وقيل مؤنس بن يحي.
2. ورد في كتاب بيان المغرب ما نصه: ثم قدم منهم مؤنس بن يحي الرياحي على المغرب. وكان المعز كارها لأخوانه صنهاجة محبا للاستبدال بهم حاقدا عليهم ولم يكن يظهر ذلك لهم فلطف عنده محل مؤنس هذا. وكان سيدا في قومه شجاعا عاقلا فشاوره المعز في اتخاذ بني عمه رياح جندا. فأشار عليه بأن لا يفعل ذلك وعرفه بقلة اجتماع القوم على الكلمة وعدم انقيادهم إلى الطاعة فألح عليه في ذلك إلى أن قال له لمعز : إنما تريد انفرادك حسدا منك لقومك فعزم مؤنس على الخروج إليهم بعدما قدم العذر وأشهد بعض رجال السلطان ثم رحل متوجها نحوهم فنادى في القوم وحشدهم ووعدهم وغبطهم ووصف لهم كرامة السلطان والإحسان لهم. ثم قدم في ركب منهم لم يعهدوا نعمة ولا طالعوا حضارة فلما انتهوا إلى قرية تنادوا : هذه القيروان ونهبوها من حينها. ثم ذكر ما نصه "فلما ولرد الخبر على القيروان عظم الأمر على المعز بن باديس وقال : إنما فعل مؤنس هذا ليصحح قوله ويظهر نصحه فأمر بثقاف أولاده وعياله وختم على داره حتى يعلم ما يكون أمره. فلما بلغ مؤنسا ما فعل بأهله وولده اشتدت نكايته وعظم بلاؤه ...الخ".

وسرحهم إليه واستفز قوم زناتة فوصل إليه المستنصر بن خرور المغزاوي في ألف فارس من قومه وكانوا بالبدو من إفريقية مع النازعة من زناتة. وارتحل المقرف في أولئك النفر ومن معهم من الأتباع والحشم والأولياء ومن إيالتهم من بقايا عرب الفتح وحشد زناتة والبربر وصمد بهم نحوهم في أمم لا تحصى يقال إن عددهم ثلاثون ألفا. ولما تزاحف الفريقان انخذل بقية عرب الفتح وتميزوا إلى الهلاليين للعصبية القديمة. وخانته زناتة صنهاجة.

قال صاحب كتاب المؤنس : "حتى لم يبق معه إلا عبيده وكان عدد العبيد عشرين ألفا وثبت المعز ثباتا لم يثبته أمير هزم جيشه". وآخر الحال انهزم ورجع إلى المنصورية. وأقبل العرب حتى نزلوا بأزاء القيروان واقتتلوا بين رقادة والقيروان ومات بين الفريقين خلق عظيم. قال ابن خلدون : "وفر المعز بنفسه وخاصته إلى القيروان وانتهبت العرب جميع محله من المال والمتاع والذخيرة والفساطيط والرايات"[1] .

---

1. من المؤرخين من نراهم عند تعرضهم لغزو بني هلال كثيرا ما يندّدون بفعال هؤلاء القوم المتمثلة في القتل والتخريب وما إلى ذلك دون التعرض مقابل ذلك إلى محاسنهم حتى أصبح الإنسان لا يتصور في شخص بني هلال سوى الوحشية في أبشع صورها في حين أن ما سبقهم به الفندال من فعال لا تقل بشاعة ورغم ذلك نرى بعض المؤرخين الأجانب مثل الدكتور مارشان والأستاذ بونفان يحاولان في كتابهما "تاريخ الجزائر وفرنسا" التخفيف ما أمكن مما نسب للفندال. ولم يهمل الأستاذ توفيق المدني هذا الجانب بالنسبة لبني هلال في كتابه القيم : "كتاب الجزائر" حيث يقول ما نصه : وهكذا توافدت جموع هلال بن عامر وسليم بن منصور. فكان قدومهم نقمة في طيها نعمة لأن

ويروى أن الذين قتلوا من صنهاجة ثلاثة آلاف وثلاثمائة. وفي ذلك يقول ابن رزق الرباحي كلمته ويقال إنها لابن شداد الفهمي الطرودي :

لقد زار وهنا أميم خيال   وأيدي المطايا بالزميم عجال
وأن ابن باديس لأفضل حازم   لعمري ولكن ما لديه رجال
ثلاثون ألفا منهم هزمتهمو   ثلاثة آلاف وذاك ضلال

قال صاحب المؤنس : "ولما رأى المعز ما حل به ركن إلى الصلح ورفع الحرب بينه وبين العرب وأباحهم دخول القيروان ليشتروا منها ما يحتاجون إليه. وظن أنهم يرجعون إلى بلادهم فلم يغن عنه ذلك وملكوا البلاد بأسراها واقتسموا برابرها وأفسدوا حواضرها وكان الخطب جليلا فلما رأى المعز كثرة ضررهم وعجزه عن دفع آذاهم رحل إلى المهدية وبها حشمه وكان ولده تميم واليا عليها".

قال ابن خلدون : وكانت قسمة إفريقية بين العرب، فكان لزغبة طرابلس وما يليها ولمرداس بن رباح باجة وما يليها. ثم اقتسموا البلاد ثانيا فكان لهلال من تونس إلى المغرب وهم : رياح وزغبة والمعقل وجشم وقرة والأثبج والخلط وسفيان".

... قدومهم أوقع في بادئ الأمر اضطرابا في البلاد كان يقع مثله وأشنع منه مئات المرات في كل بلاد الدنيا عندما تقع هذه المهاجرات الشعبية الكبيرة إلا أنه قد وطد توطيدا أبديا قدم الإسلام والعربية في هذه الأوطان وجعل من بلاد الشمال الإفريقي موطنا جديدا للثقافة العربية يزدهر مع ازدهار العام ويركد مع ركودها. اما العرب الذين قدموا قبل ذلك سواء أكانوا من الجند الفاتح المستوطن أو من المهاجرين الفرديين فقد كان عددهم ضئيلا جدا لا يكفي لصبغ البلاد صبغة عربية تامة ...

قال صاحب المؤنس : "وخرج المعز في شهر رمضان عام 449 هـ ونهبت العرب القيروان وكان ذلك سبب خرابها وجلاء أهلها عنها".

وقال ابن خلدون : "ثم حاربوا زناتة بعد صنهاجة وغلبوهم على الضواحي واتصلت الفتنة بينهم وأغزاهم صاحب تلمسان فهزموه وقتلوه بعد حروب طويلة ...".

وكانت رئاسة الضواحي من زناتة والبربر لبني يفرق ومغراوة وبني صاند وبني تلومان أو تلمين. ولم يزل هذا دأب العرب وزناتة حتى غلبوهم على الضواحي أي ضواحي إفريقية والزاب وما حوله.

وكان في هؤلاء العرب عند دخولهم إفريقية رجالات مذكورون منهم حسن ابن سرحان وأخوه بدر وفاضل بن ناهض وينسبون هؤلاء إلى دريد بن الأثبج. ومنه شاقة بن الأحيمر وأخوه صلصيل ونسبوهم إلى بني عطية بن كرفة بن الأثبج. وذياب بن غانم وينسبونه إلى بني ثور. وموسى بن يحي وينسبونه في مرداس رياح ألمرداس سليم وهو من بني صفير بطن مرداس رياح. وزيد بن زيدان وينسبونه إلى الضحاك.

ومليحان بن عباس وينسبونه إلى حمير. وزيد العجاج بن فاضل ويزعمون أنه مات بالحجاز قبل دخول العرب إلى إفريقية. وفارس بن أبي الغيث وعامر أخوه والفضل بن أبي علي ونسبهم أهل الأخبار منهم إلى مرداس وكل هؤلاء يذكرون في أشعارهم.

وكان زياد بن عامر رائدهم أي دليلهم، وتسميه العامة خبيرا إذ الرائد هو الخبير عندهم وذلك وقت دخولهم إفريقية وكانوا يسمونه أبا مخيبر (بو مخيبر). قال القدماء إنه من طرود وهذا متواتر عندهم.

قال ابن خلدون : "وشعوبهم لذلك العهد كما نقلناهم لك سابقا كلهم من هلال بن عامر. وربما ذكر فيهم بن عدي ولا نعرفهم".

أقول مراده أنه لا يعرفهم : دخلوا مع هؤلاء وليس المراد عدم معرفته لنسبهم إذ مثله لا يجهل ذلك. وهم بنو عدي بن آد بن طابخة بن إلياس ابن مضر. ثم قال ابن خلدون : "وكذلك ذكر فيهم ربيعة ولم نعرفهم إلا أن يكونوا هم المعقل. وكان فيهم من غير هلال كثير من فزارة وأشجع من بطون غطفان".

أقول : "أما فزارة فهو ابن بغيض وقيل ابن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. وأما أشجع فهو ابن ريث بن غفطان المذكور.

وزاد ابن خلدون : "وجشم بن بكر بن هوزان بن منصور بن عكرمة بن حفصة بن قيس عيلان بن مضر، وسلول بن مرة بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن ... الخ".

والمعقل من بطون اليمنية (القحطانية) ويقال للمعقل ربيعة بن حمير بن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان. وعمرة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان.

وبنو ثور بن معاوية بن عبادة بن ربيعة البكاء بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان. وعدوان[1] بن عمر بن قيس عيلان. وطرود بن فهم[1] بن عمر بن

1. يعني بقوله عدوان قبيلة عدوان.

قيس عيلان. إلا أن كلهم مندرجون في هلال وفي الأثبج منهم خاصة لأن الرئاسة كانت عند دخولهم للأثبج وهلال فأدخلوا فيهم وصاروا مندرجين في جملتهم. وهناك فرق من هؤلاء الهلاليين لم يكونوا من الذين أجازوا النيل في عهد اليازوي أو الجرجاني وإنما كانوا من قبل ذلك ببرقة أيام الحاكم العبيدي. ومع الهلاليين الشريف بن هاشم وهو شكر بن أبي الفتوح الحسن بن ابي جعفر بن هاشم بن محمد بن موسى بن عبد الله أبي الكرام بن موسى الجون. وقد مات أبو الفتوح حوالي عام (431 هـ-1037 م). ومات شكر حوالي عام (454 هـ-1060 م) وولي ابنه محمد الذي يذكر هؤلاء الهلاليون أنه من الجازية (الزازية) ابنة سرحان.

وقال ابن سعيد إنه من السليمانيين من ولد محمد بن سليمان بن داود بن حسن بن الحسن السبط والذي بايع له أبو الزاب الشيباني بعد ابن طباطبا. ومن مزاعم الهلاليين أن الجازية لما أتت إلى إفريقية وفارقت الشريف خلفه عليها منهم ماضي بن مقرب من رجالات دريد.

وكان المستنصر لما بعثهم إلى إفريقية عقد لرجالاتهم على امصارها وثغورها وقلدهم أعمالها. فعقد لموسى بن يحي المرداسي على القيروان وباجة وعقد لزغبة على طرابلس ولحسن بن سرحان على قسنطينة.

ولما غلبوا صنهاجة اجتهدت زناتة في مدافعتهم وجهز لهم صاحب تلمسان من بني خزرقائده أبا سعيد الفتري فكانت بينهم وبينه حروب إلى أن قتلوه بنواحي الزاب.

---

1. يعني بقوله طرود قبيلة طرود.

وجاء في كتاب "تغريبة بني هلال" أنه مات في الصحراء التي قبلة الزاب (هي أرض سوف) وتغلبوا على الضواحي في كل وجه وعجزت زناتة عن مدافعتهم بإفريقية والزاب وصار الملتحم بينهم في الضواحي بجبل راشد ومصاب من بلاد المغرب الأوسط. وكان أمير رياح فيهم محرز بن زناد بن بادخ إحدى بطون علي بن رياح. وطلبوا من الخليفة ببغداد تجديد العهد لهم وأوفدوا عليه كاتبهم عبد البر بن فرسان فعقد الولاية لابن غانية وأذن له بحرب الموحدين واجتمعت إليه قبائل بني سليم بن منصور وكانوا جاؤوا على إثر الهلاليين عند إجازتهم إلى إفريقية. والله أعلم.

تجدد عمران سوف

بعدما دخل عرب بني هلال وسليم إلى إفريقية[1] انحاز كثير من زناتة إلى تراب سوف لبعده في ذلك الوقت عن القلاقل وتسلط الأحكام ولوجود الماء (وادي الجردانية).

أقول : زناتة هم بنو جانا بن بربر بن تمصيت بن ضريس بن زحيك مادغيس الأبتر بن بربر بن كسلوجيم أو مزيغ بن كنعان بن حال بن نوح عليه السلام. والذين كانوا بأرض سوف منهم طوائف من بني مرين. قال صاحب المؤنس : كان بنو مرين يسكنون بلاد القبلة من زاب إفريقية وينتقلون من مكان إلى مكان وجل أموالهم الإبل والخيل وطعامهم اللحم والتمر. وجاء في كتاب رحلة بني هلال : لم يكن قوم أدرب من بني مرين في ركض الخيل وتعليمها وكانوا في بادئ الأمر بالصحراء (صحراء سوف) كما تقدم.

وبعد أن ذكر كلاما لبني مرين، ساق الأبيات الآتية :

1. لم يستقر أعراب بني هلال وسليم بالبلاد إلا بعد مشقة وعناء شديدين إذ تصدت لمحاربتهم في بادئ الأمر الدولة الصنهاجية بتونس، ثم الدولة الحمادية بالجزائر وقد استطاع هؤلاء الأعراب فرض وجودهم على كلتا الدولتين بعد معارك عديدة. وظل الصراع بين الجانبين من ناحية وفيما بين أنفسهم من ناحية أخرى حتى كان عهد اضطراب احوال العالم الإسلامي شرقا وغربا فتولد عن هذه الظروف إنشاء الدولة الموحدية، فأجلى الموحدون عرب هلال وسليم إلى المغرب.

وأدرب الخلــق بــركض الخيــل وخــوض أحــشاء الفــلا والليــل

بــني مــرين ســادة القبائــل في قطرنــا بواضــح الــدلائل

قاموا وقد بان اختلال الطاعــة بمذهــب السنــة والجمــاعــة

قال صاحب المؤنس : بنو مرين فخذ من زناتة والنسابون مختلفون في نسبهم ولكن يجتمع نسبهم في قيس عيلان وتناكحوا في البربر.

أقول : حيث كان نسبهم يتصل بقيس عيلان فليسوا من البربر بل هم عرب وإنما انتسبوا للبربر لمصاهرتهم معهم.

قال القدماء : أتى إلى سوف قوم من البربر بأهاليهم واستوطنوا الموضع المسمى الآن ضواي روحه (لأنه يرى فيه ضوء من غير فعل فاعل) وكان وقت نزولهم تقريبا عام 522 هـ-سنة 1129 م.

أقول : يعنون بوقت نزولهم وقت ملازمتهم لمحل واحد وإلا فهم نازلون بأرض سوف من قبل هذا الوقت[1] ولكن أكثرهم ينتقلون من محل إلى محل وجعلوا بيوتا من الشعر ومساكن من حطب وحلفاء ثم أقروا القرى.

وكان في أولئك القوم امرأة صالحة أصيلة الرأي والنسب تسمى تك بنت سبت اتفق رأيهم على أن يجعلوها ملكة عليهم تحكم بينهم لما رأوا من رشدها وصلاحها فرضيت بذلك.

1. أما أغلبية نزوح الزناتيين إلى الصحراء وسوف فكان في عهد انحطاط دولة المرابطين فيما بين (1120-1160 م)، عندما انتشرت بها الإقطاعيات وتفاقمت المظالم الاجتماعية بالمدن والقرى. وكان من بين النازحين إلى سوف في تلك الظروف قوم من البربر تتزعمهم امراة صالحة تدعى تك بنت سبت، كانت صاحبة الأمر ببناء بلدة سميت باسمها.

فلما طال مكثهم ببناء قرية ليتمكنوا من الحضارة والتمدن ولما تسامح بهم إخوانهم الذين بجوارهم اتوهم فتعاونوا جميعا في ذلك وجعلوا قرية محكمة مبنية بالطين وأحاطوها بسور عال مخافة من العدو. وقد اختاروا هذا الموضع لبعده عن طرق الشر لأن العساكر كانت تمر من إفريقية إلى المغرب على طريق الزاب.

كان بناء هذه البلدة على الجانب الغربي من الوادي الآتي من الجبل والنازية المنتهي في الموضع المسمى وادي وراغ. ثم غلب اسم الملكة على تلك القرية فصارت تسمى تكسبت (بتاء مثناة فوق مكسورة، فكاف ساكنة فسين مهملة مكسورة، فباء موحدة مكسورة، فتاء مثناة فوق ساكنة).

وفي ابن خلدون ما يفيد أن بلدة بتلك النواحي يقال لها بتكست (بباء موحدة، ثم مثناة فوق، ثم كاف، ثم سين مهملة، ثم تاء مثناة فوق، وذلك من غير ضبط) فلعلها هي وإنما وقع ذلك تحريفا من الناسخ أو المطبعة فإن كثيرا ما توجد بها ألفاظ محرفة خصوصا النسخة التي بين أيدينا أو لعل من نقل له اسمها نقله محرفا خصوصا النسخة التي بين أيدينا أو لعل من نقل له اسمها نقله محرفا فإن هذا يقع كثيرا فقد سمعت بنفسي من يسميها بهذا الاسم أي بتكست وآخر يسميها تكبست (بتاء، فكاف فباء فسين فتاء) كما سمعت رجلا من ذوي العلم بتونس يسمى دقاش التي قرب توزر باسم قداش، وكررها له صحيحة مرات فلم ينقلها وهنا بسوف من يسمى تاغزوت تازغوت، وورماس فرماس إلى غير ذلك[1].

---

1. تشويش حروف الكلمة أو بعبارة أخرى تغيير أماكنها يسمى في اللغة القلب المكاني وهو كثيرا ما يجري على الألسنة وغير مقتصر على الأميين، وغالبا ما يكون القلب المكاني وليد السماع الخاطئ وتعود اللسان على النطق بالكلمة محرفة.

وإذا صح ذلك قال عنها ابن خلدون أن سكانها أي تكسبت من البربر وتاريخها يقرب من ذلك الوقت، والله أعلم بالحقيقة. ثم عام 530 هـ- تقريبا سنة 1036 م كثر الوافدون على أرض سوف من قسطيلة (الجريد) والزاب وورقلة ووادي ريغ فاجتمع رأي من البربر على بناء قرية بالجردانية عند رأس الماء (أي عيون النازية) فأسسوها في ذلك الحين وصيروها إلى حالتها التي كانت عليها أو أحسن وأكثروا فيها الزرع والضرع والأشجار.. وشاع أمرها في تلك الجهات وتسابقت لها الناس من كل فج لحسن مائها وهوائها وكثرة خيراتها وأمنها من المخاوف السائدة في تلك الجهات والأوقات.

ثم بعد ذلك بزمان أتى جماعة يقال إنهم من بني أبي العافية ونزلوا قرب سندروس وانضمت لهم عصابات من الأخلاط فحاربوا أهل تكسبت[1] وأخرجوهم من ديارهم، فاستعان أهل تكسبت عليهم بأهل الجردانية وحاربوهم مرات كان آخرها انهزام أهل سندروس وقتل أكثرهم وفرار الباقين إلى المغرب.

ثم لفق الفارون جماعات من قطاع السابلة وذوي الخروج عن السلطان وأهل الطمع في الإحسان حتى صار الجميع جيشا عظيما هجموا به على أهل تكسبت بغتة وقتلوا منهم خلقا وسَبَوْا كثيرا من النساء والصبيان ونهبوا أموالا جزيلة وأثاثا باهضا. وفر الناجون إلى الجردانية والجريد والزاب يستغيثون بذوي المحالفة معهم ورجع المهاجمون

---

1. المقصود بها تكسبت القديمة التي كانت آهلة بالبربر الزناتيين.

إلى المغرب بعد أن تركوا القرية خاوية على عروشها لا أنيس بها إلا البوم والغربان ثم رجع بعض من أهل تكسبت بجموع جرارة فلم يجدوا أحدا من المغيرين بسوف فلحقوا بأثرهم إلى نواحي تقرت فعارضهم أهل قراها ومنعوهم من الذهاب للعدو لاحتمائهم بهم. فاجتمع رأي أهل تكسبت على ترك سبيلهم والرجوع إلى قريتهم.

وعندما رجعوا أصلح بعضهم ما تهدم من القرية وسكنها وبنى بعضهم موضعا آخر بقرب تكسبت الموجودة الآن في المكان المسمى المغيبة في الناحية الشمالية بنحو نصف ميل. والله أعلم.

انتقال عدوان إلى الجردانية

بعد أن كان آل عدوان مع بني هلال وسليم بنواحي الكاف والقيروان ضاقت عنهم المجالات لكثرة عددهم، وكانوا أمة عظيمة لا تقاوى ولا تجارى. فانتقل بعضهم يرتدون الفلوات من موضع إلى آخر حتى وصلوا الجردانية فأعجبتهم فأرادوا سكناها مع من فيها من البربر فمانعوها ووقع بين الفريقين عدة مناوشات كان النصر فيه حليف عدوان، وانجلى ساكنوها وتفرقوا على أيدي سبا في الآفاق وذلك في حدود عام 600 هـ- سنة 1204 م[1].

قال الشيخ العدواني : أتى عدوان إلى الجردانية فحاربوا الزناتية وأخرجوهم منها ونزلوا منزلهم. وقال ابن خلدون : عدوان بطن متسع كانت منازلهم القديمة بالطائف من أرض نجد، ثم غلبتهم عليها ثقيف فخرجوا إلى تهامة.

1. كان ذلك في عهد بدأت فيه بوادر انحطاط الدولة الموحدية التي تلاها تدهور الخلافة وسقوطها وانتهى الأمر بانقسام المغرب العربي إلى ثلاث دول : دولة بني مرين في المغرب الأقصى ودولة بني عبد الوادي في الجزائر، ودولة بني حفص في تونس. وقد أحدث هذا الانقسام نوعا من الصراع المستمر بين هذه الدول فاستقل الإسبان هذه الفرصة لشن غاراتهم على ثغور الجزائر تمهيدا لاحتلالها فاستنجد أهل الجزائر بالأتراك لدفع خطر الاحتلال الإسباني. وبعد معارك استطاع بابا عروج أن يجلي الإسبان عن الثغور الجزائرية سنة 1516 م.

وكان منهم عامر بن الظرب بن عمر بن عباد بن يشكر بن عدوان، حكم العرب في الجاهلية وكان منهم أيضا أبو سيارة الذي يدفع الناس في الموسم. ومنهم بإفريقية لهذا العهد أحياء بادية بالقفر يظعنون مع بني سليم تارة ومع رياح بن هلال بن عامر أخرى.

وفي كتاب الشريشي الكبير جاء ما نصه : قال الأصمعي : نزلت عدوان ماء فأحصى عليه سبعون ألف غلام أعزل[1] سوى ما كان مختونا (مطهرا) لكثرتهم.

وكانت الإجازة في خزاعة فغلبتهم عليها عدوان والذي كان يجيز الناس رجل يسمى أبا سيارة، أجاز الناس على حمار له من المزدلفة إلى منى أربعين عاما. فقيل في المثل السائر : أصبح من عير أبي سيارة. وكانت إجازته أن يقول : اللهم حبب بين نسائنا، وبغض بين رعائنا، واجعل المال في سمحائنا، وأوفوا بعهدكم، وأكرموا جاركم وأقروا ضيفكم ثم يدفع فيقول :

خلوا الطريق عن أبي سيارة   وعن مواليه بني فزازة

حتى يجيز سالما حماره

وقال ذو الأصبع العدواني أبياتا في شأنهم أي شأن بني عدوان أستحضر الآن بيتين وهما :

ومنهم من يجيز   الناس بالسنة والفرض

ومنهم حكم يقضي   ولا ينكر ما يقضي

1. الأعزل : هو الصبي الذي لم يختن.

والحكم الذي ذكره ذو الأصبع هو عامر بن الظرب المتقدم الذكر والمشهور بذي الأعواد (الكرسي) وفيه يقول الأسود بن يعفر :

ولقد علمت لو أن علمي نافع   أي السبيل سبيل ذي الأعواد

جاء في كتاب "سرح العيون" أنه (أي ذا الأعواد) أول من قضى (حكم) في الخنثى المشكل[1] على الصحيح. وذلك أنه اختصم إليه في رجل له ما للمراة (فرج) وما للرجل (ذكر) أيجعل رجلا أم امرأة؟ فقال لهم انصرفوا عني حتى أنظر في الأمر فما نزل بي مثله فانصرفوا. وبات ليلته ساهرا. وكانت له جارية ترعى غنمه يقال لها سخيلة كان يقول لها إذا سرحت عنه بكرة ضحيت يا سخيلة لأنها كانت تؤخر وإذا راحت يقول لها : مسيت يا سخيلة. ففي تلك الليلة راحت مؤخرة ولم يقل لها شيئا. ورأت سهره وتفكيره فقالت له ما عراك؟ (أي ما اصابك). فقال لها دعيني وشأني. فأعادت عليه، فقال لها : ويلك قد اختصم إلي في خنثى له ما للذكر وما للأنثى أيعجل فب ميراثه رجلا أم امرأة. فقالت له : لا أبلك أقعده يبول فإن بال من حيث يبول الرجل فهو رجل وإن بال من حيث تبول المراة فهو امرأة. فقال لها : مسى سخيل وبعدها أو ضحى. فصار هذا مثلا. ثم خرج فقضى بالذي أشارت عليه[2].

1. اغتنم المؤلف كعادته مناسبة الحديث عن عدوان ورجالاتهم ليقدم حكما شرعيا نادرا يتعلق بالخنثى المشكل ضمن قصة لطيفة وكان الحكم مبينا على الاستدلال بالعلامات. ثم إنه اتخذ الحكم المذكور مطية لبسط ظاهرة محلية لها مساس كبير بمجتمع أهل الصحراء وسوف وهي قضية آثار الأقدام المسماة الجرة كما سيأتي ذلك.

2. يبدو حسب القصة أن الجارية سحيلة هي التي أوحت بالحكم المذكور فاقتنع به ذو الأعواد وقضى به.

أقول : وهكذا الحكم به في الشرع فإن بال من أحد السبيلين يعطي حكمة أو بال من أحدهما أكثر من الآخر فالحكم للأكثر أو بال من أحدهما قبل الآخر فالحكم للأسبق أو نبتت له لحية معتادة أو خرج منه مني فيحكم له بالرجولة. أو طلع له ثدي أو خرج منه دم حيض فيحكم بأنوثته.

قال السهيلي : وهذا من باب الاستدلال بالعلامات وله مثل في الشريعة قول الله تعالى : "وجاءوا على قميصه بدم كذب".

قال عبد المنعم بن الفرس : روي أن إخوة يوسف عليه السلام لما أتوا بقميص يوسف إلى أبيهم يعقوب تأمله فلم يجد فيه خرقا ولا أثر أنياب فاستدل بذلك على كذبهم وقال لهم : متى كان الذئب حليما يأكل يوسف ولا يخرق قميصه؟ إذ لا يمكن افتراس الذئب ليوسف وهو لابس القميص ويسلم القميص.

واجتمعت العلماء على أن سيدنا يعقوب عليه السلام استدل على كذبهم بصحة القميص. واستدل الفقهاء بهذه الآية على أعمال الأمارات في مسائل كثيرة من الفقه. وقال الله تعالى : ﴿**وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قدّ من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قدّ من دبر فكذبت وهو من الصادقين فلما رأى قميصه قدّ من دبر قال إنه من كيدكنّ إنّ كيدكنّ عظيم**﴾[1].

وقال ابن الفرس : هذه الآية يحتج بها من العلماء من يرى الحكم بالعلامات والأمارات فيما لا تحصره البينات.

1. سورة يوسف، الآيات : 26، 27، 28.

أقول : ومن باب الاستدلال بالعلامات ما هو جار عندنا بسوف في معرفة الأثر (الجرة)[1] إذ من الأرجل: الطويلة، والقصيرة والعريضة

1. بما أن بصمات الأصابع (آثار الأصابع) وهي من قبيل الاستدلال بالعلامات تعتمد عليها العدالة في أحكامها وتعمل بها في تحقيقاتها. فكيف لا يصح بآثار الأقدام (الجرة). وقديما قال العرب في استدلالهم : البعرة تدل على البعير وآثار الأقدام تدل على المسير... وقد يقصدون بذلك أيضا الدلالة على صاحب المسير. وبين أهل الصحراء وسوف بلغ الكثير منهم مستوى كبير في براعة تحليل آثار الأقدام والتوصل من خلالها إلى التعرف على صاحبها جعلهم خبراء ذوي اختصاص في هذا الميدان ويطلق عليهم اسم عرافي الجرة.
ومما يدعو إلى التعجب أن عراف الجرة علاوة على اكتشافه للمعتدي اعتمادا على شكل قدميه (جرته) قد يتوصل بفضل فراسته إلى استنتاجات أخرى مثل أوصاف المعتدي " طول قامته، قصرها، إن كان أعرج، أو أعور، أو بدينا، أو ضعيف الجسم وغير ذلك. ومثل زمن الاعتداء : ليلا أم نهارا، قبل الزوال أم بعده الخ. وتحاشيا للإطالة هنا أكتفي بتقديم نموذج واحد في ذلك.
سألت مرة رجلا من عرافي الجرة على الأدلة التي اعتمدها في الحكم بأن سرقة التمور من غوط فلان جرت ليلة البارحة لا نهار الأمس فكان بعض ما أذكره من جوابه هو :
أولا : كان على جرة السارق آثار مشي الفئران وهي غالبا لا تخرج من جحورها وتنتقل بحرية إلا أثناء الليل.
ثانيا : على الجرة آثار قطرات الندى والندى لا ينزل إلا ليلا.
ثالثا : كانت الجرة واضحة المعالم سليمة لم تصادفها ريح نهار الأمس التي لم تهدأ سوى أول الليل الماضي.
ومما يحكى عن الاستدلال بالجرة أن ضابطا فرنسيا عندما عين رئيسا للإدارة بالوادي أراد أن يتأكد من صحة هذا العمل العرفي ليعتمده بدوره في أحكامه. ففي ذات ليلة خلع حذاءه وذهب منفردا مستترا إلى أحد البساتين القريبة وقطع عرجون تمر من نخلة صغيرة ثم عاد إلى منزله. وفي صباح الغد ذهب صاحب البستان إلى الإدارة يخبرها بالاعتداء على بستانه حتى تتخذ الإجراءات للكشف على المعتدي. فأرسل الضابط من يحضر الخبير (عراف الجرة) كعادة أهل البلد في مثل هذا الحادث. ولما حلل عراف الجرة الأثار توصل نهائيا إلى اكتشاف صاحبها الذي هو الضابط. قيل قد أعجب الضابط المذكور بفراسة الخبير واتخذه من ذلك اليوم خبيرا رسميا في هذا الميدان.

والرقيقة والخميصة والملساء وذات التجاعيد وذات العروق البارزة وذات الشقوق والمعتدلة ومنفرجة الأصابع وملتصقتها وطويلة الأصابع وقصيرها وزائدة الأصبع وناقصتها والحنفاء (القبحاء) والشيظاء (الطرقاء) وإلى غير ذلك من أوصافها.

وأرضنا رمال وأمرها مهمل خصوصا حال العرب الرحالة الساكنين حول البلاد وبعميش فإنها لولا معرفة الأثر لكثرت السرقات وتعطلت المنافع ولوجد كل مفسد مراده منها. ولذلك حكم الشيخ سيدي خليفة بن الحسن القمارى ناظم سيدي خليل رضي الله عنهما حكم على ابن خليل القماري حين سرق وعرف أهل الخبرة أثره. ثم إن ابن خليل ذهب إلى أشياخ الخنقة واستفتاهم في ذلك فأفتوه بعدم التعويل على الآثر.

فخاطبهم سيدي خليفة رادا عليهم فتواهم بمنظومته الشهيرة وهي :

سلام له في الصالحات أصول ... يوافيه من عند السلام وصول

إلى السرج الإثبات من أهل خنقة ... لهم في ندور الواقعات نزول

رؤوس سراة صالحون أجلة ... شموس رشاد ما لهن أفول

عفا الله عنكم حكمكم كيف وجهه ... لنجل خليل بالبراءة فقولوا

تمسكتمو بالأصل والحق أوضح ... وما ينكر المعلوم إلا جهول

ففي القلب شيء يعتريه وعبرة ... من القلب للأحكام حين تجول

ولكن إذا عم السداد لحادث ... تقدم أصل والقيام دليل

كتضمين سمسار وتغريم صانع ... وهل هو إلا وادع ووكيل

وترخيص تأخير الكراء لمكتر ... إذا خيف من غدر الكرى نزول

ومن ذاك ما قد جوزوا في سفاتج ... متى عم بالخوف السديد حلول

ففي كلها خلف الأصول لأنها ... مصالح عمت والصلاح جميل

ومن أدب المسؤول قبل جوابه ... إذ وردت يوما عليه سؤول

تعرف عرف السائلين بأرضهم ... ليعرف ما يفتي به ويقول

وما أنتم منا بأعلم بالذي ... به الضر يبدو عندنا ويزول

ففي الأخذ بالآثار إصلاح أمرنا ... وفي الترك عن قصد السبيل عدول

وما الأثر إلا كالخطوط شهادة ... كذا مال بعض في القياس نبيل

فعر فإنك الخطأ الذي مات ربه ... لعرفان أثر المستراب عديل

وأغرب منه ما تحراه قائف ... من الشبه في المولود أين يميل

وفي ولدي عفراء لما تنازعا ... تواء أبي جهل وهو جديل

بأثر طعان السيف كان نبينا ... قضى أنه لبعض ذين قتيل

وهب أنكم خالفتمو ما بدا لنا ... ولم يبد منكم للصواب حصول

فهلا حكمتم بالذي هو واجب ... على من تزيا بالعدا ويصول

من الضرب والتنكيل بالسجن طائعا ... ليختبر المكنون منه عقول

وهذا وإن القلب بالود لم يزل ... على ما عهدتم لم يشبه دخول

ومنا لكم عذر الذي هو قاصر ... لدى من له في المنتهين حلول

فإن وافق الانصاف ما قد رسمته ... ووافاه منكم بالسماح قبول

فما الفضل إلا للكرام وإن تروا ... قصورا فقولوا غفلة وذهول

وإن تروا الأعراض منكم تزهدا ... فما لي بالأعرض عنكم شغول

وسيدنا القبول في موقف الجزا ... إذا الفكر من هول الحساب يحول

واختم نظمي بالصلاة على الذي ... له في فراديس الجنان نزول

محمد المقبول والآل ما جرت ... ببطحاء من ويل الغمام سيول

وصانع أبيات الطويل خليفة ... عليكم سلام من لدنه يطول

أقول : انتهت المنظومة بحمد الله تعالى. وله الحق في جميع ما قال فرب الدار أدرى فيها.

وكان سيدي خليفة المذكور صاحب باع طويل في الفقه لا يجاري في زمانه[1] وخصوصا في جمع النظائر والأشباه. وكان خالص العقل، محرر النقل، مسلم له ما يدعيه من غير مطالبة بحجة لما عرف من ورعه. وله القدم الراسخ في التصوف ومعرفة كلام القوم وأحوالهم ودرجاتهم. وكان صاحب اعتقاد في الفقراء يخدمهم بنفسه ويبذل لهم ما يجده. تتلمذ على سيدي ابراهيم بن سعد، وسيدي إبراهيم بن شريط القمارين رحمهما الله تعالى.

قال الشخ العدواني : بعد أن تمكنت عدوان من الجردانية أتاهم أقوام من النصارى كانوا في الزاب وورقلة وفيهم رهبان فبنوا بإزاء الجردانية صوامع للتعبد سموها قصورا وكانوا في ذلك الوقت ثلاثة والصحيح أن كل صومعة تقرت حولها قرية وهي تسمى قصرا. وطالت العشرة بين أولئك النصارى والعدوانيين.

وفي زمن قريب لحق بعض العدوانيين[2] الذين كانوا بالقيروان فلم يرضوا بالصلة التي بين إخوانهم الروم فأخرجوا جميع الروم وتوجه

1. بلغ العلامة المرحوم سيدي خليفة بن الحسن مكانة علمية يشهد له بها العام والخاص ولا سيما في الفقه الإسلامي. ومن تآليفه في ذلك نظم سيدي خليل.
يقول الدكتور ناجح أحمد في كتابه سوف الواحات ما ترجمته : استغرق الشيخ خليفة عشر سنوات لإتمام تأليفه الذي نشر سنة 1798 م.
2. كان توافد العدوانيين أثناء فترات متعددة وقيل أول وفد منهم بلغ سوف كان منذ بداية الفتح الإسلامي لإفريقية في أواسط القرن السابع ثم التحق الباقون فيما بين الحادي عشر والثاني عشر.

هؤلاء إلى موضع القدائم الآن الذي بقرب تاغزوت ونزوله وكان ذلك الموضع يسمى جهلمة سمي رجل صياد من زناتة الأولين مات هناك.

ثم لحق بعض العدوانيين بالروم الذي بجهلمة وبنوا جميعا قرية وأسس الروم بها صومعة[1] وبنى المسلمون مسجدا. فلم يطل ذلك حتى قدم عليهم جماعة من الأخلاط وجماعة من أتباع ابن أبي العافية السابق ذكره ونزلوا بجهلمة فهرب الروم الذين كانوا فيها إلى الجردانية مظهرين أن الأرض لم تساعدهم لقلة مائهم فقبلهم أهل الجردانية وفرحوا بهم وأعانوهم على بناء صوامعهم وبيوتهم. قيل إنه اجتمع من الرهبان هناك سبعة : ثلاثة منهم جاؤوا من وغلانة واثنان قدما مع أهل جهلمة وواحد من باديس، وواحد من تهودة. ثم كثر البناء في الجردانية حتى صار كل قصر راهب حوله بيوت متعددة كالقرية. والجميع تسمى قصور عدوان (أي قرى عدوان) أو مداشر عدوان. وتسمى أيضا قصور الرهبان، وقصور النازية وتقدم أن القرية بأكملها تسمى قصرا.

وحيث كان بنو مرين انتقلوا من تكسبت وصحرائها عام 610 هـ- سنة 1214 م[2]، وكانت لهم ألفة وصحبة مع بعض العدوانيين الذين نزلوا

1. كان وجود الرهبان بالصحراء وسوف منذ العهد الروماني كما تقدم ذكر ذلك.
2. في هذا الظرف التاريخي كان بنو مرين قد نزحوا إلى المناطق الجنوبية الغربية بعد ما كانوا بنواحي الزاب وسوف وما والاهما وبعد أن ردهم بنو هلال نحو المغرب والتجؤوا إلى المناطق الصحراوية فرارا من سلطة الموحدين. وقد سبق لبني مرين أن اشتركوا في ثورات عديدة ضدهم. وحوالي سنة 1215 م. حاولوا الاستيلاء على بعض المناطق التلية حيث الزرع والمرعى فردهم الموحدون عن ذلك فرجعوا واستولوا في بعض سنين على الكثير من مدن المغرب مثل فاس والرباط ومكناس.

بالجردانية أولا وصاروا في جهلمة وضيق عليهم بنو أبي العافية والأحلاط ففروا إلى المغرب تاركين منازلهم باختيارهم والتحقوا بهم. وعند انتقالهم قل الساكنون بجهلمة فحاربهم بنو عدوان إلى أن فروا وأخلوا القرية وإلى الآن توجد آثار بنائها. وكان ذلك في حدود عام (655 هـ-1258 م).

قال الإمام ابن خلدون : بنو أبي العافية هم الذين تفرقوا في المغرب الأوسط ثم اجتمعوا في المغرب الأقصى وملكوه.

أقول: وأبو العافية الذي ينتسبون إليه هو ابن أبي باسل بن أبي الضحاك بن أبي يزول بن تافرسين أو تافركين أو تافرحين بن فراديس بن مكناس بن ورسطيف بن يحي بن تمصيت بن ضريس بن زحيك بن مادغيس الأبتر بن بربر بن كسلوجيم بن كنعان بن حام بن نوح عيه السلام.

... وتحالف بنو مرين مع سلطان تونس على محاربة كل من دولة بني عبد الوادي بتلمسان والنصارى الإسبان. وفي آخر الأمر دب الخلاف بين سلاطين بني مرين فكان منهم مؤيدين لبعث دولة موحدية من جديد ومنهم معارضون فنتج عن ذلك نشوب قتال بينهم وانفصال بعض القبائل مثل قبائل جرجرة ودخولها تحت حكم بلقاضي وانفصال أهل الزاب وانضمامهم تحت حكم الذواودة. وزال حكم الدولة نهائيا حوالي سنة 1465 م.

انتقال طرود إلى عقلة الطرودي

وما ضاقت الأماكن الإفريقية بالعرب[1] وقويت شوكة الأثبج وخصوصا دريد منهم انتقلوا إلى صفاقس. وكانوا في عدد كثير فلم تحملهم الأرض لقلة ما بها من العيش فانتقلوا إلى قفصة.

قال الشيخ العدواني : إن طرود كانوا حين دخلت العرب إفريقية بنواحي طرابلس ثم في هذا الوقت قتلوا رجلا فطلبت منهم الدية فامتنعوا من إعطائها وفروا ليلا ونزلوا عل قرية من عمل طرابلس على شاطئ البحر، فأرسل إليهم عاملها : إما أن تعطوا الدية أو تنتقلوا من هنا. فأبوا ولم يخرجوا ثم عادوا، فقالوا له : إن كانت لك قوة فأت بها فلسنا خارجين. فجمع جيوشا من غدامس وفزان وغيرهما تبلغ عشرة آلاف فارس. وانضم لطرود بعض الأعراب الذين هناك. وكان رئيسهم يقال له مسروق[2] وتآلف جيشهم من ستة آلاف فارس. والتقى الفريقان بموضع يقال له ابن فرحات. وما زال القتال بينهما من طلوع الشمس إلى غروبها. ثم افترقا وقد مات من قوم مسروق أربعمائة رجل ومن قوم عدوه ألف رجل. ثم نزل مسروق وقومه بموضع آخر يقال له جرجر بساحل البحر ومكثوا هناك ثلاثة أشهر. فسمع بهم صاحب قابس فرحب بهم وطلب منهم النزول في بلاده ولهم فيها ما يريدون فنزلوا فيها

1. يعني بالعرب من قدموا إفريقية ابتداء من الحملة الهلالية.

2. قيل في رواية أخرى: هومسروق بن عند له كان قد قتل ابن عمه وأثر ذلك فر بقبيلته طرود.

وأصلحوا شؤونهم ثم بعد مدة ذهب رجل من جماعة مسروق يقال له ضرار بن عمر يطوف في بعض السواني يقتطف العنب فنهاه صاحب السانية وزجره. فأخذ ضرار سيفه وضربه على رأسه فقتله وحمله إلى ساحل البحر ورماه. فتفقده أهله (أي صاحب السانية) فلم يجدوه. فاتهموا جماعة مسروق به فأخرجهم عامل قابس من تلك الأرض، فسار مسروق وجماعته إلى القيروان فصعب عليهم النزول هناك. فرحلوا ونزلوا على المهدية ومكثوا فيها ثلاث سنين فسمعبخبرهم صاحب ترشيش (من أسماء تونس) فبعث إليهم ثلاثين رجلا من خواصه يرغبونهم في التقدم إلى نواحي تونس. فتشاور طرود في ذلك فاختلف رأيهم. فأشار عليهم بعضهم بعدم الذهاب إليه وقال له : نحن قوم لا ولاية لأحد علينا ونريد اتساع المكان فلا تضيقوا علينا ما وسعه الله. فرجع قوم ترشيش من غير فائدة. ثم رجعوا لطرود مرة ثانية قائلين لهم : إن الأمير ضمن لكم جميع ما تطلبونه منه إن أتيتموه لتكونوا أعونا له على بعض الثائرين. وتكونوا من المقربين عنده، المحظوظين بفوائده وموائده. فذهب إليه منهم وفد مؤلف من أربعمائة رجل. فلما وصلوه قام لهم إجلالا وعظم منزلتهم وأكرمهم إكراما واسعا. فأقاموا هناك ثلاثة أيام فلما أرادوا الانصراف والرجوع لأخوانهم أعطى كل واحد منهم كسوة تليق به وقال لهم : غدا يلحق بكم بعض عمالي فيعطيكم أرضا واسعة وينزل كل قبيلة منكم على حدتها ويفرض لخيولكم المؤونة ومن مات له فرس يعطيه عوضا وكونوا معي في كل حال، ويجعل لكم سوقا تجتمعون فيه كل أسبوع باسمكم. فافترقوا على هذا الأمر وأخذ عنهم البيعة.

قال القدماء: فلما رجعوا على أهاليهم وإخوانهم وأخبروهم بما كان من صاحب ترشيش فقالوا : إن هذا الرجل قد زعم على استئصالكم وقطع دابركم من الأرض وذلك أنه أراد أن يجعل كل قبيلة منكم في محل وحدها لتتفرقوا وتتفرق كلمتكم ويقل عددكم فيهلككم شيئا فشيئا.

وفي رواية أخرى أنه حين بعث لهم صاحب ترشيش ورغبهم بما تقدم يخبرهم بذلك رسله على لسانه تحيروا وتحيلوا لما يعلمونه من الصداقة بينه وبين عامل قابس وقد أضروا برعيته وتجاسروا على عامله. ثم حين رغبهم ثانيا انخدعوا وظنوا انه بريء الساحة من ذلك الأمر. فأشار عليهم مسروق بعدم الذهاب فخالفوه وحينئذ أي حين عزموا على المسير إليه أرسل معهم إبنا له نجيبا فطنا وأوصاه بأن يحفظ ما يقوله لهم عند الانصراف ولا يحفظ ما بين ذلك ولو طالت إقامتهم عنده. فلما قدمواعليه قال لهم : مرحبا بكم أيها المنافقون (أي الخارجون عن الطاعة) ثم أكرمهم وأضافهم ثلاثة أيام. وعند الانصراف أعطاهم حللا وقال لهم : في في أي محلّ تركتم أهليكم حين جئتم؟ فقالوا بنواحي المهدية فقال لهم : وهل به إلى الآن أو انتقلوا عنه إلى غيره؟ فقالوا إنهم به إلى هذا الوقت. فلما وصلوا فرحت الأعراب بسرور الأمير بهم وإكرامهم إياهم وصفاء قلبه عليهم. وأعاد الإبن على أبيه مسروق ما سمعه. فقال لهم مسروق : انتقلوا الآن وإن بقيتم إلى غد تصبح عندكم خيل الأمير فلا يبقى منكم أحد فإنه حاقد عليكم بسبب فعالكم السابقة مع عامله وكلامه معكم يل على ما في صدره من أجلكم فإياكم والإقامة هنا. ثم رحل مسروق ومن أطاعه

وهم الكثير وتوجهوا إلى صفاقس ثم منها إلى قفصة وقمودة. وبقي أصحاب الطمع في محلهم وبعد يومين هاجمتهم عساكر ترشيش ولم يتركوا منهم إلا من أعاد الخبر. وقال شاعر الذين نجوا وقطعوا تلك الفيافي ليلا بعد أن بلغه خبر المخلفين: عند الصباح يحمد القوم السري.

ثم بعد حين انتقل بعض طرود وهم القليلون ونزلوا بباجة ظانين أن صاحب ترشيش يقربهم لبراءتهم من المشاركة في القتل والتراع وانتقل الباقون إلى عقلة الطرودي وبوخان والميتة وسرحوا مواشيهم بأطراف الجبل وقطنوا هناك بادين بخيامهم من غير أن يجعلوا قرية وكان نزولهم في هذه الأرض تقريبا في حدود عام 690 هـ- سنة 1292 م.

ثم إن الذين بباجة تضرروا بالوخم وجاءهم النذير أن الأمير عاقد العزم على استئصالهم فأجمعوا على الخروج منها والذهاب إلى غيرها فأرسى رأيهم على اللحاق بإخوانهم فارتحلوا وبقى منهم بنو أبي يزيد وبنو علي بباجة.

وما زالوا سائرين حتى وصلوا عقلة الطرودي ونزلوا بها وصارت أماكن الجميع في نواحي فركان ونقرين وأطراف الزاب الشرقي والصحراء التي بين نفطة والجردانية.

وبقي الغيظ كامنا في صدورهم من الولاة الذين بإفريقية بحيث كلما سمعوا بمن ينتفض عليهم أو يحاربهم إلا ويتعصبون معه ويعينونه عليهم حتى كانت ولاية الأمير خالد بن أبي زكريا الذي أساء الفعل مع الرعية. مرت بعض القبائل التابعة له في حال مروره إلى قسنطينة في المرة الثانية والتقت بعرب طرود وتحاربوا ولما التحقوا بالأمير أخبروه بما

كان من طرود. وكان مغتاظا منهم من زمن أبي عصيدة وأبي حفص. فعزم على الانتقام منهم في عودته، فلما سمعت طرود بذلك فروا إلى الصحراء القبلية ونزلوا عل ماء يقال له المنقوب يبعد على نفطة بنحو يوم في الجهة الغربية. وفي حال رجوع خالد إلى تونس بعث العيون (الجواسيس) إلى منازل طرود فوجدوها كما قال شاعرهم :

وبلدة ليس بها أنيس   إلا اليعافير وإلا العيس

ثم بعد ذهابه رجعوا إلى منازلهم فمكثوا برهة فبلغهم أن أبا بكر بن أبي زكريا أخا الأمير خالد الذي كان خلفه بعده واليا على قسنطينة قد انتقض على أخيه خالد. وجمع جموعا من العرب يريد التوجه بها على تونس. فكانت طرود في مقدمتها ولما دخلوا إفريقية اتتهم النجدات من طرابلس والنواحي القبلية. ولما سمع خالد بذلك خرج بمجموعة في ظنه أنه يفتك بالقائمين عليه. وبعث الطلائع ترصدهم فأخبروه بأنه لا طاقة له على الجيوش المقبلة التي سدت جميع النواحي والضواحي فلم يصدق حتى عاين ذلك بنفسه، وحاول الرجوع مختفيا ليطلب الصلح فلم يستطع واستشار أرباب دولته فشجعوه على القتال وأوهموه بضعف جانب العدو، وأطمعوه فيه وحذروه من الرجوع. فحارب متمثلا بقول القائل : "مكره أخاك لا بطل". فأول من بادر إلى لقائه طرود. وقامت الأقوام في أثرهم ووقوا شوكتهم فقاوم خالد غير طويل ثم رجع منهزما يطلب النجاة لنفسه. فلحقه طرود يريدون قتله دون رعيته فسبقهم ثم رجع منهزما يطلب النجاة لنفسه. فلحقه طرود يريدن قتله دون رعيته فسبقهم إلى أحد ابواب المدينة وأغلقه

دونهم فضربه أحدهم برمحه فثقبه. وإلى الآن يقول طرود مفتخرين : "دقتنا في باب خالد". يعنون الباب الذي أغلقه خالد لا بابا يسمى بهذا الإسم. ثم إن الأمير خالدا حين حصل الأمن لنفسه خلع نفسه بنفسه وكان ذلك حوالي عام 711 هـ- سنة 1312 م.

ثم أفضت الدولة إلى زكريا اللحياني وبنيه. وكانوا يكرمون طرودا ويرفعون منزلتهم فسكنوا باجة حيث كانت محلا لبني ابي زيد وبني علي من إخوانهم وأطالوا فيها الإقامة. والله أعلم.

دخول بني مرداس إلى سوف

قال الشيخ العدواني : ثم أتى إليهم (أي إلى عدوان ومن معهم وإلى زناتة الذين بتكسبت) قوم مرداس[1] وأقاموا معهم أربعين عاما.

وقال صاحب المؤنس: مرداس بن رباح بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوزان بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ... الخ.

قال القدماء : إن الذي نقلناه عن أوائلنا أن بني مرداس لم يكثروا الإقامة بسوف لقلقهم من الأحكام والضغط، وإنما حين دخلوا ألفتهم الناس ولم يأنفوا منهم وصاروا بين الزاب وتاقرارت والجردانية وتكسبت والصحراء القبلية. وتارة يذهبون إلى الجبل وتارة إلى وادي ريغ، واختلطت منهم أناس بأهل تكسبت وتصاهروا وصاروا منهم.

قال ابن خلدون : بنو مرداس انتقلوا إلى القفر وهم اليوم به من جهة بادية الأعراب أهل الفلاة يترعون إلى الرمل ويمتازون من أطراف التلول. وهم تحت أحكام سليم ورياح ويختصمون بالتغلب على ضواحي قسنطينة أيام مرابع الكعوب. ومصائفهم بالتلول. فإذا انحدروا إلى مشاتيهم بالقفر أجلفت أحياء مرداس إلى القفر البعيد ويخالطونهم

1. جاء في المنجد صفحة 490 قوله : بنو مرداس سلالة عرب سوريين ينتمون إلى صالح بن مرداس الكلابي حاكم حلب 1023 م منعوا الشمال السوري عن هجمات البيزنطيين والقواد الترك.

على حلف. ولهم على توزر ونفطة أتاوة يؤدونها إليهم ... وقال :
ولمرداس بطون كثيرة وهم : ذواد بن مرداس وضنبر بن عقيد بن مرداس
وإخوانهم مسلم بن عقيل، ومن أولاده عامر بن يزيد بن مرداس ... الخ.

أقول : ومنهم الذواودة المشهورين بالكرم والشجاعة ونزاهة النفس
وهم أبناء ذاود بن مرداس المتقدم الذكر. وبطون رياح كلها تبعا للذواودة
في القوة والمناعة، ومسكنهم الزاب الغربي وقاعدته بسكرة وطولقة، ومعهم
إخوانهم رحمان من بني يزيد بن مرداس. وبالزاب الشرقي إخوتهم الخضر
وهم أبناء حضر بن عامر بن يزيد بن مرداس، ومنهم سيدي عبد الرحمان
الأخضري صاحب التآليف المباركة والكثيرة، وهو دفين الزاب الغربي.

وإن سيدي عبد الرحمان المذكور من ذرية العباس بن مرداس السلمي
لا مرداس الرياحي كما ذكر ذلك بنفسه في شرحه على السلم.

قال القدماء : ومنهم أولاد نابت بن مرداس وأكثر مواطنهم بادس
وأولاد علي، وأولاد عمر أبناء رياح المذكور. ومن أولاد علي أولاد
فادع وأولاد دهمان وأولاد صولة، ومن إخوانهم حيان (قبيلتان) بورقلة
وهما سعيد، وعتبة أبناء مالك بن رياح وغير هؤلاء كثيرون ولكن
المقام لا يسعنا. ثم بعد حين من مصاهرة زناتة لبعضهم اشتدت الرابطة
معهم وصاروا كاليد الواحدة على من عاداهم أو حاربهم.

وكان بين الحين والآخر يحدث خصام بين عدوان وزناتة أهل
تكسبت. ففي إحدى الحوادث استنصر الأخيرون بحلفائهم بني مرداس
الذين تسلطوا على بني عدوان خاصة دون من معهم من الأخلاط.
فعزم بنو عدوان على الانتقال من المكان بعد ما عطلوا عيون النازية

لئلا ينتفع بمائها خصومهم، قيل برمي الصخر فيها، وقيل بهدم كيفانها،
ثم ارتحلوا ناوين إفريقية فنزلوا بصحراء نفزاوة. ولما قلّ الماء بعيون
النازية خرج بنو مرداس من تلك النواحي وتفرقوا في الزاب ونواحيه
فسمع عدوان بخروجهم فرجعوا.

قال الشيخ الورتلاني : وأهل الرمل من بقايا الروم الذين كانوا بإفريقية
قبل الفتح وكذا أكثر أهل قسطيلة، ومنهم من العرب الذين سكنوها عند
افتتاحها، ومنهم من البربر الذين دخلوها في قديم الزمان ...

أقول : كلام الشيخ الورتلاني يفيدنا بأن البعض من بني عدوان
قدموا إلى سوف عند الفتح وسبقوا غيرهم من العرب إليها.

وعند رجوعهم لم يتمكن بنو عدوان من البناء كتمكنهم الأول
فجعلوا مساكن خشبية وأخرجوا الرهبان من مساكنهم وحلوا محلهم
وأحلوهم إلى الزاب ووادي ريغ وورقلة والجريد.

ويمكن أن تكون تلك الوقائع في نحو عام 766 هـ-سنة 1365 م وذلك
أن المرداسيين خرجوا من سوف حين بلغهم أيضا أن بجاية أخذت من يد
بني مرين متأسفين للود القديم الذي بينهم، وكان أخذ بجاية عام 761 هـ-
سنة 1360 م، وفي مدة خمس سنين ونحوها تمت تلك الأمور المتقدمة.
والله أعلم.

رجوع طرود إلى عقلة الطرودي

لما طال مكث طرود بباجة والسلوقية وتستور ونواحيها أكثر أهلها التشكي منهم وطلبوا من العمال إخراجهم من تلك البقاع.

وأفضت الولاية إلى الأمير أحمد بن محمد بن أبي أبكر فاستشار خواصه في أمرهم فأشاروا عليه بالتثقيل عليهم في المغرم لينفروا من غير مدافعة فاستصوب رأيهم وضيق عليهم ورصدهم بالعيون لئلا يقع منهم حادث.

وكانت له حروب طوع فيها الجريد والزاب وجميع بقاع إفريقية. وفي حال رجوعه إلى تونس خشيت طرود بطشه. فاشتوروا واتفقوا على الرحيل إلى محلهم الذي كانوا به سابقا وهو عقلة الطرودي وما حولها. وما زالوا سائرين حتى نزلوا بقرب نفطة.

قال الشيخ العدواني : فدخلها (أي نفطة) رجلان منهم يسألان عن أخبارها وحالها. ثم أخبرا عن رخاء أسعارها وكثرة تمورها. فأعجبتهم [1] وأقاموا فيها سبعة أيام يبحثون عن سرها وعلانيتها فقيل لهم : هذه بلاد ظلم فارحلوا أرض الله واسعة الفضاء واسكنوا حيث شئتم غيرها. ثم مرض الرجلان بالوخم فماتا ودفنا بالدحداح.

---

1. انتقل المؤلف من ضمير التثنية العائد على الرجلين (يسألان، أخبرا) إلى ضمير الجمع (فأعجبتهم، وأقاموا ... الخ) يقصد بضمير الجمع هذا قوم طرود بما فيهم الرجلان إذ الإقامة منذ سبعة أيام بنفطة كانت لجميع طرود الذين سبقهم الرجلان إلى نفطة يسألان عن أخبارها.

قيل : اللذان ماتا قبرهما بقرب أفركان وإلى الآن يعرف المسافرون موضعهما بجنب ربوة حمراء.

وانتقل طرود من ذلك المحل سائرين إلى أن وصلوا عقلة الطرودي وكان ذلك في حدود (عام 797 هـ- سنة 1395 م).

وكان استقاء طرود في المرة الأولى من وادي بودخان ومن وادي تاقرارت الذي كان يأتي إلى سوف وصار يجري في تلك النواحي خاصة وفي هذه المرة احتفروا في الموضع المسمى الآن عقلة الطرودي سبعة آبار وفي الأخيرة منها مات رجل منهم يقال له شداد بن حارث الطرودي فسميت به. والعرب يسمون الآبار الكثيرة المتقاربة عقلة.

وكان من المواشي (الإبل، والغنم، والخيل، والبغال، والحمير) شيء كثير عم تلك الأرض، ولهم الذخائر العربية والأموال والحلي والأسلحة ما لا يحصى عددها. واضطروا من أجل مواشيهم الدخول في أطراف الجبل مع كثرة بردة ومطره وتارة يقصدون أهل الزاب وتارة يذهبون إلى الصحراء القبلية فيتعمقون فيها وإذا اشتد الحر يرجعون من أجل قلة الماء لهم ولمواشيهم. والله أعلم.

تنبيه :

لما كان البعض يلتبس عليه الأمر في حال من أحوال الماضين ويقص خبر زمان في زمان آخر، لزمنا ان ننبه على ذلك إزالة للخطأ حيث كنت ملتزما به من قبل السائلين ونصيحة للقارئين.

فمن ذلك ما حكي أن بني هلال حين دخلوا إفريقية مكثوا فيها طويلا ثم انتقلوا حتى وصلوا أرض سوف فوجدوا بها الزناتية ومن جملتهم خليفة الزناتي المشهور فتحاربوا هناك وحفر خليفة المذكور بئرا بقرب الغوط الآن تسمى باسمه إلى هذا الوقت يقال لها أحسى خليفة. ثم طرد الهلاليون الزناتيين وأجلوهم إلى وادي الزناتي ونواحيه.

ويحكى في هذا الشأن أن رجلا سأل رجلا آخر عن زناتة وبني هلال كيف كانت الفتنة بينهم وما سببها؟ فأجابه بقوله : إني كنت ذات يوم جالسا في خلوتي فحدثتني نفسي بزيارة الشيخ البكري في الشام، فأخذت عكازي وسرت في البرية حتى وصلت موضعا يقال له ابن قردان بقرب أرض طرابلس. فنظرت فإذا بخيول قد أقبلت علي فلما رأوني وعرفوني قال بعضهم لبعض : لا تؤذوه فإنه رجل صالح عليه سمات الخير تلوح. فنزلوا بساحتي وإذا بخيول أخرى تتزايد والسواد والنساء لاحقات في أثرهم. فعرضوني للأكل فامتنعت من طعامهم وأكلت من سويق عندي ونمت هناك إلى الصباح. وإذا بخيل أخرى قد خرجت من الزاوية التي بطرابلس فلما رأتهم زناتة أسرعوا نحوهم. فسألت رجلا عاقلا كان معهم عن هذه الخيل الأخرى، فقال: أولئك بنو هلال ونحن زناتة نريد القتال. قلت له : وما الحامل لكم على ذلك

من غير موجب ولا سبب؟ قال لي : يا شيخ البركة، هؤلاء يقاتلوننا عن أرضنا من غير شيء فعلناه معهم والصائل لابد من دفعه. وكان مع بني هلال امراة جميلة قد خطبها بنو عمها فلم تقبل منهم أحدا. وكان في قومنا رجل يقال له خليفة بن عمار ذو شجاعة وفروسية، جميل الصورة، صاحب أشعار كثيرة وكلام بليغ خرج يفتش على نياق أذهبها الغيم والريح فالتقى بتلك المراة وكان حولها عشرون بكرا من بنات عمها يحللن عقاصها. فتقدم إليهن خليفة وتأمل فيهن فلما رأينه قلن له : ما شأنك يا فارس. قال لهن : جئت أبحث على ضالة من الإبل والآن عثرت على خير منها فلا أذهب من هنا. قالت له تلك المرأة : إنك لا تقدر عل زمام الناقة وعقالها (كناية عن شروطها) قال لها : أقدر على ذلك إن شاء الله، فإن لم تكوني تعرفيني فأنا خليفة الزناتي الشائع الصيت في جميع الآفاق. فقالت له : انطلق الآن وارجع غدا إلى هذه الشجرة (شجرة كانت بقربها) وكان اسم تلك المراة الجازية الهلالية.

ثم من الغد رجع إلى ذلك المكان فوجد الجازية واقفة مع صاحباتها وجميع خطابها مختفون قرب الشجرة آخذون أسيافهم بأيديهم ينتظرون قدومه. فأقبلت الجازية وسلمت على خليفة ورحبت به ودعته للنزول لتستريح فرسه فامتنع قائلا لها : لا أنزل إن ظهرها عز والنزول عنه ذل وما من امرأة مثلك في الحسب والجمال إلا ويكثر تابعوها وعدياتها وأظن أن منهم من هو وراء ظهري الآن فيلزمني الحذر لأن قلبي يحدثني بذلك. فقالت له : اعمل عل حسب ما سبق إليه حديث قلبك. فما تم كلامهما حتى أتت إليهما الخيل من كل جانب ومكان فتلقاهم

خليفة، والجازية واقفة تقول له : إن الذين أتوك كلهم خطبوني ولم أقبل أحدا منهم وكن حازما فإن العمر أيام معدودة لا تزيد ولا تنقص والجبن عار. وعليك بلابس الأحمر فإنه ابن عمي وهو رئيسهم فإذا قتلته أو جرحته بقي العدو بلا رأس وتفرقوا. فتقدم إليه خليفة وطعنه في صدره برمحه أخرجه من ظهره فمات. ثم مازال يخرج إليه الواحد بعد الآخر فيقتله حتى بلغ إثني عشر فارسا، ثم أخذت الجازية فرسا من خيل القتلى وذهب معها خليفة إلى بيت أبيها ونزلا بها.

وبلغ الخبر إلى الناس في ذلك الحين. وفي الغد ركب بنو هلال وهجموا على الزناتية وهم هؤلاء كما ترى ... انتهى كلامه.

أقول : قد نسبوا هذه الحوادث إلى عام (797 هـ- سنة 1395 م) ولم يوجد في ذلك التاريخ بسوف من اسمه خليفة تنسب إليه تلك الوقائع. ثم إن خليفة الذي نسبت إليه الحكاية ليس هو خليفة بن عمار وإنما هو خليفة بن وروا الزناتي[1] رئيس بني خزرون صاحب الولاية على طرابلس الغرب (عام 417 هـ- سنة 1027 م).

---

1. ورد في كتاب "البيان المغرب" ما ملخصه :
وفي سنة 400 هـ. توفي بطرابلس بعلة أصابته وولى مكانه وروا. وأطاعته زناتة. وفيها رحل أبو مناد نصير الدولة بعساكر عظيمة إلى طرابلس في طلب زناتة. ودخل نصير الدولة إلى قصر فلفل وجاءت رسل وروا بن سعيد أخي فلفل رغبة في الأمان والعفو.
وفي سنة 401 كان موت غرم بن زيري بن مناد بالقيروان وفيها توفي القائد جعفر بن حبيب.
وفي سنة 402 هـ. قدم خزرون بن سعيد بن خزرون الزناتي أخ فلفل المتقدم ذكره. وكان سبب وصوله اختلاف جرى بينه وبين أخيه وروا، فقصد إلى نصير الدولة، فقبله أحسن قبول، وكان معه نحو سبعين فارسا من زناتة، فأنزلهم وأحسن إليهم ثم بعد ذلك بأيام أعطاه مدينة فخرج إليها بالبنود والطبول.

ففي المنهل العذب قوله : اتصلت ولاية خليفة بن وروا وقومه من بني خزرون بطرابلس. وخاطب الخليفة بالقاهرة الظاهرة بن الحكم عام 417 هـ-سنة 1027 م، فأجابه إلى ذلك وأوفد في هذه السنة أخاه حمادا على المعز بن باديس بهدية فتقبلها وكافاه عنها. واتصل ملك خليفة بن وروا وقومه من بني خزرون الزناتيين بطرابلس إلى أن وصل العرب (أي بنو هلال وبنو سليم).

وكان خليفة المذكور في الحكاية والشيخ البكري الذي ذهب يزوره الشيخ المدعى بأنه رأى حروبهم بعينيه. كان في حدود عام 1180 هـ- سنة 1767 م، وهب أن خليفة غير هذا فإن المكان لا يناسبه لأنه ادعى أن ذلك كان قرب طرابلس كما تقدم في كلامه.

وأيضا فما نسبه للجازية من التحيز إلى خليفة الزناتي وإشارتها عليه بقتل بني عمها غير معقول لأنها كانت من النساء الذكيات العاقلات صاحبات الإدراك، وإنما اشترط أبوها أن لا يزوجها إلا لمن ظهرت شجاعته وقهر أقرانه فافتتنت من أجلها الرجال وتبارزوا عليها في وقائع عديدة كان الفوز فيها لذياب الهلالي السابق خبره. وقتل خليفة الذي نازعه عليها وكذلك قتل أبا خريبة ومكحولا أخوي خليفة كما جاء ذلك في كتاب "تغريبة بني هلال" والمحل الذي وقعت به الحروب كان بنواحي تونس بعد ذلك التاريخ حين تأخر خليفة عن طرابلس وسكن بقومه تونس وما حولها كما قيل.

وقد يؤيد هذا شعر خليفة المذكور الذي بالجزء الثاني عشر من كتاب "تغريبة بني هلال"، ونصه :

قال الزناتي والزناتي خليفة — تونس مدينتنا ونحن كبارها
من نسل حمير وأهل تبع نسبتي — نتلو كتاب الله في أسوارها

وفي رواية أخرى :

قال الزناتي والزناتي خليفة — تونس مدينتنا ونحن رجالها
من نسل حمير وأهل تبع نسبتي — نتلو كتاب الله في أمحالها

قال القدماء : ومن ذلك المحل خرج بنو هلال وبنو زناتة وطافوا أكثر أنحاء إفريقية وآخر العهد بهم كان في بحيرة نيني التي بقرب عين البيضاء الآن. فقتل ذياب خليفة هناك وجرح فرسه جرحا بليغا حتى صارت تئن منه. فقال لها قائدها : نيني يا البيضاء نيني. ثم ماتت في العين التي بشمال الجبل بانحراف إلى الشرق فسمى ذلك المكان : عين البيضاء، وبنيت فيه قرية تسمى بذلك المحل هي الآن آهلة عامرة.

ويؤيد ما تقدم ما هو مذكور في أول الجزء العاشر من كتاب "تغريبة بني هلال"، وما هو في كتاب "رحلة بني هلال" من أن الهلاليين وصلوا إلى وادي رشاش وانتقلوا منه إلى ما وراءه، وبعد زمن تفرقوا في الزاب وما يليه. ومنهم بالجريد عائلات وبتقرت وبسوف مع طرود كثير ومع غيرهم أكثر. والله أعلم بحقائق الأمور.

انتقال طرود إلى الوادي

قال الشيخ العدواني : بعد أن كانت طرود بعقلة الطرودي وإبلهم ترعى في الميتة وأبي دخان وكانت لهم سطوة عظيمة وصيت عال وقوة فخيمة بعثوا منهم رجلين وهما عمارة بن سالم والأسود بن سارية يطوفان في الأرض لعلهما يجدان متسعا يرفع مواشيهم حيث كانت تلك الأرض لا تسعهم. فوصلا العجيلة فالتقيا ببعض الرعاة هناك من بني عدوان فسألاهم عن أرضهم وكلئهم (حشيشهم) وعيشهم فذكروا لهما خيرا، فتقدما إلى قصور عدوان فوجدوا بها أمة اسمها شحمة وعبدا اسمه شكر وشيخا كبيرا قد عمر مائة وعشرين سنة قد علم أخبار الأولين ونبغ في الكهانة. وكانت الأمة فوق كثيب عال من الرمل وبيدها طبل من نحاس يسمع من بعيد فإذا رأت من لا تخشاه ضربته ضربة واحدة وإذا رأت من تخافه ضربته ضربتين ...

قال القدماء : إذا أتاها عدو ضربته بعنف وقوة وإذا أتاها صديق ضربته بلين ورق. فلما وصل الرجلان إلى العجوز أنكرتهما وظنتهما أعداء فضربت الطبل بقوة فخرج قوم بني عدوان بأسلحتهم فلما التقوا بهما رأوهما غير متأهبين للقتال فلم يقتلوهما وفرحوا بهما. قال لهما شكر زوج الأمة : إن كنتما في حاجة إلى الأكل فسآتي لكما بالخبز والماء وإن كنتما تسألان عن شيء فاقصدا الشيخ الكبير الذي بالقصر (البلد) فذهبا إلأيه وسلما عليه ثم سألهما عن قبيلتهما وما يريدان منه

فأخبراه بما كان، فقال لهما الشيخ : إن قبيلتكما طرود ستملك في أرض سوف وستبقى بها أبدا.

فقال الرجلان لبعضهما : حيث ظهر لنا هذا الخبر من الشيخ المبارك وقد أعجبتنا هذه الأرض الواسعة (أي أرض سوف) فعلينا أن نرجع إلى قومنا ونخبرهم فرجعا وأخبراهم بجميع ما رأيا وسمعا.

ثم إن بعض طرود وهم أولاد أحمد أتوا إلى محل الوادي الآن ونزلوا قرب سيدي مسطور، وفي ذلك الوقت كان سيدي مسطور قد سبق وقد أتى من المغرب ونزل بقرب أهل تكسبت فلم ينفوا منه ثم انقطع وحده للعبادة بمحل زاويته المشهورة الآن بالوادي وكان عند قدومه جعل عريشا (زريبة) من حطب وحلفاء يبعد عن تكسبت (تكسبت القديمة) بنحو ميل من الجهة الجنوبية. والصحيح أنه أتى من القيروان كما سيذكر إن شاء الله.

ثم بعد زمن قليل تلاحقت الناس ونزلوا قرب مكان أولاد أحمد الآن. ففرح بهم سيدي مسطور غاية الفرح وأكرمهم، وكان صاحب ماشية كثيرة قلّ من كان له مثلها في ذلك الحين، وكان وقت دخولهم إلى الوادي عام 800 هـ-سنة 1398 م.

وخافهم أهل تكسبت وانتشرت طرود قطعا قطعا من محل الوادي الآن إلى سندروس ووادي العلندي ونواحي الفولية وبورقيبة، فظفروا بالحجر على وجه الأرض وأخبروا به زعماؤهم فعزموا على بناء قرية هناك أو قرب محل تاغزوت الآن وهو القدائم. فأشار عليهم زعماؤهم بعدم بنائها هناك وأوصوهم بجعلها في مكان قرب تكسبت.

وفي ذلك الحين قدم أيضا من المغرب رجل صالح من أشياع العلويين (أي المتمسكين بسنتهم) يسمى عبد الله بن أحمد ومعه عبد يخدمه. فنزلا على أهل تكسبت ففرحوا بهما وأكرموهما لظنهم أن لا معرفة لهما بطرود والحال أن الرجل المذكور (أي الشيخ عبد الله) كان بنفطة وانتقل منها فمر عل طرود عندما كانوا بعقلة الطرودي فأكرموه، وعرف منهم أناسا ثم ذهب من عندهم إلى المغرب فاتصل بأحلاف العلويين وتمسك بشعائرهم وانقطع للعبادة ونبذ الدنيا وراء ظهره وترك التزوج، وبعد نحو سنتين وقعت له محنة مع بعض المجاورين فهاجرهم وأتى إلى سوف، وعند دخوله إليها لم يجد من كان قد عرفه من طرود لتفرقهم فقصد بلدة تكسبت ونزل بها ففعلوا معه ما ذكر من الإكرام. ويذكر البعض ان أهل تكسبت ألحوا عليه بالتزوج فتزوج منهم واختلط بهم وكان قلبه يميل إلى طرود ويسأل عن محبيه منهم حتى التقى فأوصوه بكتم ذلك عن أهل تكسبت مخافة أن يفعلوا به شيئا.

ثم وقع خلاف خفيف بين طرود وأهل تكسبت بسبب الماء لقلته في ذلك الوقت لأنه كان من الغدر ومن حفر في مجرى الوادي (وادي النازية).

قال الشيخ العدواني : بعد أن أقام طرود في النازية نحو العشرين سنة ومات كبيرهم هناك أوصاهم بوصايا كثيرة منها : أكرموا موتاكم فإنكم إن أهنتموهم تهانوا وإذا أردتم البقاء في سوف فانزلوا قرب تكسبت فذلك محل بلادكم إلى الأبد، وإذا أصابتكم نائبة فاستشيروا العقلاء الكبار منكم ثم إذا أشاروا عليكم فلا تخالفوهم بعد ذلك تهلكوا ...

قال الشاعر :

لا تستشر غير ندب حازم فطن   قد استوت منه أسرار وأعلان
فللتدابيـر فرســان إذا ركبـوا   فيها أبروا كما للحرب فرسان

وقال حسان بن ثابت رئيس الشعراء :

إذا كنت في حاجة مرسلا   فأرسـل لبيبـا ولا توصـه
وإن باب أمر عليك التوى   فـشاور حكيمـا ولا تعـصه
ونص الحديـث إلى أهلـه   فإن الأمـأنـــة في نصـــه

ثم قال كبير طرود في وصيته : ولا تختلفوا في شيء فإن العدو يدخلكم من جهة الاختلاف ويضركم، وأحسنوا لبني عدوان ليكونوا لكم عونا على من تعادونه، وإذا نزلتم بالغدر فلتكن كل قبيلة منكم حول غدير، ولا تضيقوا على بعضكم في المنازل والماء وإن نضب عليكم ماء الغدر فاحتفروا في الثماد بطريق جري الوادي فإن الماء فيه قريب وقد يكون عذبا، وإذا لم تجدوا ذاك فاجعلوا الآبار في جميع المواضع التي تحتاجونها زمن الرحلة أو الإقامة.

تنبيه :

يزعم بعضهم أن طرودا جاؤوا متاخرين إلى سوف وأن دخلوهم كان في حدود عام 1000 هـ-سنة 1592 م، وهو غير صحيح بل الحق ما قلناه والصدق ما نقلناه. ففي آخر كراس من تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ما نصه : آخر دولة بني مرين بويع الشريف على رضًى من

الناس واستقل بالخلافة، وعادت الخلافة في فاس إدريسية كما كانت وانقضت دولة بني مرين. وفي ثاني عشر لذي الحجة من عام 890 هـ. خرج السلطان بمحلته وذلك في خامس عشر أغشت (أوت)، ونزل بالزعترية وسار إلى بلاد ريغ (وادي ريغ) وهدم سور بلد تقرت لأجل مخالفتهم لقواده، وألزمهم مالا عقوبة فدفعوه ثم سار إلى قرب ورقلة فقدم فيها عاملا وأخذ منها ومن بلد مزاب مالا جليلا وانصرف قافلا إلى حضرية، فوفد عليه في أثناء قوله حفيده الأمير أبو عبد الله محمد المستنصر صاحب قسنطينة وانصرف إليها. وفي أثناء قفول الخليفة من بلاد ريغ فر من المحلة محمد بن سعيد المسكيني ولحق بطرود وطلب منهم إجارته فخشوا وامتنعوا من ذلك إلا طائفة يسيرة منهم أجاروه إلى أن لحق بمحمد بن سباع بن أبي يونس شيخ الذواودة فأجاروه ومنعوه ...

فهذا دليل واضح على أن طرودا كانوا بسوف في تلك الأوقات من غير شك. وفي "الخلاصة النقية" ما يؤيد تلك الحكاية وإنها وقعت في ذلك التاريخ قطعا. والله أعلم.

تنازع طرود وزناتة

بعد أن وقع الخلاف بين طرود وزناتة تكسبت من أجل الماء تخوف الأخيرون منهم فنشط بعضهم بعضا واجتمع رأي كبارهم على تدبير مكيدة لطرود ولم يظهروا ذلك لسفهائهم مخافة التحدث وإفشاء الخبر.

فبعث سيدي عبد الله بن أحمد إلى طرود يخبرهم بما عزمت عليه زناتة فسرى فيهم ذلك الخبر ونشط القوي الضعيف والغني الفقير لأجل القدرة على رد اعتداء زناتة.

وصار قوم زناتة يتطلعون الفرصة للغدر بطرود ويتجسسون على أخبارهم وعصبيتهم بعد تفرقهم في منازل متعددة. وصار يصعد منهم في الليل جماعة للحراسة فوق كثيب من الرمل يترقبون منه ما يصنع اهل طرود. فسمى ذلك المكان الرقوبة : وهو مكان غوط سيدي سالم العايب[1] الآن شرقا من زاويته بنحو ثلث ميل.

---

1. سيدي سالم العايب شيخ الطريقة الرحمانية ومؤسسها بسوف، مقبور بزاويته الشهيرة بالوادي. ومن رحالات هذه الزاوية أيضا الشمهود لهم بالخير والصلاح الشيخ سيدي محمد الصالح. فقد وجدت بمكتبتنا نسخة من كتاب قديم اسمه "البحر الطافح" من تأليف والدي تعرض فيه إلى فضائل الشيخ المذكور لا سيما الناحية التصوفية. هذا وإن الزاوية الرحمانية بالوادي لها فضل يذكر فيشكر في المحافظة على القرآن الكريم وارتفاع عدد حفاظه بالمنطقة.
قيل كان ميلاد الطريقة المذكورة حوالي عام 575 هـ-سنة 1180 م. أما الطريقة القادرية التي أسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني ببغداد فكانت حوالي عام 500 هـ-سنة 1107 م.

فلم يجد جماعة زناتة منفدا لمباغتة طرود لتحصنهم بالعسس في نواحيهم واجتماع أكثر الناس قربهم. فاشتوروا على ما يصنعون واتفق رأيهم على مهاجمتهم بغتة في ثلث الليل الأخير من الناحية الغربية لقلة ساكنيها.

فأخبر سيدي عبد الله طرودا بذلك وعين الزمان والمكان الذي تريد زناتة الهجوم منه فأخذ طرود أسلحتهم وباتوا وقوفا ينتظرون وإذا بقوم زناتة من كل حدب ينسلون فتلقاهم طرود بحزم متأهبين. وكان المكان الذي نزلوا فيه هو صحن القارة قرب تكسبت الموجودة في وقتنا هذا. وكان أصحاب الرأي من كل فريق يوعظوهم وينادون بالإمساك عن القتال[1] والكف عن الخصام فتأخر كل فريق إلى ناحيته.

قيل : قتل أفراد من طرود من بينهم سيدي يوسف صاحب الضريح المعلوم والمقبرة المشهورة (وجد نور على قبره بعد زمان فجعل عليه كوم من خشب كان بقربه ثم في الأزمنة الأخيرة جعلت عليه قبة ثم سقطت الأولى وجددت). والصحيح أن سيدي يوسف المذكور لم يكن من أهل ذلك الزمن وإنما كان من المتأخرين جدا، القريبين من وقتنا. فقد أخبرني شيخ كبير يقال له علي البهلي بأنه عاين ابن سيدي يوسف في الخنقة مجذوبا انتقل بعد موت أبيه بعد قليل. والله أعلم.

ثم التقى طرود وزناتة مرة ثانية قصد القتال بمحل أرض القارة الآن أعني بأرض القارة الجوفية (الشمالية) لا الأرض القبلية التي بحصن الماسط شرقا منه.

---

1. يقول النبي ﷺ : إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول للنار، قيل له يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول، قال : إنه كان حريصا على قتل صاحبه.

وقد انحاز إلى طرود كثير من فريق عدوان وخرجوا في عدة تامة وعدد كبير، ولما رأهم زناتة على هذه الحال سري في قلوبهم الخوف فتراجعوا منهزمين.

ورجع طرود وأنصارهم ظافرين غانمين الأسلحة والدروع والثياب عازمين على أنهم بعدما يصلحون شؤونهم يرجعون إلى قوم زناتة ليخرجوهم من ديارهم ويأخذوها منهم رغما. والله أعلم.

خراب تكسبت القديمة

وحيث كان القليل تابعا للكثير وكانت القرية الجديدة التي قرب تكسبت الآن صغيرة جدا يقال إنها كقرية سيدي عبد الله الآن أو أقل لم أحصها بترجمة إذ كان خرابها معها كما سيأتي.

قال القدماء : حين بلغ زناتة خبر طرود وعزمهم على تخريجهم من بلدتهم وتخريبها، عقدوا مجلسا لبعض رؤسائهم ومن جملتهم قاضيهم علي بن بركة الوصيف[1] وكانوا على دين الرافضة[2] وكذلك طرود في ذلك الوقت ولم يكن لهم اكتراث بذلك القاضي ولا امتثال لأوامره وإنما جعلوه اقتداء بمن جاورهم من البلاد مثل الجريد إذ أيقظها الله من نومها وأخرجها من ظلمتها على يد سيدي أبي علي[3] السني قبل سوف بكثير.

---

1. الوصيف كلمة تطلق في الجنوب على الزنجي والجمع وصفان أي الزنزج. أصلهم من إفريقيا الغربية. كان البرابرة الأولون المعبر عنهم بالتوارق يجلبونهم من هناك ضمن قوافلهم التجارية إلى غدامس. ثم صارت قوافل سوف تأتي بهم من غدامس فيوزعون على الأسر للعمل عندها فاندمجوا في أهل سوف وتأثروا بلغتهم ودينهم وعاداتهم وتكونت منهم أسر للعمل ونمى عددهم وتتابعت أجيالهم بسوف ونواحيها إلى اليوم. ولهم بعض العادات الخاصة وأولياء من جنسهم ينتسبون إليهم. ولهم حفلة تقليدية يحيونها سنويا يطلق عليها اسم حفلة سيدي مرزوق.
2. أطلق اسم الرافضة على من رفضوا خلافة أبي بكر الصديق ثم خلافة عمر بن الخطاب على أن عليا بن أبي طالب أحق بها في نظرهم. ومن بين الرافضة كثير عزة الشاعر المعروف.
3. سيدي أبو علي ولي صالح من جنس السود المتقدم ذكرهم. وقد عاش بالجريد ومات بها وله ضريح يزار قرب مدينة نفطة.

كانت نتيجة تلك الجلسة طلب الصلح من طرود وإظهار الغلبة لهم حتى يطمئنوا إليهم فإذا طال الحال وسارت الهدايا من الجهتين تتمكن زناتة من خدع طرود وقتلهم بوجه آخر.

فوقع الأمر كما ذكر وأهدى الزناتيون هدايا لطرود وطلبوا منهم العفو عما سلف قائلين لهم إنهم يودون قوما ذوي بأس شديد يحمونهم ويذودون عنهم وأنهم ما لازموا هذه الأرض إلا فرارا من أصحاب الظلم الذين كانوا متسلطين على الجريد واستصفوا أمواله وأذلوا رجاله وخربوا مساكنه الرفيعة.

فقبل طرود تلك الهدايا وتركوا ما كانوا عزموا عليه وسكن غيظهم وكثر التردد على كل قبيلة من الأخرى. واتفقوا على أن من يذكر الوقائع القديمة التي كانت بينهم ولو تعريضا يقتل ولو كان سيد قومه وأن القبيلة التي تبدأ بالشر يتسلط عليها أصحابها وغيرهم ويخرجونها من الأرض رغما.

فدام الحال كذلك نحو السنتين حتى نسيت طرود ما فات وأقبلت على إصلاح شؤونها وكان سيدي مسطور يقول لطرود : إياكم والغفلة عن زناتة فإنهم إذا تمكنوا منكم يقتلونكم وإذا لم يقدروا على ذلك يكيدونكم بمكيدة يهلكونكم بها. فلم يعبؤوا بقوله ظانين أن زناتة متمسكين بالعهد ويخشون من نقضة كما أنه كان يرشدهم في أمور دينهم ودنياهم كما فعل سيدي عبد الله مع أهل تكسبت حتى تركهم واشتغل مع عبده بالتعبد في مكانهما الآن.

وكان سيدي مسطور يقول لطرود : لا تمنعوا أحدا أجنبيا أتاكم من السكنى معكم بل أكرموه وزوجوه لتكثروا فتهابكم الناس وأيضا

فإن الولد الذي يأتي لكم من الأجانب يكون أشد بطشا وأشجع ممن يأتي لكم من بعضكم لحرارة الأول وبرودة الثاني كما قيل".

أقول : والمراد بالأجنبي العربي لا غيره. وقد أصاب سيدي مسطور في ذلك القول حيث أنه موافق للمعقول والمنقول[1]. فأما الأول فإن الإنسان إذا تزوج بابنة عمه لا يكون له فيها كبير اغتباط فيأتي ماؤه باردا فيتخلق الجنين منه فيكون غير نفاع. أما إذا تزوج بأجنبية فتكون رغبته فيها أشد وماؤه أقوى حرارة فيكون ولده كذلك. والحار يكون شجاعا والشجاع يكون سخيا.

وأما الثاني وهو المنقول، فلأمور كثيرة منها قول الشاعر :

ألا فتى لاقى العلا بهمه   ليس أبوه بابن عم أمه

ومنها ما قاله الباجوري في شرح قول كعب بن زهير في بانت سعاد :

حرف أخوها أبوها من مهجنة   وعمها خالها قوداء شمليل

ونصه : أشار بهذا إلى كمال قوتها وصلابتها وغاية كرمها ونجابتها لأن البهائم إلى قراباتها أشهى منها إلى غيرها ومتى كانت الشهوة أكمل كان الولد أقوى وأنجب. فتقارب الأنساب مدح في الإبل لأنه فيها سبب للقوة والنجابة بواسطة كثرة الشهوات في القرابات بخلافه عند الآدميين فإنه سبب للضعف لأن شهوة الإنسان إنما تتحرك بالنظر إلى الأمر الجديد الغريب أما المعهود الذي دام النظر إليه فلا تتحرك الشهوة كثيرا معه ولا تثور ثورة حارة عند مخالطته، ولذلك قال بعضهم :

---

1. قد أثبت الطب الحديث أيضا صحة هذا الرأي أي أن التزوج بغير القريبة في الدم أسلم لصحة النسل.

إن أردت الإنجاب فانكح غريبا   وإلى الأقـــربين لا تتوصـــل

فانتقــاء الثمــار طيبــا وحسنا   ثمـر غصنــه غريب موصـــل

وفي الحديث : "اغتربوا ولا تضووا" والضوى بوزن الهوى هو الضعف والهزال في الولد وذلك بتزوج القرابات. والعرب تمدح بضد ذلك قال الشاعر :

فتى تلده بنت عم غريبة   فيضوي وقد يضوي سليل الأقارب

وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا تنكحوا القرابة القريبة فإن الولد يخلق ضاويا" والضاوي شديد النحافة.

ولا حجة في قول الشاعر :

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا   بنوهن أبناء الرجال الأباعد

لأن المراد بذلك القرابة والأولوية في الأقرباء لا المراد بذلك الفائدة التي ذكرناها كما قيل في سبب إيراد البيت وهو أن المغيرة بن شعبة كانت له بنت جميلة خطبها منه ابن أخيه وابن أخته فقال لهما : كل منكما قريب ولا أدرى لمن أزوجها منكما لتساوي رتبتكما ولكني أكتب إلى عبد الرحمان بن الحكم وأفوض له أمرها فيزوجها بمن يشاء منكما. فحملا إليه الكتاب فقرأه ثم كتب له يخبره بأن يزوجها لابن أخيه وفي ذلك الكتاب قوله : بنونا بنو أبنائنا ... الخ.

ثم أراد طرود بناء قرية بقرب تكسبت فمنعتهم زناتة معتلين بأن الأرض ضيقة وماؤها قليل لا ينبغي التزاحم فيها والأفضل التباعد ليجد كل واحد أرضا حول بلده ترعى فيها الحيوانات وتسرح بها الدواجن (جمع داجن : هو الحيوان الذي يألف البيوت).

فاتفق رأي طرود على تهيئة الحجر وحرق الجبس في موضع لا يراهم فيه الزناتيون ويبنون خفية حيث أرادوا وإذا تم ذلك لا تقدر زناتة على نقضه.

فحرقوا حينئذ الجبس في سندروس وأتوا بالحجر من الفولية وبنوا لزعمائهم بيوتا صغارا أي بيتا لكل واحد منهم في المكان المسمى الان (البلد) في حافة السوق الغربية شرقا من منازل اليهود الكائنين في هذا العهد وكان اليهود وقتئذ ما زالوا بنواحي جهلمة[1] ففي ليلة واحدة

---

1. كان وجود اليهود مبدئيا بشمال إفريقيا منذ القرن الأول قبل الميلاد وقد قدموا إليها إثر الغزو الروماني لفلسطين واستقر البعض بأرض الجزائر حيث سكنوا المدن والقرى بالشمال والوسط. ومن مشاهير رجال الدين عندهم شمعون بن إسحاق ومن سلالته طريف الذي شرع دينا جديدا في عهد هشام بن عبد الملك وقد سبق الكلام عنه في التعليق عن موضوع العلويين ومرورهم بسوف. ولما كان عهد الفندال بالشمال الإفريقي ومحاربتهم للأديان، فر رجال الدين المسيحي إلى المنطقة الجنوبية وتبعهم في ذلك اليهود فتوزعوا على الزاب وبسكرة وتقرت وورقلة وغرداية وأخيرا منطقة سوف فنزلوا بقريتي جهلمةوسحبان. وبعد تأسيس مدينة الوادي وقرية قمار انتقلت إليهما بعض الجاليات اليهودية. ولليهود بسوف أماكن قديمة تنتسب إليهم مثل المكان المسمى شوشة اليهودي، وسيف اليهودي ونزلة موشي. وقد تناسلت الجاليات اليهودية بسوف مع مرور الزمن وكثر عددهم بالوادي، منهم ربيون وبيعة لأداء شعائر دينهم، وأغلب حرفهم صنع الحلي من فضه أو ذهب، وصنع القرداش لندف الصوف وبيع خمر النخيل وإعطاء الديون بالربا وقد امتلكوا مع عملهم كثيرا من النخيل وقد قلدوا أهل سوف في لباسهم وطعامهم وأظهروا لهم توددهم وإتباعهم في أفكارهم وعاداتهم بل بلغ الأمر بالبعض منهم حتى إلى الانتساب في الظاهر لطريقة من الطرق الدينية بسوف.

أتموا سبع بيوت ولم تعلم زناتة بذلك وزادوا في الليلة الثانية تسع بيوت. وقيل كانت التسع في الليلة الأولى والسبع في الثانية. ولما فطنت زناتة اغتاظوا غيظا شديدا وعزم بعضهم على هدم ذلك البناء فمنعهم كبارهم قائلين لهم : لا تفعلوا شيئا إلا بمشورة من له الرأي فيكم.

فاختاروا من قومهم عشرين رجلا ثم انتخبوا من العشرين خمسة وكانوا إذا عزموا على التكلم في أمر يبتعدون عن القرية بناحية يتيقون قلة سالكيها وبنحو ميل أو أكثر. فأبدى كل واحد رأيه ثم قال كبيرهم : أيها الناس إن طرودا ما فعلوا هذ الأمر إلا لأنهم عزموا على إرغامنا عليه. فإن الغالب ظلوم. وقد حكي أن ذئبا أتى نعجة رابضة فجلس عند فمها وهي تقطع جرتها (أي تجتر) فقال لها : أنت تمضغين وأنا لا أطيق سماع مضغك فاسكتي، قالت له : كان عليك أن تجلس في مكان غير هذا فإن الأرض واسعة والفيافي لا حس فيها. فقام الذئب من هناك وجلس عند ذنب النعجة فقالت له : تأخر عني إلى محل آخر. فقال : لا أتأخر فهذا هو الموضع الذي قسمه الله لي. وكان من عادة النعجة إذا مضغت تحرك ذنبها فسقط منه شيء من التراب على وجه الذئب فقال لها : ألم تعلمي بأني قاضي الحيوانات لا أقبل من يشوه خلقتي بالتراب أو يتعدى علي بشيء فوثب عليها وأكلها. والرأي عندي أن لا تظهروا الجزع والنفور من مجاورتهم بل أظهروا لهم البشاشة ورغبتكم في مساكنتهم غير أنكم كنتم أردتم منهم البعد قليلا وحيث لم يتيسر ذلك منهم فلا بأس بالبناء بالمحل الذي بنوا فيه. وإذا اطمأنوا لكم وطال الأمد اجعلوا لهم مكيدة.

فسمعوا كلام كبيرهم. وكان من بين جماعة المجلس الشوري سيدي عبد الله بن أحمد. فأخبر رؤساء طرود بما أرسى عليه أمر زناتة وأوصاهم بكتمانه عن عامتهم لئلا يظهر الخبر.

فزاد طرود في البناء جهرا وجعلوا زرائب من الحلفاء والمرخ قائمة على خشب الأزال واشتغلوا بالأسفار إلى النواحي القريبة كالجريد والزاب ووادي ريغ خصوصا تماسين كما يسافرون إلى ورقلة وغدامس وتارة حتى إلى السودان. أما الجهات الأخرى فقليلا ما يذهبون إليها لكثرة قطاع السابلة فيها ومرور الجيوش بها وكثرة الأهوال في ذلك الحين.

فلما طال الحال عزم الزناتيون على فعل المكيدة التي كانوا عزموا عليها سابقا واتفقوا على ضيافة قوم طرود وأن يكون ذلك في وقت العشاء لئلا تظهر المكيدة وقد فكروا وضع السم في الطعام ليموت كل من أكل منه. قيل إنهم جلبوا سم ساعة من الأندلس. فنهاهم سيدي عبد الله عن ذلك قائلا لهم أن طرودا تركوا إذايتكم وواخوكم وأزالوا ما في صدورهم عنكم ويكرمونكم غاية الإكرام. فلم يصغوا لقوله متعللين بأن طرودا ما تركوا إذايتهم إلا حين نالوا ما أرادوا.

ثم استضاف الزناتيون طرودا فأجابوهم لذلك ظانين عدم الخديعة وإنهم ما فعلوا ذلك إلا لتمكين الروابط ناسين ما قد أخبرهم به سيدي عبد الله. فاشتغل الزناتيون بطبخ الطعام من الصباح وكانت قريتهم لها سور وبهذا السور بابان وفي كل باب حارس يتفقد أحوال الداخلين والخارجين فإذا رأى الحارس ما يشك فيه يخبر أصحاب الشرطة (الحكومة) فيبدون فيه رأيهم. وكان أهل الشورى أخبروا أهل القرية

بأن لا تذهب قصعة إلى طرود حتى تمر عليهم (تمر عل أهل الشورى ليضعوا فيها السم).

وكان سيدي عبد الله يترقب الفرصة ليذكر طرودا بصنيع زناتة وليتجنبوا أكل طعامهم فأرسل عبده إليهم بإنزاله من جدار السور الغربي فوصلهم في الحين وأخبرهم بما كان. فلما بلغ الخبر إلى طرود اشتوروا في الأمر واتفق رأيهم على أن لا يظهروا ذلك إلى الزناتيين ولكن يشيعون أنه أتاهم خبر بأن أبلهم أغار عليها العدو في الصحراء الشرقية ويظهر فتيان طرود اللحاق بها ثم يكمنون في المكان المسمى الآن العلنداوي حتى يفوت وقت الطعام ويفسد وعندئذ يرجعون.

فأكثر أهل طرود الضجيج والبكاء وأظهروا الحزن بضرب الطبل (وهو قصعة مغشاة بجلد جمل قد تجتمع حوله النساء ويضربنه بعصى قصيرة ويفعلن مثل ذلك في الأعراس والمواسم ومقدم الغزاة. وكن في الأفراح يولولن أي يزغردن وفي الحزن والتفجع ببكين ويندبن وإلى الآن يوجد ذلك في البادية).

فلما جن الليل أقبل جماعة زناتة بالطعام إلى منازل طرود وجلسوا حسب وصية كبرائهم لينظروا أكل القوم، فاعتذر طرود عن الأكل متعللين بأن أكبادهم مجروحة بما حدث لإبلهم ولا يدرون أيضا ما حال أبنائهم في الموت أم في الحياة.

حينئذ رجع جماعة زناتة بالطعام ووقع في نفوسهم من ذلك شيء ولكنهم لم يجزموا فأراقوا ذلك الطعام في حفر عميقة وردوا عليها التراب.

ثم من الغد قدم فتيان طرود وظهر أن أمر الإبل لم يكن منه شيء فتيقن الزناتيون بأنه أخبرهم بالمكيدة مخبر ولا يكون غير واحد من أصحاب المجلس إذ لم يطلع غيرهم على ذلك الخبر قبل إحضار الطعام حيث حذروهم من الأكل منه.

وذهبوا يطوفون حول السور عساهم يجدون أثرا فوجدوا أثر قدمي[1] العبد أي خادم سيدي عبد الله عندما نزل السور ذاهبا على طرود وراجعا من حيث نزل. فأتوا إلى سيدي عبد الله ولاموه عل فعله وهددوه، قيل وفرقوا بينه وبين زوجته، وأخرجوه من بينهم فنزل بالمحل الذي به زاويته الآن وجعل عريشا له وعريشا لخادمه يتعبدان فيهما.

واتضحت العداوة بين طرود وزناتة وانقطعت المواصلة بينهما. وكانت امرأة من زناتة لها محبة مع رجل من طرود تختلف إليه في بعض الأحيان. فأتته يوما وأخبرته بأن جهة السور الغربية قد سقطت وأنها الآن خالية من الحرس. فأخبر قومه طرودا بذلك واجتمعوا في آخر ذلك الليل وجمعوا شتاتهم ثم هجموا على الزناتيين من جهة السور التي سقطت، وكذلك ذهب بعض من طرود إلى القرية الأخرى وهي بلا سور وهجموا عليها. فما طلع النهار إلا تم لهم ما أرادوا وانجلى جميع من كان بالقريتين من زناتة فمنهم من توجه إلى نفطة ومنهم إلى ورقلة والأكثر إلى تقرت.

---

1. يبدو مما ذكر أن آثار الأقدام (الجرة) كان معمولا بها لاكتشاف أصحابها منذ عهد البربر بسوف.

وخلا الجو لطرود بعد انجلاء زناتة عن الأرض فجالوا فيها من غير معترض وانتشرت أحياؤهم واتسعت مراعيهم واستتب أمنهم ولله في خلقه شؤون.

وكان ذلك في عام 818 هـ- سنة 1416 م تقريبا أعني أن انتهاء تلك الحوادث وحصول الراحة في ذلك التاريخ لا دخولهم لما سبق لك خبره. والله أعلم.

دخول بني سليم إلى سوف

هم بنو سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن عدنان. وكانوا بطونا كثيرة، جوالة في إفريقية من زمن دخول العرب أو بعدهم بقليل إذ الكثير منهم التحقوا بالهلاليين حين دخلوا فكان منهم في نواحي طرابلس بنو ذياب وآل سليما وبنو وشاح والمحاميد الذين منهم غومة المحمودي الذي دخل صحراء سوف كما سيأتي إن شاء الله. وكذلك منهم النوافلة والبركات والبلابيش والبشرة ولحوتة وبشرقيهم البهجة والأفراد والهنادي وبغربيهم النوايل وأولاد سنان، ومنهم بداخل إفريقية جميع الباقين.

ففي حدود عام 835 هـ-سنة 1432 م أتى جماعة من المحاميد وجماعة من النوافلة إلى ضواحي القيروان فنزلوا بغربيها.

قال القدماء : بلغنا أنه كادت تتألف منهم عصابة تشاقق الحكومة لميل الناس إليهم ووثوقهم بقوة شوكتهم وعدم لينهم فنزلوا على الذواودة مستجيرين بهم عندما بلغهم أن السلطان سيقاتلهم وأنه يقبل شفاعة الذواودة لجاههم عنده.

أقول: كان الوالي في ذلك العهد هو محمد المنتصر بن المنصور بن أبي فارس عزوز أو كان أبوه المنصور لكن كلام القدماء يناسب الأول.

قال في الخلاصة النقية : "خرج من محلته أبو زكرياء بن أبي عبد الله وأخوه والتفت حولهما الأعراب فوجه السلطان (محمد المنتصر) عسكرا

لحفظ الحاضرة (تونس) واستدعى أخاه عثمان من قسنطينة وكان خلفه عاملا بها ورجع إلى الحاضرة وعقد لأخيه المذكور على حرب الأعراب فكانت بينهم حروب طويلة. وقدم أولاد أبي الليل منهم لقتال السلطان ونزلوا بسبخة باب خالد والسلطان على حاله من المرض يركب لقتالهم كل يوم حتى بلغهم قدوم المولى عثمان فأجفلوا ولقيهم فهزمهم ورجع ظافرا. ولما رأى الأخوان اختلال حالهما تطارحا على شيخ الذواودة فقدم بهما شفيعا إلى الحاضرة فقبل السلطان شفاعته ثم اعتقلهما حتى هلكا ... الخ.

أقول : يمكن أن الذواودة شفعوا في القادمين أيضا.

وقال القدماء : ثم في نحو عام 838 هـ-سنة 1435 م، أجلب المحتمون بالذواودة على بعض النواحي وانضمت لهم جموع كثيرة فالتمس الوالي من الذواودة إخراجهم من أرضه فارتحلوا جميعا إلى الزاب ووادي سوف ورجع البعض منهم إلى نواحي طرابلس، وكان دخولهم إلى سوف في حدود عام 840 هـ-سنة 1437 م. فنزلوا بنواحي الحجرة الآن. ثم بعد سنتين بنوا قريتين إحداهما كانت بالمكان المسمى الهنشير غربي الحجرة وثانيتهما بمكان جبانة (مقبرة) كوينين القبلية. وأكثرهم كان يجعل في زمن البرد حفرا عميقة كالآبار يثقبونها في جهة ويسكنونها بدل البيوت ويخزنون فيها ما يحتاجون إليه بحيث إذا مر أحد بتلك الأرض لا يرى فيها إلا قليلا من الناس وإذا حدث حادث وصاح صائح يراهم يخرجون من الأرض ويغطون وجه البسيطة. وكان

البناء بذنيك الموضعين قليلا يكاد لا يذكر. وسكنى الظاهرين كانت في الخيام وزرائب الحلفاء.

وكانوا يذهبون إلى طرود فيشترون منهم ما يحتاجون. واختلطوا معهم في كثير من الأشياء يتأثرون لمصاب بعضهم بعضا. فإذا حلت نائبة بأحد من بني سليم أو من معهم يذهب إليهم طرود يتوجعون معهم ويقيمون عندهم الأيام العديدة. وإذا أصاب بعض طرود شيء يفعل معهم بنو سليم مثل ذلك.

ثم طال أمد السكنى واختلط طرود وبنو سليم ومن معهم وتصاهروا وانتقل كل لمحل الآخر عند رغبته أو إرادته القرب من قريبته المتزوجة هناك وصاروا جميعا كالقبيلة الواحدة لكن غالب طرود كانوا بالوادي وغالب سليم بالهنشير ومحل مقبرة كوينين ونحوهما، والله أعلم.

تذييــــل

قيل : في حدود عام 900 هـ-سنة 1495 م، وقع طاعون عظيم بإفريقية تفرق بسببه كثير من ساكنيها بالنواحي القاصية من جملتهم طائفة من بني مجور.

قال الشيخ العدواني: "إنهم من الهمامة إخوان بني سليم، كانت أخبارهم متواصلة مع الذين بسوف. فأتوا إليها وسكنوا حول الهنشير ... الخ. أقول : الصحيح أنهم من طرود تصاهروا مع الهمامة. وإن ذلك الوباء الذي ذكر كان في ولاية أبي زكريايحي بن محمد المسعود بن عثمان بن أبي عبد الله محمد عام 899 هـ-سنة 1494 م، ولكن في أواخر السنة.

قال القدماء : فأقاموا (أي الوافدون) مع بني سليم على تلك الحالة ولكن حيث كانوا قليلي المواشي صاروا يترددون على الصحراء فكلما وجدوا جملا أو ناقة لا راعي لها أخذوها واستحلوها.

ثم استرسلت العرب من كل جهة وامتلأت بهم النواحي فتضجر طرود من ذلك. وقالوا إن فتحنا هذا الباب على أنفسنا لا تجد مواشينا ما تأكله، فالرأي منع جميع الوافدين سوى المارين والذاهبين إلى جهة أخرى، وتساهموا على من يذهب بقومه لسد الثغور التي يدخل منها الوافدون. فخرج سهم حامد في موضع الزقم الآن وسهم شباط في الكتف ونواحيه، وسهم حمرون بن خليفة في موضع عميش وسفيان في الطريفاوي وزيد في جهلمة وسهم بني مجور في بوحمار حيث صاروا من أهل سوف.

وحصنوا تلك الأماكن بالحراسة والسلاح وصاروا يمانعون كل وارد ثم اتفقوا على رأي آخر وهو أنهم يسألون القادمين فإن كانوا ممن لهم قرابة بهم يتركونهم يدخلون ويسكنون حيث أرادوا أو يقسمونهم على المنازل، وإن كانوا أجنبيين يمنعونهم.

وعندما تكاثر الناس جددوا القرعة على الثغور المذكورة مرات عديدة كان آخرها انتقال حامد من الزقم إلى الميتة وترك أولاده بها ومات هناك ورجعت زوجته في خبر يطول ذكره والقصد هنا الاختصار. والله أعلم.

خروج بني سليم من سوف

حكى لي المرحوم نصر بن فطحيزة القرفاني[1] أنه كان يجتمع كثيرا بشيخ من الربايع قد عمر فوق المائة سنة وكان كامل العقل، صحيح البصر فيخبره عن أحوال سوف تفصيلا وترتيبا كأنه حضر مع جميع من دخلها، ومن جملة ذلك سأله عن سبب الشحناء التي وقعت بين مداشر سوف. فقال إنه حين تساهمت طرود ومن معهم على سد الثغور وكان لبني سليم وبني مجور الناحية الغربية. واتفقوا كما ذكرنا سابقا على أن من كان منهم يسمحون له بالدخول ومن ليس منهم يمنعونه، ومن يخالف ذلك يطرد. فأتت جماعة من جهة الغرب ليسوا منهم فنزلوا على بني سليم وقدموا لهم بعض الهدايا كانوا أعدوها لهم من قبل. فأوصوهم بإخفاء نسبهم وأن يظهروا الانتساب لبني هلال الذين بالزاب ففعلوا.

وكانت طرود ترسل كل شهر رجلا أمينا يطوف ويتفقد المراكز. ففي تلك المرة عثر على أولئك الناس، فعرفهم من لغتهم فأنكروا واختلى الرجل ببعض صبيانهم فسألهم فعرف الحقيقة. فرجع إلى طرود وأخبرهم بالأمر فكبر عليهم ذلك حيث كان صادرا من إصهارهم بني سليم. وحيث لم يرضوا بنقض ما كانوا أبرموه، طلبوا من بني سليم

1. نصر بن فطحيزة : من قبيلة القرفين، فصيلة الشراعبة عميزة الفطاحزة عميرة الفطاحزة كان من جملة القدماء والشيوخ الكبار الذين كانوا بقيد الحياة أثناء قيام المؤلف بهذا التأليف.

ومن معهم الخروج من أرض سوف. فتعلل بنو سليم بعدم القدرة في ذلك الوقت وطلبوا التأخير إلى زمن قريب فأمهلوهم. ثم سعى بنو سليم إلى بني حامد رؤساء الثغر الشرقي وبني زايد رؤساء الثغر الجوفي وأعطوهم شيئا من المال. وكانت مصاهرتهم معهم أكثر من غيرهم. وعليهم صدق قول الشاعر لصاحبته :

هل تعلمين وراء الحب منزلة تدنى إليك فإن الحب أقصاني

فأجابته بقولها :

اجعل شفيعك دينارا تقدمه إن الدراهم تدني كل إنسان

فأجابوهم لذلك بشرط أن لا يقاتلوا معهم إن أفضى الأمر إلى ذلك فقبل الطالبون شرطهم. فأتى الحامون إلى إخوانهم طرود وطلبوا منهم العفو عما حدث من بني سليم وأظهروا التعصب مع أصهارهم لكن طرودا أبوا شفاعة إخوانهم قائلين لهم : إن شاء بنو سليم الرجوع إلى مواطنهم فليكن مرة أخرى.

وارتحل بنو سليم إلى الجبل الذي بنواحي سيدي عبيد. والتحق بهم بنو حامد وذهب بنو زائد إلى الزاب الغربي ونواحي الأغواط ولم يبق بسوف إلا طرود ومن كان على شاكلتهم من مخالط أو مصاهر[1] وكان ذلك في حدود عام 912 هـ- سنة 1507 م.

1. في هذه الحادثة خرج بنو سليم من سوف وتبعهم بعض من لهم بهم صلة وثيقة من طرود لا سيما أصهارهم مثل بني حامد وغيرهم إلا أنهم سئموا فيما بعد العيش تحت سلطة الولاة بالزاب وغيره فعادوا إلى أرض سوف حوالي سنة 1530 م.

ثم بعد زمن فسيح ضاقت أنفاس طرود الذين صاروا تحت الحكم بعد أن كانوا لا ولاية لأحد عليهم وخاطبوا طرودا في الرجوع إلى أرض سوف فأذنوا لهم فرجع كل من كان في محل إلى محله إلا بني سليم فلم يرجع إلا النزر اليسير. ورجع بنو مجور إلى منزلهم.

وصاروا يبحثون عن الحفر التي كان طمها طرود سابقا علهم يجدون فيها بعض النقود. حكى له[1] أن بعضهم استغنى من ذلك ومن جملة ما وجدوه بجهة منازلهم الغربية الجوفية كانونا صغيرا وجرابا فيه كثير من الجواهر الثمينة. وحكى له أنه رأى بعيني رأسه عند أحد المسلطين على سوف سابقا جوهرتين كبيرتين وسمع من أحد الثقات الذين ببني مجور على الجراب ما وجدوا فيه فقال : لا أقدر أن أقوم ما فيه ولكن الذي ظفر به أعطى لمن رآه كي يستره نحو المدين من الجواهر باعها بألف درهم وكان لا يعرف لها قيمة.

قيل ذهب ذلك الرجل إلى تونس ولم يعد إلى هذه الأرض.

وكان رجوعهم واستقرارهم في حدود عام 936 هـ- سنة 1530 م. والله أعلم.

1. يعني أن الشيخ الكبير من الربائع حكى للمرحوم نصر بن فطحيزة.

وفد طرود للشابي[1]

حكى القدماء وكما قال الشيخ العدواني : كان بعض الأفراد من طرود يترددون على القيروان لمعارف لهم هناك ويأتون ببعض السلع ولا يكون ذلك إلا عند حصول الهدوء في الطرق وتكون العير التي معهم يخفرها نحو الخمسين أو الستين رجلا شاكين السلاح مخافة من قطاع السابلة. فوقعت معرفة بين الشابي ورؤساء التجار واستخبرهم عن قومهم وقوتهم ومقدار نفعهم فذكروا له فخرا كبيرا. وكان الشابي يشعر بمبادئ الشر بينه وبين الوالي حيث وقعت وحشة بينهما سابقا. ثم كثرت الشكوك والوسواس بينهما فعاد الحال إلى ما كان عليه.

وأهدى الشابي لأولئك الجماعة هدايا واتفق معهم على أنه إذا أراد القيام على الوالي وقصده بسوء يكونون عونا له عليه وذا فعلوا يجري

1. حسب القرائن التاريخية إن وفد طرود هذا كان في عهد ولاية المسمى عرفة بن أحمد ابن مخلوف الشابي أعني في عهد الإبن الثاني لأحمد مؤسس الفرقة الدينية بالقيروان وجد الشابيين. فقد ولد أحمد بن مخلوف بقرية الشابة في النصف الأول من القرن الخامس عشر، وكان شيخا صوفيا مثقفا انتقل إلى القيروان وتولى إمامة أحد مساجدها فنال شهرة واسعة وثقة كاملة الأمر الذي جعله يحصل في تلك المناطق على جمهور كبير من الأتباع والأنصار وبالتالي الرئاسة عليهم. وبعد أن توفي أحمد بن مخلوف سنة 1482 م. خلفه ابنه الأكبر محمد الذي لم تدم مدة رئاسته سوى قرابة الثلاث سنوات فمات. ومنه تولى الرئاسة الإبن الثاني عرفة بن أحمد بن مخلوف الذي عمل جاهدا لأجل المحافظة على استقلال ولاية القيروان سياسيا من تنافس الأتراك والإسبان على الوطن بعد اضمحلال الدولة الحفصية.

لرؤسائهم مرتبات ويعطي عامتهم ما يرضيهم فأخبروهم بخبر الشابي ثم بعثوا رسلا إلى الشابي يجيبونه بقبول طرود لطلبه.

أرجع الشابي الرسول إلى طرود قائلا لهم : إني على وشك القيام ولا يتخلف منكم إلا العاجز وحين سمعوا تساهموا على من يذهب ومن يبقى يحفظ الأرض ومن يكون رئيسا على كل قبيلة.

ثم تجمع خمسمائة فرس وثمانمائة رجل وذهبوا. ولما وفدوا عليه وجدوه نازلا بعبيدة وهو محل قرب الكاف فاهتز لهم فرحا وسرورا ثم قام مرحبا بهم وقال لهم : يا طرود من نصرتموه انتصر ومن كسرتموه انكسر، قليلكم كثير وكثيركم لا حد له.

وكان مع الشابي جنود عظيمة وخيل وابل سدت النواحي. فأتاهم الوالي بجموع كثيرة ملفقة من العربان وتقاتلوا بذلك المكان مرات عديدة فهزموه إلى أن دخل سوسة.

وبعد أيام يسيرة أعاد الكرة على القيروان فوجد الجيوش قد أحاطت بها من كل جانب ومكان فتأخر. فرأته طلائع الشابي فأخبرته به. فأمر الشابي الأقوام باقتفاء أثره حتى يقتل أو يؤخذ أسيرا. فلحقوا به في فيافي الحاجب وتقاتل الفريقان، مات فيه من كلا الفريقين خلق كثير. وآخر الحال تأخر قوم الشابي، وفي أثناء ذلك قال الطروديون لبعضهم بعضا : إن العار في انهزامكم حيث أن الرجل (أي الشابي) وثق بكم واستنجدكم من مكان بعيد للثبات والفوز، فالموت دون الرجوع. وحلفوا أن لا يرجع أحد منهم إلا إذا كان ظافرا وحملوا حملة صادقة على جيوش الوالي فهزموهم ثم تتبعوا أثرهم يأخذون الغنائم والأسارى.

ولما تسامعت جنود الشابي بخبر طرود كروا راجعين فوجدوا الأمر قد فاتهم. وحملت تلك الغنائم إلى الشابي فأعطى قسمة منها إلى طرود والقسمة الباقية إلى جيوشه ولم تقبل طرود بالقسمة فانصرفوا بغيظهم إلى سوف عازمين على عدم نصرته مرة أخرى.

ولم يذكروا لهذه الوقائع تاريخا. ولعل ذلك كان في حدود (عام 942 هـ- سنة 1536 م) ويرجع ذلك ما في كتاب المؤنس : "إن السلطان الحسن بن أبي عبد الله محمد بن الحسن بن محمد المسعود كان بعد سنة الأربعاء جمع عربانا وجموعا وخرج إلى القيروان لقصد افتكاكها من يد الشابيين فلما قرب منها خرج إليه أهل القيروان فانهزم هو زمن معه وأخذت أمواله ورجع مكسورا ...".

وسنة الأربعاء في عام 941 هـ-سنة 1535 م، كما ذكر ذلك نفس الكتاب وما في كتاب الخلاصة النقية في آخر ترجمة الحسن المذكور وخير الدين وهو أن الحسن خرج إلى أخذ القيروان من الشابي فهزمه فركب البحر إلى إسبانيا الخ ... والله أعلم.

غرس النخيل بسوف

كان أهل سوف في الزمن القديم يمتارون التمر من الجريد ونفزاوة وفزان وتماسين وورقلة وتقرت[1] ويأتون ببعض الحبوب من الزاب وبعضهم يجعل فدادين بوادي الجردانية وحوله عند تكاثر الأمطار. وإلى الوقت القريب توجد آثار الحرث هناك.

وكان سيدي مسطور قبل انتقاله إلى الدار الآخرة يشير عليهم بغرس النخيل و لم يمتثلوا وعند ارتحاله أوصى بنيه بذلك فتماطلوا.

وبعد زمن رأى أحدهم أباه في المنام يحفر قرب زاويته فسأله عن ذلك فلم يجبه ففهم منه غضبه عنه فتلطف معه حتى أجابه بأنه سيغرس نخيلا.

فاستيقظ الإبن مرعوبا من ذلك ثم توجه إلى الجريد من حينه وأتى منه بغرسات وكانت الأرض التي قرب الزاوية ثمادها (طلوعها) قريب، فحفر قليلا وغرس الغرسات من غير تعب ولا كلفة في المكان المعروف الآن بغوط سيدي مسطور.

قيل كان ذلك بواسطة ابنه مسطور بن الهادي بن مسطور.

---

1. يقال إن الأسبقية للبرابرة في غراسة النخيل بالصحراء بدليل أن أسماء كثير من التمور هي أسماء بربرية مثل : تنصليت، تفزوين، تفرزايت... الخ قد يكون ذلك صحيحا بالنسبة للنخيل بالجريد، وفزان، وتقرت، وتماسين، وورقلة. أما بالنسبة لأرض سوف: الراجح كان بعد دخول العرب.

ثم رأته الناس فاتبعوه وفعلوا كفعله وما زال يتزايد شيئا فشيئا حتى امتد من الوادي إلى الجهة الجوفية ثم امتد إلى الناحية القبلية حتى وصل عميشا.

ثم ازداد عرضه مشرقا. وكان كالخط لا يزيد على غوطين أو ثلاثة من الغرب إلى الشرق واقتفت آثارهم بقية مداشر سوف. وما زال يتفرع ويزيد إلى زمننا هذا.

قيل كان ابتداء غرس النخيل المذكور في حدود (عام 946 هـ– سنة 1540 م). لأنهم يذكرون أن ذلك كان بعد قفولهم من الشابي بنحو أربع سنين. وكان سيدي الهادي الذي فعل ذلك عمر مائة وثمانية. والراجح أن ذلك التاريخ كان زمن الغرس عند عامة الناس. وأما الابتداء الحقيقي فكان في زمن سيدي مسطور الأول لا في زمن مسطور بن الهادي المذكور وذلك أن الهادي كان يسافر إلى غدامس. فلما أحل بها في بعض الأحيان وجدفيها غرسات أتوا بها من فزان فاشترى منها غرستين أو ثلاثا وجاء بها فغرسها. ثم أرسل مرة أخرى ابنه مسطورا إلى الجريد فأتى له بغرسات من نوع آخر وهذا كله من كلام القدماء. كما يقولون إن الفزانية التي سقطت في الأعوام الماضية والفزانية الموجودة الآن هما اللتان أتى بهما الهادي.

أقول : إلا أن تكون الاثنتان الأوليان سقطتا منذ زمان وهاتان أخريان استنبتوهما منهما. والله اعلم بالحقيقة.

مرور المغاربة بسوف[1]

في حدود عام 1016 هـ-سنة 1608 م أتت إلى سوف طوائف من المغرب (أهل الأندلس الذين كانوا بها بعدما فروا من أرضهم) حين استولى عليها الإسبان (السبنيول) فنزلوا فيما يقال بنواحي سيف المنادى لكي يستريحوا بها زمنا ثم ينتقلوا إلى الحضر إذ لا يقدرون على سكنى البادية دائما لتمكن الحضارة منهم. وبعد حين ارتحلوا إلى تونس. فلما نزلوا بها فرح بهم واليها عثمان داي وأوسع لهم كنفه وأباح لهم ولإخوانهم الذين جاؤوا من طرق أخرى بناء القرى في مملكته، فبنوا نحو العشرين قرية، وفرح بهم أهل تونس فرحا كبيرا وتعلموا ما عند الأندلسيين من الحرف والصنائع وضرب الآلات المطربة، وخلقوا بأخلاقهم في الحضارة والمدنية والترف والرفاهية، وكان لقدومهم على أهل تونس فضل كبير إلى يومنا هذا.

---

1. هؤلاء المغاربة هم ممن قدموا من الأندلسيين واستقروا بالمغرب بعد سقوط الأندلس من يد العرب عام 897 هـ-سنة 1492 م وخروجهم منها.

ففي سنة 1497 عزمت إيزابل الكاثوليكية على أن تقضي نهائيا على بني الأحمر وتخرج المسلمين جميعا من أرض الأندلس وكان الشقاق بين هؤلاء المسلمين مما ساعد إيزابل عل تنفيذ ما عزمت عليه، وبعد أن انتزع فرديناند زوج إيزابل بعض المدن استسلمت له غرناطة بعد معارك ضارئة وحصار طويل سنة 1492 م وبعد ذلك التجأ صاحب غرناطة ابو عبد الله إلى فاس حيث قضى أيامه الأخيرة، وانتقلت إثره جموع غفيرة من المسلمين إلى المغرب كذلك فزهت على أيديهم الحضارة بها.

إكرام الباي لأهل سوف

لما بلغ خبر اللجنة التي خرجت للتحديد إلى الباي وما وقع لها مع أهل سوف وكان يؤمل أمالا منهم سيأتي ذكرها لما يعلمه منهم من الجرأة والجسارة مع غيظهم من الشابيين الذين بالقيروان من أجل عدم إرضائهم بإعطائهم الغنائم التي كانوا حازوها، بعث الباي لهم رسولا يثني على فعالهم ويشكرهم عل صنيعهم وقدم لزعمائهم هدايا أتى بها لهم والتمس منهم جماعة يذهبون معه كي تتمكن الروابط بينهم وبين الباي ويزول ما كان سابقا ويصيروا أهل حظوة عنده ومنزلة عالية وربما قلدهم بعض الوظائف السامية فاهتز القوم لذلك وقبلوا تلك الهدايا شاكرين فضل الباي وفرقوها في العامة.

واستشاروا أبناء سيدي مسطور في الذهاب وعدمه فأشاروا بعدم الذهاب والاعتذار عن ذلك قائلين إن الباي ما صفح عن فعلكم وجعله نسيا منسيا وشكر صنيعكم إلا وقد عزم عل أمر مهم منكم، وهو أحد شيئين : إما قتل أشرافكم أو حدث له أمر يريد أن يوجهكم إليه لعلمه بعدم رجوعكم حتى تموتوا فيه او تسهلوه.

فلم يصغوا لقولهم وتوجهت جماعة مع الرسول المتقدم ذكره وحملوا معهم عشرين جملا مهريا تارقيا (طارقيا) مذللا مؤدبا هدية للباي.

فلما قدموا جعل لهم حفلة عظيمة وأكرمهم إكراما لا يستحقه أمثالهم[1] وانزلهم قصورا عالية وبسط لهم فرشا وطيئة وألبسهم لباس الخز والديباج. فحلفوا هناك لبعضهم أن لا يردوا أمر طلبه منهم فاعل هذا الإحسان ولو قتل أبناءهم. ثم أيام الضيافة الثلاثة يؤتيهم في كل يوم منها شيئا لم يروه في اليوم الآخر ويسمعهم من الآلات الأندلسية ما لم يسمعهم فيما قبل. ويأتيهم الباي بنفسه ويلاطفهم. وبعد انقضاء ذلك أعطى كل واحد من الرؤساء عطية لم يطلع عليها غيره. فأعربوا له عن قسمهم السابق وما عزموا عليه من الموافقة له في كل ما يريد فطلب منهم دوام التخاطب بينهم وبينه وعدم التراخي فيه.

فرجعوا مسرورين فوجدوا أهاليهم يترقبون أخبارهم لتخوفهم عليهم. ولما قدموا لاموا أبناء سيدي مسطور عن إشارتهم السابقة وأنهم لو أطاعوهم لفاتهم من هذا الخير الجزيل وهذه المعرفة التي لم تحصل للأقربين عنده. فقال لهم الملامون : إن الملوك إذا زرعوا درهما يحصدون منه ألفا وإذا لاطفوا شخصا فليجزم بأنه سيوجه إلى قطع رأسه. وما أنتم إلا كما قال القائل في حق النعامة (أشبعني بالفول واقطع رأسي) وسترون مغبة هذه الزيارة والإكرام. فهزؤوا من قولهم غير مكترثين برأيهم وتدبيرهم. وفرحت نساؤهم وصبيانهم وحسبوا أن

---

1. قول المؤلف "إكراما لا يستحقه أمثالهم" : تعبير على أنه أيضا مثل أبناء سيدي مسطور غير راض عل ذهاب الجماعة.

ذلك وقع لأجل تعصبهم وشجاعتهم حيث لم يرضوا بترك حقوقهم ودافعوا من أراد مسهم.

وكان ذلك عام 1038 هـ-سنة 1629 م.

ثم استمرت المودة والمراسلات بين الفريقين. والآن عثرت على ورقة في كتب سيدي عطاء الله بن الجديدي موجهة من قبل الباي لكن وقع مطر في معظم الصحيفة. ويظهر منها بعض التاريخ وبعض الكلمات وأحد المخاطبين بذلك يقال له عيسى سألت عنه من أية قبيلة هو فلم أجد عند أحد خبرا. والله ولي الأمر له الحكم وإليه ترجعون.

إعانة طرود للباي[1]

بعد أن اشتدت الروابط بين طرود والباي وكثرت الهدايا من الجانبين من هنا ومن هناك صار الباي في كل مرة يلقي لهم شيئا من حكايات الشابي رئيس القيروان ويذكرهم فيما وقع لهم مع الشابيين قديما.

أقول : الباي الذي يذكرونه هو يوسف داي ومن بعده حمودة باشا أقنة لأن تاريخ تلك الحكايات ينطبق عليهما ويسمى الأخير محمد بن مراد. والله أعلم.

وكانت لطرود علاقات مع دريد وكلما ذهبوا أو آبوا يترلون عليهم فيكرمونهم للعلائق القديمة التي كانت بينهم زمن دخول العرب (بني هلال وسليم)، كما أن الوالي المذكور يحرضهم على استمالة دريد إليه فيفعلون حتى صار بعض رؤسائهم يذهب معهم كل مرة ويرجع بفوائد جسيمة وهدايا عظيمة.

فلما أحس الباي بالتمكن أخذ من زعمائهم العهد على أنه إذا وقع بالشابي ونكل به يخرجون عن طاعته وينضمون إليه ويصيرون من قومه وأتباعه، كما أنه أخذ العهد عن طرود في الإعانة على الشابي إذا حاربهم. ورجع كل لقومه مخبرا إياهم بما كان منتظرا.

1. كانت الحادثة هذه في عهد ولاية عبد الصمد بن محمد بن عبد اللطيف بن أبي الكرم بن محمد بن أحمد بن مخلوف الشابي وعبد الصمد هو أحد إخوة سيدي المسعود.

ففي زمن قريب أتى المستغيث إلى سوف فخرج غالب طرود وبعض من غيرهم ممن لديهم علاقة أو يحمله الطمع في الإحسان أو الغنيمة لفقره وقلة احترافه. يقال خرج منهم زهاء الألف رجل ممن لا يتأخر أو يجبن عند اشتداد البأس، واضطرام نار الحرب واشتباك الملاحم.

فلما قدمو اهتزت لهم الناس وذكروهم بأحسن ذكر وأنشدت بين أيديهم وقدمت لهم أسلحة دولية وأجريت لهم نفقات يومية، وأمروا بالتنظيمات الحربية لا التقدمات الفوضوية.

فخرج لهم عبد الصمد الشابي في جنود مجندة وتحارب الفريقان أياما كان النصر في آخرها حليف حمودة باشا. وقتل من الفريقين خلق لا يحصى، قيل إن الذين ماتوا من أهل سوف نحو المائة نفر وإلى الآن يسمى القدماء ذلك العام عام المجزرة. ويسميه أبناء سيدي مسطور عام الطمع يعنون أنه لولا طمعهم في الإحسان أو الغنائم لما وقع لهم مثل ذلك لكن البعض يدعي أن ذلك ليس من أجل الطمع بل من أجل عدم وفاء الشابيين بالعهود معهم ومعاملتهم بما يأنفون منه.

وخرجت دريد عن الشابي وانضمت للباي وكذلك جميع ورغمة وما حول ذلك من العربان.

ويزعم القدماء أن هذه الواقعة كانت بعد إكرام الباي بعام واحد والصحيح خلافه. وإنما ذلك عام 1041 هـ-سنة 1632 م، أو بعد ذلك لأن حمودة بن مراد صاحب هذه الفعال تولى في هذا العام وهو الذي لا شك فيه البتة.

جاء في الخلاصة النقية ما نصه : في عام 1041 هـ–سنة 1632 م، نزل مراد باشا لابنه حمودة باشا عن سفر الأمحال ثم مات مراد في عامه وقام حمودة بمنصبه فمهد النواحي وقمع الثوار وأوقع بالشيخ عبد الصمد الشابي وانتزع دريد من يديه وهم العرب الداخلين أيام المعز ابن باديس وأضافهم لرعيته، ورسم منهم طائفة عظيمة في ديوان جنده وأضاف ورغمة أيضا لرعيته، وأخذ حامة قابس من أولاد سعيد بعد حصار عظيم، والكاف من بني شنوف وهم المتسببون في الحرب بين تونس والجزائر عل الحدود وهو أول حرب معهم ... الخ.

وفي هذا الوقت أتت بعض أعراب دريد مع طرود فدخل بعضهم الوادي وبعضهم بقي مع بني سليم الذين يترلون أحيانا إلى الميتة ويصعدون إلى الجبل. أما الأولون فاختلطوا بأهل الزقم. وسيأتي تفصيل الجميع إن شاء الله. والله أعلم.

بنـــاء ســـور الـــوادي

بعد رجوع طرود من واقعة عبد الصمد الشابي وقد مات كثير من رجالهم تسامعت بهم بنو سليم الذين بالجبل ومن انضم إليهم فأرادوا الإغارة عليهم والنكاية بهم في مقابل تشريدهم من سوف قديما.

فبلغ الخبر لطرود فخشوا مهاجمتهم بغتة فاتفق رأيهم على بناء سور حول الوادي فجمعوا من الحجر والجبس ما يكفيهم لذلك وابتدؤا بناءه من مكان حوش حمة عمار الآن الذي بأولاد احمد وامتد شمالا نحو حوش يوسف بن مسطور غربا وحوش الضوابرية وجعل بابه الشرقي في موضع غوط السردوك غربا. وإلى الآن يسمى ذلك الموضع باب السور والحال أن السور قد ذهب منذ زمن مديد. ثم امتد شمالا أيضا في وسط السوق الكبير قاطعا محل بيع الحطب والحلفاء نصفين. وإلى الآن يوجد بعض من حجر أساسه هناك. وكان انتهاؤه جوفا في طريق جوش محمد القروي بن الشيخ علي بن مصباح في باطن غوطة الغربي. ثم امتد السور غربا إلى طاحون بلقاسم بن موسى وجعل بابه الشمالي شرقا منها بقليل وانتهى في موضع حوش محمد الصغير بن بديدة وامتد قبلة إلى حوش الطاهر بن الحاج سعد بن حميدة فكان بابه الغربي هناك وانتهى غربا جنوبا من الجنان الكبير وجوفا من هود الفقيري. وامتد شرقا إلى حوش أولاد النينة فكان بابه الجنوبي بقربه شرقا منه حتى وصل البناء إلى الموضع الذي ابتدأ منه. وكان السور

عاليا عريضا وبوسطه دكانات للجلوس عليها. فكان تمام بنائه في نحو مدة عامين أي عام 1044 هـ-سنة 1635 م تقريبا.

ومع هذا السور فإن البلدة كانت غير منتظمة البناء بل أكثرها زرائب من جريد النخيل مع الحلفاء القائمة عل خشب الأزال أو خشب النخيل. والمنازل التي بها متفرقة في مواضع متعددة. وبعض الديار بها بيوت معها زروب، وزرائب أو خيام من الشعر أو الوبر. فلما إن كانت البلدة على هذه الحال ضربت الرياح تحت جدران السور فلم تطل مدة إقامته فتهدم، خصوصا ناحيته الغربية فإنها ما دامت سوى العشرين سنة فقط، وانتهب الناس حجارته لبناء بيوتهم إذ تلك تقوم مقام اللوس والتافزة.

وفي تلك الأزمنة كثر تجمع الناس في أماكن القرى الآن ولكن البناء بها قليل كما في الوادي إلا كوينين والدبيلة وسيدي عون والله أعلم.

إتيان سيدي مسعود إلى سوف

قال الشيخ العدواني : هو المسعود بن محمد بن الشابي بن عبد اللطيف بن أبي بكر بن احمد بن مخلوف بن علي بن محمد بن مساعد بن سليمان بن مروان بن عبد الغني بن حسن بن أحيد بن جميل بن ليث بن عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد العزيز بن سهم بن هنين بن تانير بن داود بن هذيل بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود صاحب رسول الله ﷺ بن الحارث بن مخزوم بن صلة بن كاهل بن الحارث بن أيم بن سعد بن هذيل ابن مدركة.

وفي مدركة يجتمع نسبه بنسب النبي ﷺ.

والعهدة على الشيخ العدواني في هذا النسب إذ ليس عندي في هذا مرجع آخر [1].

1. فيما يخص سيدي المسعود الشابي فقد عثرت على وثيقة قديمة في ذلك لدى أحد أنجاله وهو السيد أحمد الأمين بن محمد الشابي. وقد أضاف السيد أحمد الأمين الشابي للوثيقة سلسلة الآباء الذين هم يتصل بجده سيدي المسعود فصار مسلسل النسب ابتداء من السيد أحمد الأمين الشابي المذكور كما يلي : أحمد بن محمد بن ابراهيم بن احمد بن عمار بن رمضان بن بورقعة بن ينجدو بن أحمد بن علي بن المسعود بن محمد بن عبد اللطيف بن أبي الكرم بن محمد بن أحمد بن مخلوف بن علي بن مساعد بن سليمان بن مروان بن عبد الغني بن حسن بن أحيد بن حميص بن الليث بن عبد الله ابن عبد الرحمن بن عبد العزيز بن سهم بن هنين بن تانير بن داود بن هذيل بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود (صاحب رسول الله ﷺ) بن الحارث بن سيحب بن مخزوم بن ضاهلة بن كاهل بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل بن مدركة وفي مدركة يجتمع نسبه بنسب النبي ﷺ.

وكانت للشيخ سيدي مسعود الشابي معرفة مع بني شباط خصوصا بني مناع الذين في توزر وأبناء أبي الوفاء في الشباط الذي قسم مياه الجريد قسمة لم يروا مثلها إلى الآن.

قيل إنه بعد أن قسم مياه توزر أرسل له أهل نفطة فأتاها ونزل بالجانب الشرقي. فخشى أهل الجانب الآخر أن يميل عنهم في القسمة فقصوا ذنب فرسه فلما رآه على تلك الحال رحل قبل القسمة فلحقوا به في المنصف (مكان بين نفطة وتوزور) وطلبوا منه الرجوع فامتنع وقال لهم إن أهل الناحية الشرقية يزيدون في الصيف لأهل الناحية الغربية أربعين يوما (أي أربعين نوبة) وانتقل إلى توزر.

وأما سيدي المسعود فإنه لما سمع أن أهل سوف يتدينون بكل ما رأوه أو سمعوه عزم على الذهاب إلى حيث هم. وحين وصل أرض

... سمى الشابي : نسبة إلى الشابة وهي مكان قرب المهدية بتونس وقد تزعم سيدي المسعود طريقة دينية تدعى الطريقة الشابية س ميت فيما بعد الطريقة الزروقية لها أتباعها وأنصارها. ومن بين أعضاء سيدي المسعود ومساعديه المقربين إليه الشيخ علي درباز شهر الآن دربال والمقبور إزاء بشاشار. وللشيخ علي دربال هذا زاوية أيضا بعميش قرب الوادي وأبناؤه بها ويعرفون بأولاد دربال أو الدرابلية.

أم والد سيدي المسعود وهو محمد بنور فقد مات وقبر بضاحية العاصمة الجزائرية (بلكور) ومن بين إخوة سيدي المسعود عبد الصمد الشابي وله نسل بناحية القبائل وباتنة وهم المعروفون الآن بأولاد عبد الصمد وأخ آخر يسمى القاسم بالجبل الأخضر بأرض طرابلس. وكانت وفاة سيدي المسعود حوالي عام 1028 هـ- سنة 1619 م ودفن بزاويته الكائنة بشاشار قرب بلدة خنشلة. وكان قد أسس مسجدين أحدهما بالوادي والثاني بقمار سنة 1597 م.

سوف ونزل على اللجة (مشتقة من اللجاج وهو التزاع وقيل من الجولان لأن العوام يدخلون عليه القلب المكاني فيقولون الوجان. وفي جال يجول : لاج يلوج. وقيل إن لجة ماء الأدوية كانت هناك وهذه الكلمة تعم الزقم والبهيمة وما يليها من المداشر في الناحية الشرقية أو الشمالية. فأضافه سيدي أحمد عزيز بالزقم ثلاثة أيام وفي أثنائها طلب من سيدي أحمد رجلا غافلا يعلمه كي ينقل عنه ويعلم غيره وقال : إني رأيت في المنام من يقول لي : اذهب إلى هذه الناحية وعلم أهلها دين الله وسنة رسوله فإن إيمانهم في تردد كبير.

فأتاه بسيدي عون وكان كثير الملازمة له. فلما رأى سيدي المسعود (اجتمع به لأنه أي سيدي عون كان كفيف البصر) قال : من الرجل ومن أي محل أتيت فإني رأيت البارحة في المنام رجلا مثلك يدل الناس إلى الخير. فأشار له سيدي المسعود بأنه هو الذي رئي في المنام.

فأكرمه وأمر الناس بأن يتبعوه. فوفق الله على يديه خلقا كثيرا منهم المسمى بالليل خادم سيدي أحمد، وسالم بن عمارة وجابر بن سالم، والخازن بن زكرياء بن عمر، ومبارك بن علي وقد علمهم شيئا من أمور الدين.

ثم ارتحل ونزل على الوادي بموضع تكسبت الأولى فأنكره بعض الجهلاء من أهلها حتى أتاه العش بن عمر بن سليمان بن محمد اليربوعي فأنزله عنده وأضافه واعتذر له عن تقصيره في أول الأمر لأنه ما جاء إلى هذه القرية إلا منذ عهد غير بعيد. فدعا الله له بالحظ العظيم له ولأبنائه.

ثم مكث سيدي المسعود مدة يعلم الناس ودعاهم إلى بناء مسجد فبنوا بعد انتقاله الجامع الذي بالسوق الآن، وإلى هذا الوقت يضاف له فيقال جامع سيدي المسعود، وكمل بمحضر بعض أولاده، قيل أحدهم اسمه علي. ومنها انتقل سيدي المسعود إلى قرية غنام بن مبارك بن فارح وهي الهنشير الشرقي الذي منه عمرت كوينين الموجودة الآن فدعاهم أيضا للهدى قائلا لهم : إنني ما جئت أسألكم عن ذلك أجرا إن أجري إلا على الله. وكان العش خشي عليه بأن لا يعتني أهل الهنشير بضيافته فأعطى تمرا وخبزا ومرقا لأبنه خليفة وأمره بإعطائه إلى سيدي المسعود أينما وجده. فلما قدم له ذلك قال : اللهم اشبعه مالا وولدا وأعطه الحظ الأوفر.

ثم ارتحل سيدي المسعود ونزل على تاغزوت فأكرمه محجوب وعمران التاغزوتيان وأبلغا خبره للناس فأقام فيهم مدة يعلمهم ما جاء به وبث فيهم ما شاء الله من أمور دينهم ودنياهم. ومنها رجع إلى اللجة فأقام بها زمنا ومن هناك انتقل إلى الجريد. وسرت دعوته في الناس من بعده.

ثم بقي الشابي يتردد على سوف وينتقل بين الدبيلة وغمرة، والدميثة. وأبدل الله نكران قومه حبا له وبسببه راح الله أهل سوف من حمية الجاهلية وتعصب المتعصبين فرضي الله عنه وجزاه عن ذلك جزاء الصالحين وأسكنه جوار الأنبياء والمرسلين.

وكان عام قدومه إلى سوف في الفترة من عام 1020 هـ-سنة 1612 م إلى عام 1050 هـ-سنة 1641 م أو قبل ذلك بقليل أو بعده بقليل. والله أعلم بالحقيقة.

اختلاط أهل سوف بأهل الزاب

وفي حدود عام 1072 هـ-سنة 1662 م، وأراد أهل سوف ان يجعلوا لهم يدا مساعدة من أهل قسنطينة والزاب فبعثوا جماعة انتخبوهم لذلك وبأيديهم هدايا سودانية وحوالي حسنية. فلما وصلوا إلى الزاب سألوا عن ذوي الكلمة والنفوذ فيهم وكانوا يسمعون بخبرهم من قبل ولا يعرفون ذواهم. فاتصلوا بهم وأضافوا ضيافة لائقة بأمثالهم. ثم طلبوا منهم إدلاء يبلغونهم إلى قسنطينة فأوصلوهم وأقاموا معهم بوصية من أهل الزاب حتى يعودوا. فقضوا وطرهم هناك وعادوا بما يساوي ما حملوه لهم من التحف النفيسة. وفي حال رجوعهم نزلوا على أهل الزاب ففرحوا بهم وأكرموهم إكرام المعرفة وأخذوا العهد منهم على نصرهم إذا أصيبوا بحادث كما عاهدوهم على مثل ذلك إن طرقهم طارق.

واسترسلت الواردات بين أهل سوف وأهل الزاب وتمكنت الروابط بينهم وصاروا كالعائلة الواحدة يكدر جليلها ما يغير حقيرها فترى أهل سوف يذهبون دائما إلى أهل الزاب وترى أهل الزاب كذلك يأتون إلى أهل سوف. ويموت كل على الآخر حتى عقدوا مجلسا اتفقوا فيه على أنه إذا وقع عزيز قوم وزويت عليه الدنيا من أية ناحية يجمعون له مثل ما كان عنده أو أكثر. ووقع ذلك مرات لكل فريق. وفي ذلك يصدق عليهم قول الشاعر :

إن صديق الحق من كان معك ... ومن يضر نفسه لينفعك
و من إذا ريب الزمان صدعك ... شتت فيك شمله ليجمعك

وفي خلال تلك المدة مر علامة المغرب الرحالة سيدي عبد الله بن أبي بكر العياشي صاحب الرحلة العياشية المشهورة بسوف فقدم لها يوم 21 جمادى الثانية من عام 1072 هـ-سنة 1662 م، وقال : "وجدت سوف خطا من نخيل مستعرضا في وسط الرمل به بلادعديدة وماؤه كثير طيب قريب من وجه الأرض ... الخ". ثم ارتحل العياشي إلى الشرق. كما ذكر منازل سوف ولم يذكر سور الوادي فلعله في ذلك الوقت تم سقوطه أي قبل قدومه أو بقي منه شيء قليل لم يعتن به كما لم يذكر أحوال سوف بالتفصيل وإنما بإجمال عن مروره ورحلاته إلى أي بلد.

ومن أشد أهل الزاب رابطة وعلاقة مع أهل سوف هم أولاد عمر، وأولاد صوالة، وأولاد علي. وكانت لهم مزايا عديدة على أهل سوف في كثير من الشدائد، وإلى الآن أهل سوف يعدون مزاياهم ويذكرون جميل صنيعهم.

إعانة أهل الصحراء لصاحب الجزائر

ذكروا إلى قصة إعانة أهل سوف والزاب ووادي ريغ لوالي الجزائر عشي مصطفى في واقعته مع والي تونس مجملة غير مبينة الأسباب والتاريخ إلا أنهم يتيقنون قرب وقوعها وهول أمرها وفوزهم فيها.

أقول : حسب ظني إن هذه الواقعة لا يناسبها إلا ما وقع في زمن ولاية إبراهيم الشريف الذي أسره الجزائريون بعد أن أوقعوا بعسكره وتبعهم كثير من أقوامه ودخل في وقته جمع غفير من تلك الأعراب إلى العمالة الجزائرية واستوطنوها إلى الآن.

جاء في "الخلاصة النقية" أنه لما بلغ إبراهيم الشريف عزم عشي مصطفى صاحب الجزائر على غزوه، تهيأ للقائه ووجه أخاه محمدا لتحصين الكاف وبني الأبراج الثلاثة بالجبل الأخضر المعروف بجبل أبي عمر في القديم. وخرج لقتال الجزائريين غرة عام 1117 هـ-سنة 1706 م)، فنزل على الكاف وحين تراءى الجمعان فرت عنه أولاد سعيد وكثير من الأعراب للجزائريين ثم لحق بهم وزيره ابن فطيمة، ونجوع دريد. ثم راسله عشي حسن في الصلح ولم يتم. ورغبه فيه كاهيته الأمير المولى حسين بن علي وثبطه عن المبادرة للقتال فأبى. وركب خيله ليقتلهم فهزموه وأسروه وأما أخوه محمد فإنه لما تحقق أسره طلب الأمان وتسليم الكاف فأمنوه ثم أوقفوه مع أخيه.

ورجع كل وفد بغنيمة عظيمة وكانوا كلهم تبعا للذواودة في ذلك الوقت. وكثيرا ما تسمع من الذواودة وأهل الزاب وأهل سوف منتهم على أهل الجزائر بذلك إذ لولا الآلاف التي تألفت من هذه النواحي لما خلص عشي إبراهيم وجنوده مع شدة بأسه وتجلده للنائبات وعدم تزلزله من الحوادث العظيمة فضلا عن الهضيمة.

أقول : جميع أهل الوطن الجزائري شركاء في ذلك إذ لم يقم بذلك الحادث بعض دون بعض بل كانوا كالجسد الواحد يقوم جميعه أو يتخلف جميعه. والله أعلم.

انتقـــال الربايـــع من الـــوادي

كانت منازل الربائع حين دخلوا سوف خلف السور بموضع جبانة (مقبرة) أولاد أحمد الآن حتى إلى قرب موضع تكسبت الموجودة.

وكان نسبهم يتصل بنسب طرود كما سيأتيك عند ذركهم ولذلك سمحوا لهم بالسكنى معهم.

فبعد حين اشترى أولاد أحمد من الربايع (من أولاد بلول) موضع جبانتهم الآن بعشرين ناقة واشترى المصاعبة مواضعهم بمائة قلوص من غيرهم وخرج الربايع إلى الصحراء القبلية وسكنوها بادين بخيامهم المألوفة ينتقلون من محل إلى محل يتبعون العشب ومواقع المطر. وكان ذلك في حدود (1170 هـ-1757 م).

قال في كتاب "إتحاف أهل الزمان" : العرب الرحالة الذين اضطروا لسكنى البادية هم الموجودون في أرض تراكمت عليها الرمال المحرقة لا تنبت لهم حبا ولا بقلا. آبارهم تجف في حرارة القيظ وتبخل بالماء لبعد قاعها فيظعنون لورود غيرها من المناهل وفي خلق الإبل لهم نعمة كبرى فيعيشون من ألبانها ولحومها ويكتسبون من أوبارها ويرتادون المسارح بها ويتطلبون المرعى والكلأ لها. ولا يزالون في حل وارتحال في طلب العشب وابتغاء المياه لهم ولمواشيهم. ذلك دابهم زمان الصيف والربيع. فإذا جاء الشتاء واقشعرت الأرض انكمشوا إلى بلاد الحضر فشتوا هناك مقاسين جهد الزمان مصطبرين على بؤس العيش. وسكناهم

في البادية أمر طبيعي وهم ولو نزلوا الأمصار ورفعوا بيوتهم من الحجارة لما اتسعت من حولهم المسارح لحيواناتهم، لكنهم يحتسبون المدن محسبا لا صبر عليه لأن الحرية عندهم من أفضل مامنحهم الله وهم يبذلون نفوسهم ونفائسهم في استبقائها فيهم. يمتاز أهل البدو منهم بقسوتهم، مع كونهم أصعب الأمم انقيادا للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في الرئاسة حتى قلما تجتمع أهواؤهم. وهم أسرع الناس قبولا للحق والهدى لسلامة طباعهم.

وقال ابن خلدون : ... وأول صفة من صفات العرب حب المحمدة والشهامة والحرص على ما يوجب الذكر الجميل من العظائم والثناء الحميد من المكارم، وهذه الصفة كعلو الهمة والحمية والنجدة من أركان الشجاعة التي هي صفة جامعة لذلك فكانوا يحبون المحامد والمفاخر وبع الصيت بما يعدونه عندهم من الفعل الجميل كانتصارهم على الأعداء وكسب الغنائم فكانت النصرة عندهم تقوم مقام الحقوق المدنية عند الأجانب لما يترتب عليها من المزايا الاجتماعية أو عين حقوق الحرب والصلح عند الأمم المتمدنة. وإنما كان يتولاها صاحب الحق بنفسه أو بقبيلته لأن أفراد العرب جميعهم كانوا كما قدمنا يسوسون أنفسهم بأنفسهم وكانوا ينتقمون من العدو بأخذ الثأر. فكان القصاص عندهم تستوي فيه سائر العشائر والقبائل فلا قبيلة إلا وتأخذ ثأرها من القبيلة لأخرى ولا عشيرة إلا تستوفي ثأرها وتنفي عارها. فكانت المحمدة على الخير والشر باعثة لهم على كسب المحامد أو المثالب، كما يحكى أن بعض العرب وقف على قبر عامر بن طفيل بن مالك العامري فقال يرثيه:

"أنعم ظلا يا أبا علي فلقد كنت تشن الغارة، وتحمي الجارة، سريعا إلى المولى بوعدك، بطيئا عنه بوعيدك وكنت لا تضل حتى يضل النجم ولا تهاب حتى يهاب لسيف، ولا تعطش حتى يعطش البعير، وكنت خير ما تكون حيث لا تظن نفس بنفس خيرا".

فقد مدحه بأحسن ما يوصف به عربي وقد كان بقاء ذكر الإنسان بعد الموت يعد بمنزلة الحياة من غير فرق فقال بعضهم:

فاثنوا علينا لا أبا لأبيكم   بأفعالنا ان الثناء هو الخلد

وقال شاعر آخر :

فإن يك أفنته الليالي فأوشكت   فإن له ذكرا سيفنى اللياليا

ومن صفاتهم النجدة وعدم الجزع عند المخاوف فكانوا منها على مكانة عالية وكانت أحلامهم تحمل أجسامهم ما لا يطاق وسواء في ذلك الشخص أو القبيلة كما قيل في الأول :

أكر على الكتيبة لا أبالي   أفيها كان حتفي أم سواها

ولي نفس تتوق إلى المعالي   ستتلف أو أبلغها مناها

وقيل في الثاني :

وكفى تستقل بحمل سيفي   وبي ممن يهضمني امتناع

وحولي من بنى قحطان شيب   وشبان إلى الهيجا سراع

إذا فزعوا فأمرهمو جميع   وإن لاقوا فأيديهم شعاع

فكان إذا خطر بقبيلة ذات يوم فكرة اقتحام خطر من الأخطار لقضاء وطر من الأوطار اتحد أفراد القبيلة على قلب رجل واحد وهموا بإنجاز ما أضمروه وقل أن يفوتهم إنجازه كما قيل :

كانوا على الأعداء نار تلظى   ولقومهم حرما من الأحرام

ومن صفات العرب أيضا الحمية والغيرة على العرض وشرفه وحفظ ناموسه وهذه الصفة بعينها هي التي بعثتهم جميعا مع اختلاف قبائلهم على علو الهمة وكمال الشجاعة وكرم النفس وقد تعالى بعضهم في شرف المحافظة على العرض حتى أداهم الغلو فيه إلى صفات ذميمة كوأد البنات (أي دفنهم بالتراب أحياء) إلا أنهم كانوا يرون الباعث عليه حميدا وهو دفع العار عنهم إذ لو بقين فلربما تصدر منهن ريبة تلحق بهم من اجلهن أو خشية الإملاق (أي الفقر) المترتب عليه عدم وجود الكفء للزواج فيخشى عليهن التفريط في العرض أو الميل لغير الكفء للعجز عن التكسب. ولما اعتنق العرب الدين الإسلامي الحنيف تخلصوا من كثير من العادات الفاسدة ومنها هذه العادة. قال الله تعالى: **﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم﴾**[1]. وكان صعصعة جد الفرزدق يشتري البنات ويخلصهن من القتل كما قال الفرزدق مفتخرا بذلك على غيره :

ومنا الذي منع الوائدات   وأحيا الوئيدة لم توأد

قال في كتاب "العقد الفريد": صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوزان بن منصور بن عكرمة بن حفصة بن قيس عيلان.

أقول : والظاهر أن الوأد لم يكن مع ذلك كثيرا وإن كان واقعا فإن العرب كغيرهم من الأمم تحرص على النسل حيث هو أمر طبيعي للإنسان بل كان نادرا فقد عهد عندهم زواج الفقيرلأبناء الملوك، وزواج

1. سورة الإسراء، الآية : 31.

امرئ القيس وبحثه في أحياء العرب عن ذات عقل وإن كانت فقيرة يؤيد ذلك (أي أن امرئ القيس من أبناء الملوك والتي تزوجها فقيرة) لكنها ذات عقل كامل سألها عن أشياء غامضة فأجابته عنها. كما يؤيد ذلك أيضا قصة بنات المحلق الكلابي اللائي تزوجن غير أكفاء لهن.

وقد كان كذلك لدى الأمة العربية كثير من الصفات التي تبرهن على ميلها للسعادة والارتقاء إلى درجة الأمم العظيمة. وإن كانت بقيت محتاجة لإحكام الرابطة وتوحيد الكلمة[1] إلى زمن ظهور الإسلام وإقبالها عليه. فمن تلك الصفات الشريفة ما امتازت به سائر الأمم من علو الهمة وشرف النفس وحفظ حرمة الجوار والمحاماة عن المظلوم والوفاء بالوعد وصدق العهد والجرأة والإقدام وحب عظائم الأمور والكرم والجود. وحسب الإنسان ترديد نظراته في ديوان تاريخها ومفاخرها يجد أشعارها مشحونة بكل ما ذكر. فمن نظر في أقوال شعراء العرب وخطبائهم عرف مقدار ما كانوا عليه من الصفات الممدوحة والسجايا الفاضلة واستدل على شؤونهم وأحوالهم. وأي شيء أدل على الوفاء وعلو النفس والتفاخر من قصيدة السموأل التي مطلعها :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه   فكل رداء يرتديه جميل

وعلى الكرم وحفظ الجوار من قول عمرو بن الأيهم التغلبي :

ونكرم جارنا ما دام فينا   ونتبعه الكرامة حيث مالا

1. العرب في حاجة إلى إحكام الرابطة وتوحيد الكلمة اليوم أكثر مما كانوا في حاجة إليهما في أي وقت مضى.

وعلى الجود وعلو الهمة وشرف النفس من قول حاتم الطائي :

أمـــا إن المـــال غـــاد ورائـــح   ويبقى من المال الأحاديث والذكر

يفك كبه العاني ويأكـل طيبـا   ويحفظ عرضـا إن هذا هو الفخر

وقوله :

فأوقدت ناري كي ليبصر ضوؤها   وأخرجت كلبي وهو في البيت داخله

وهذا الأخير أخو زبيد الذين بسوف وغيرها إذا كلاهما ابن مذحج.

والشواهد كثيرة من تلك الصفات الجميلة التي كانت تعقد لها المفاخرات وتقام لأجلها المسابقات بأسواقهم كعكاظ وذي المجاز وغيرهما تنشد فيها قصائدهم الغراء المتضمنة للفخر والحماسة وذكر الحوادث والحروب والمدح والقدح.

والعرب الآن على حالتهم الأصيلة لكون علاقات التعايش بينهم مستمرة ولم يخلطوا أنسابهم بالأجانب فتراهم أكثر أهل الأرض كرما وإيواء للضيوف وأكثرهم معروفا وأشد الناس انتقاما ممن داس شرفهم. وقد أصاب السائح بورك هارد Burck Hard[1] الإنجليزي الذي طاف بلاد العرب عام 1229 هـ-سنة 1814 م. في وصفه العرب البدو إذ قال : "يمتاز البدو بحب الضيافة والكرم وحفظ الذمام ورعاية الغريب والشهامة والحماسة والذكاء وخفة الروح والقناعة، وحب البدوي للحرية يحملة على احتقار أهل الحضر فإنه بمعاملتهم قد عرف منهم الخداع والمكر ... الخ".

1. بورك هارد رحالة ومؤرخ ولد سنة 1748 م بمدينة لوزان بسويسرة. كان زار جدة ومكة متنكرا وألف كتابا أسماه الرحلة إلى بلاد العرب وآخر أسماه تاريخ الوهابية ومات سنة 1817 م بالقاهرة ودفن بها.

ومن محاسن العرب التي يحسن أن يقلدوا فيها غض الطرف عن عورة الجار وعدم التعرض لحرمه. فقد كان الرجل منهم يسافر ويترك زوجته في بيته فيمونها جاره وهو أنزه الناس عن التعرض لها بسوء بل أنه يكون عليها أكثر غيرة من زوجها لكونها في رعايته وحماه وتحت نظره حتى يعود الزوج. وقد قال في ذلك عنترة العبسي :

وأغض طرفي حين أنظر جارتي   حتى يواري جارتي مأ واها

ومن صفاتهم التي حفظتهم وحفظت أنسابهم وقوتهم أنهم كانوا لا يخالطون غير جنسهم إلا مخالطة التجارة ولا يدخلون في أنسابهم دخيلا من غيرهم. ويستنكرون ذلك استنكارا كبيرا إلا إسماعيل بن سيدنا إبراهيم فإنه اول دخيل من العجم في ولد قحطان الذين هم العرب.

ثم كانوا بعد ذلك يتحاشون غاية التحاشي مداخلة العجم ومع ذلك فربما كان البعض داخل غير العرب وكان من نسل. فإذا كان الفحل عربيا والأنثى غير عربية سمى النسل الحاصل بينهما هجينا وفلنقسا. قال الشاعر :

العبد والهجين والفلنقس   ثلاثة فايهم تلتمس

وحيث كان المدار على كرم النسل الحاصل من غير التفات للآباء قال الشاعر :

كم يجود مقرف نال المنى   وكريم بخله قد وضعه

فالعرب كانوا يتحاشون الهجنة والإقراف. بل كان بعض القبائل يحافظون على أنفسهم ولا يخالطون غيرهم ولو من العرب. حتى أن أيادا أحد الشعوب العربية ساكنت الفرس وخالطتهم عدوا منهم

واتقيت مداخلتهم ويرشدك إلى تحقيق ذلك أن قبيلتي تغلب وبكر اللتين يجمعهما وائل بن ربيعة قوى أمرهما وقهرا كثيرا من الناس وفي بعض الأيام نزل منهما رجل بناحية قريبة من بلادالفرس حذو منازل أيد ومعه ابنته وكانت من أجل البنات. فوشى بها رجل من أياد لدى ملك الفرس فاغتصبها من أبيها ثم عرض عليها جميع المشتهيات وخوفها بجميع العقوبات ومسها بكثير من المؤلمات ليرى وجهها فأبت (امتنعت) وخيرته بين أن يقتلها أو يعيدها لأبيها. فلما يئس منها أسكنها في موضع وأجرى عليها الأعمال الترفيهية واكتفى برؤية قدها والنظر إلى قامتها تحت ملابسها وبسبب ذلك نشبت حروب بين العرب والفرس وانقضى الأمر بقتل ملك الفرس وتخليص الفتاة وكان اسمها ليلى بنت لكيز ومن كلامها أثناء ما حصل لها تحث أهلها ولعرب على تخليصها ونفي العار عنهم :

ليت للبراق عينا فترى ... ما ألاقي من بلاء وعنا
ياكليبا وعقيلا يا أخوتي ... ياجنيدا أسعدوني بالبكا
عذبت أختكم يا ويلكم ... بعذاب النكر صبحا ومسا
غللوني قيدوني ضربوا ... ملمس العفة مني بالعصا
يكذب الأعجم ما يقربني ... ومعي بعض حشاشات الحيا
قيدوني غللوني وافعلوا ... كل ماشئتم جميعا من بلا
فأنا كارهة بغيكمو ... ويقين الموت شيء يرتجا
يا بني كهلان يا أهل العلا ... أتدلون على الأعجما
يا أيادا خسرت أيديكمو ... خالط المنظر من برد عما
فاصطبارا وعزاء حسنا ... كل نصر بعد ضر يرتجا

أصبحت ليلى يغلل كفها ... مثل تغليل الملوك العظما
وتقيد وتكبل جهرة ... وتطالب بقبيحات العنا
قل لعدنان هديتم شمروا ... لبني مبغوض تشمير ألوفا
واعقدوا الرايات في أقطارها ... واشهروا البيض وسيروا لي ضحا
يا بني تغلب سيروا وانصروا ... وذروا الغفلة عنكم والكرا
احذروا الار على أعقابكم ... وعليكم ما بقيتم في الدنا

ومن عوائد العرب القبيحة معاملتهم للمرأة معاملة الرقيق وهي من العوائد التي أبطلهاالإسلام بإعطائه للمرأة حقوقها وامتيازات لا توجد لها في قانون آخريعلمها كل ما له إلمام بعلم الحقوق والشريعة الإسلامية الغراء. لكن البعض من أهل سوف لم يبطلوا هذه العادة[1] فكانوا لا يعدون للمراة مقاما ولا يحفظون لها ذماما بل هي التي تاتي بالماء والحطب وقمان أن لم تأت بذلك حتى صار من تلد له بنت يقال له مبروك عليك هذه الحطابة لكونها ستصير حطابا أي تأتي بالحطب على ظهرها. وهذا شأن البادية. أما أهل الحضر فقد قل منهم ذلك بسبب منع النساء من الخروج من منازلهن.

والراجح أن نساء البادية أكثر من الرجال عددا وألين جانبا وأرق طبعا ولسن مع ذلك دون الرجال نخوة وشهامة وعزة وعفافا وتدينا يطقن التعب ويتحملن المشاق، ويتجشمن الصعاب، ويشاطرن رجالهن في كل

1. لم تعد المرأة بمنطقة الصحراء وسوف اليوم كما كانت عليه بالأمس بل صارت لها المكانة المرموقة ضمن الأسرة والمجتمع ونالت بحكم تطورها مع تطور العصر كامل حقوقها الاجتماعية مثل الرجل في كثير من الميادين.

أنواع الأعمال. فيقمن بإدارة بيوتن ويساعدن الرجال حتى في غزواتهم، وهن أشد تعلقا بالبداوة من الرجال، ينفرن من الحضارة أيما نفور. وعندهن من الأقوال السائرة أنه إذا طلبت إحدى بناتهن لرجل من الحضر أن تقول: صكاك أو صكار بابه ما نريده أي أنه إذا نام أغلق باب داره، فهو إذن جبان لا يليق بها. بل بعضهن يخشين وقوع البناء عليهن. يحكى أن بعض البدويات قد زرن قريبة لهن في الحضر فبتن ليلتهن وسط الدار (الحوش) وامتنعن من النوم في البيت وقلن لقريبتهن: ما أصبرك على هذا الضيق وغلق الباب دائما وعدم الخروج والجولان في الأراضي الواسعة والصحاري الشاسعة والبيوت التي تدخلها الشمس والرياح من كل ناحية.

ومن ذلك ما حكى أن ميسون بنت بجدل الكلبية حين تزوجها معاوية بن أبي سفيان ونقلها من البدو إلى الشام ومع كثرة خيراته وحسن بنائه كانت تكثر الحنين إلى آبائها والتأسف على مسقط رأسها حتى سمعها معاوية ذات يوم تقول :

لبيت تخفق الأرياح فيه ... أحب إلي من قصر منيف
ولبس عباءة وتقر عيني ... أحب إلي من لبس الشفوف
وأكل كسيرة في كسر بيتي ... أحب إلي من أكل الرغيف
وأصوات الرياح بكل فج ... أحب إلي من نقر الدفوف
وكلب ينبح الطراق دوني ... أحب إلي من قط ألوف
وخرق من بني عمي نحيف ... أحب إلي من علج عنيف

ففارقها والتحقت بأهلها مسرورة بما وجدت، زاهدة فيما تركت غير آسفة عليه.

وكانت الحروب في العرب القدماء كثيرة وينسبونها إلى الأمكنة ويسمونها أياما. وقد ألف أبو الفرج الأصبهاني كتابا جمع فيه ألفا وسبعمائة يوم (أي حرب).

واشهر ذلك يوم منبج (بئر لبني غنى) : انتصر فيه غني على بني عبس.

ويوم النقروات : كان الفوز فيه لبني عامر على بني عبس.

ويوم بطن عاقل : فاز فيه بنو ذبيان على بني عامر.

ويوم رحرحان : لبني عامر بني تميم.

ويوم شعب جبلة : وهي أعظم أيام العرب كما قاله أبو عبيدة، انتصر فيه بنو عبس وبنو عامر على بني ذبيان وبني تميم.

ويوم حرب داحس والغبراء : ويسمى يوم الفروق بين عبس وفزارة ويسمى أيضا يوم حرب سباق الخيل. وداحس والغبراء المذكوران فرسان الأول لقيس بن زهير سيد بني عبس. والثاني لحذيفة بن بدر سيد بني فزارة وزبدة، وذلك أن قيسا العبسي عقد بينه وبين حذيفة الفزاري رهنا على سباق هذين الفرسين ثم أرسلوهما في المضمار لكن حذيفة أضمر الخديعة فأنفذ رجلا يقف في مكمن على طريقهما حتى إذا سبق داحس ينفره لتسبق الغبراء، وكان كذلك. فوقع الخلاف بين الحيين وانتشبت الحرب بينهما وقتل كثير من الفريقين. ودامت الحرب سنوات عديدة. ثم اصطلحت عبس وفزارة وانفرد قيس عن بني عبس وساح في الأرض حتى انتهى إلى عمان فتنصر بها ومات.

ويوم المريقب: فاز بنو عبس على بني فزارة (في أرض الشربة). ويوم ذي حسا (وادي الصفا بأرض الشربة) : لبني ذبيان على بني عبس.

ويوم اليعمرية (ماء بالحرة) : انتصرت فيه بنو عبس على بني ذبيان.
ويوم الهباءة (ستنقع ماء في بحيرة): فاز فيه بنو عبس على بني ذبيان أيضا.
ويوم الرقم (ماء لبني مرة): كان النصر فيه لبني غطفان على بني عامر.
ويوم التنأة : لبني عبس على بني عامر.
ويوم شواحط (أراضي بلاد غسان): انتصر فيه بنو محارب على بني عامر.
ويوم حوزة الأول : فاز فيه بنو سليم الذين منهم أناس بسوف وغيرها على بني غطفان.
ويوم حوزة الثاني : مات فيه دريد جد الفرق التي بإفريقية وانتصر فيه صخر أخو الخنساء.
ويوم ذات الأثل لبني أسد إخوان طرود على آل الشريد وفيه طعن ربيعة بن ثور الأسدي صخرا في جنبه فبقي مريضا نحو الحول حتى مله أهله. فسمع يوما امراة من جاراته تسأل سلمى زوجته كيف حال بعلك؟ فقالت لها : لا حي فيرجى ولا ميت فينسى لقد لقينا منه بلاء عظيما وتعبا جسيما. وسئلت أمه كيف حال ابنك فقالت :أرجو له العافية، فقال صخر في ذلك:

أرى أم صخر لا تمل عيادتي ... وملت سلمى مضجعي ومكاني[1]
فأي امرئ ساوى بأم حليلة ... فلا عاش إلا في شقا وهوان

1. نرى صخرا في أبياته كان بقدر ما هو حاقد على زوجته سلمى على ما تضمره نحوه من ملل بسبب طول مرضه، ولربما صارت ضمن جواها للجارة تتمنى له الموت وتنساه كان بالعكس من ذلك ذاكرا فضل أمه التي لم يعتريها الملل يوما، ولم تفقد الأمل في شفائه ولم يكن لها إلا الرجاء في عافيته كما يبدو من كلامه أن أمه لم يصبها الملل مع كونها هي المتحملة لأتعاب التمريض والعيادة. وتضايقت سلمى بمجرد بقائه على هذه الحال بالبيت واشتغال مكان فيه. وعليه فقد دعا كل امرئ بالشقاء والهوان لمجرد نظرته نظرة تساو بين أمّه وزوجته. أترى بماذا يكون دعاؤه على من ينسى فضل الأم وينزلها دون منزلة الزوجة؟

وما كنت أخشى أن تكون جنازة ... عليك ومن يعتبر بالحدثان
لعمري لقد نبهت من كان غافلا ... وأسمعت من كانت له آذنان
أهم بأمر الحزم لو أستطيعه ... وقد حيل بين العير والنزوان

ويوم عدنية : وهو يوم ملحان فاز فيه بنو سليم أيضا على بني غطفان.
ويوم الصلعاء : لبني هوزان على بني غطفان.
ويوم الكديد: وهو حرب قيس وكنانة انتصر فيه بنو سليم على بني كنانة.
ويوم برزة (ماء لبني فراس) : فازت فيه كنانة على بني سليم.
ويوم الغيفاء : لبني سليم على بني كنانة وفيه يقول عباس بن مرداس السلمي جد سيدي عبد الرحمن الأخضري يرد على ابن جذل كلمته التي افتخر بها يوم برزة المتقدم :

ألا أبلغا عني ابن جذل ورهطه ... فكيف طلبناكم بكرز ومالك
غداة فجعناكم بحصن وبابنه ... وبابن المعلي عاصم والمعارك
ثمانية منهم ثأرناهم به ... جميعا وما كانوا بواء لمالك
نذيقكم والموت يبنى سرادقا ... عليكم شبا حد السيوف البواتك
تلوح بأيدينا كما لاح بارق ... تلألأ في داج من الليل حالك
صبحناكم العوج العناجيج بالضحى ... تمر بنا مر الرياح السواهك
إذا خرجت من هبوة بعد هبوة ... سمت نحو ملتف من الموت شائك

ويوم السريان : ويقال له حرب قيس وتميم انتصر فيه بنو عامر على بني تميم.
ويوم أقرن : فاز فيه بنو عبس على بني دارم (أقرن ثنية).
ويوم المروت : لبني العنبر إخوة الذاواودة من بني رياح على بني بشير وبني سليطة بن يربوع.

ويوم دارة ماسل : لبني تميم على بني قيس بن زيد مناة وبني عمرو ابن كلاب.

ويوم الوقيظ :أغار فيه اللهازم على بني تميم فكسروهم وقتلوا منهم كثيرا.

ويوم النباح : ويقال له يوم نبتل، انتصر فيه بنو بكر على بني تميم.

ويوم زرود الأول : كان الفوز فيه لبني يربوع على بني تغلب.

ويوم زرود الثاني : فاز فيه يربوع أيضا على بني بكر. (ثم تتابع نصر بني يربوع على بني بكر في أيام كثيرة وهي : يوم ذي طلوح، ويوم اود، ويوم الحائر، ويوم ملهم، ويوم القحقح، ويوم رأس عين، ويم طخفة، ويوم الغيظ، ويوم مخطط، ويوم جدود، ويوم الجبايات، ويوم الغبيط، ويوم سفوان، ويوم السلى).

ثم يوم بلقاء الحسن : ويقال له يوم السقيفة. فاز فيه بنو ضبة على بني شيبان.

ويوم الوزيرين : كانت فيه النصرة لبني بكر بن وائل على بني تميم.

ويوم الشيطين : لبني بكر أيضا على بني تميم.

ويوم البسوس : ويسمى حرب البسوس التي دامت أربعين عاما بسبب قتل ناقة، بين بني بكر وبني تغلب.

قال أبو المنذر : لم تجتمع معد كلها إلا على ثلاثة رهط من رؤساء العرب وهم : عامر،ربيعة، وكليب. فالأول عامر بن الظرب بن عمرو بن بكر بن يشكر بن الحارث وهو عدوان بن عمرو بن قيس عيلان وهو إلياس بن مضر. وعامر بن الظرب هو قائد معد يوم البيداء حتى

تمذحجت مذحج وسارت إلى تهامة وهي أول واقعة كانت بين تهامة واليمن. والثاني ربيعة بن الحارث بن مرة بن زهير بن جشم بن بكر بن حبيب بن كعب وهو قائد معد يوم السلان وهو يوم كان بين أهل تهامة واليمن. والثالث كليب بن ربيعة وهو الذي يقال فيه أعز من كليب وائل وقاد معدا كلها يوم خزازى ففض جموع اليمن وهزمهم فاجتمعت عليه معد كلها وجعلوا قسم الملك وتاجه وطاعته فعبر بذلك حينا من دهره. ثم دخله زهو شديد وبغى على قومه لما هو فيه من عزة وانقياد معد له حتى بلغ من بغيه أنه كان يحمي مواقع السحاب فلا يرعى حماه ولا تورد إبل احد مع إبله ولا توقد نار مع ناره حتى قالت العرب أعز من كليب وائل. وكانت بنو جشم وبنو شيبان في دار واحدة (أي مترل واحد من الصحراء) بتهامة وكان كليب بن وائل قد تزوج جليلة بنت مرة بن ذهل بن شيبان. وأخوها جساس بن مرة. وكانت البسوس بنت منقذ التميمة خالة جساس المذكور، وكانت نازلة في بني شيبان مجاور لجساس وكانت لهات ناقة يقال لها سراب ولها تقول العرب اشأم من سراب وأشأم من البسوس : فمرت إبل لكليب بسراب ناقة البسوس وهي معقولة بفناء بيتها جوار جساس بن مرة فلما رأت الناقة الإبل نازعت عقالها حتى قطعته وتبعت الإبل واختلطت بها حتى انتهت إلى كليب وهو على الحوض معه قوس وكنانة. فلما لرآها أنكرها فاشتد عليها بسهم فخرم ضرعها فنفرت الناقة وهي ترغو. فلما رآها البسوس قذفت خمارها عن رأسها وصاحت: واذلاه! .. واجاراه! ... وخرجت فحمست جساسا فركب فرسا له مغرورا به فأخذ آلته وتبعه عمرو بن الحارث بن ذهل بن شيبان على

فرسه ومعه رمحه حتى دخلا على كليب. فقال له يا أبا الماجدة عمدت إلى ناقة جارتي فعقرتها فقال له : أتراك مانعي أن أذب حماي فأحمسه الغضب فطعنه جساس فقصم صلبه وطعنه عمرو بن الحارث من خلفه فقطع بطنه. فوقع كليب وهو يفحص في الأرض برجليه وقال لجساس: أغثني بشربة ماء فامتنع من ذلك ...". انتهى كلام أبي المنذر.

ثم يوم الذنائب : وهو أعظم واقعة كان الظفر فيها لبني تغلب على بني بكر.

ويوم واردات : كان الظفر فيه أيضا لبني تغلب على بني بكر، وفيه مات همام بن مرة.

ويوم عنيزة : كانت الدائرة فيه لبني تغلب على بني بكر، ثم تتابعت لهم أيام مثل هذه كانت الكرة على بني بكر، كيوم قضة، ويوم ذات الشقوق ويوم العقبة، وفيه مات المهلهل في أسر الحرث بن عباد اليشكري.

وكانت أسفار العرب للغزوات والحروب بظعونهم بالأحياء من الأهل والولد وكان الشعر في حروبهم يقوم مقام الآلات الموسيقية فيتغنون به في مواكبهم فيطربون. وتجيش همم الأبطال فيسارعون إلى مجال القتال. وكانوا ينصبون الرايات على أبواب بيوتهم لتعرف بها ويفتخرون بها. فالراية الصفراء لملوك اليمن والحمراء لأهل الحجاز. وكانوا يقاتلون بالكر والفر ولا يعتبرون قتال الزحف صفوفا وهو المعتبر عند سواهم من العجم وغيرهم لكن لما شرعت العرب في قتال الفرس وغيرهم اضطروا إلى مقاتلتهم زحفا مثل قتالهم فجعلوا يعبؤون الجيوش تعبئة الفرس والروم فيقسمون العساكر أقساما يسموها كراديس، ويسوون

في كل كردوس صفوفهم ويرتبون الكراديس حتى إذا تمّ هذا الترتيب يكون الزحف من بعد هذه التعبئة وكانت حروبهم في صدر الإسلام تدل على مهارتهم في فن الحرب وسياسته. وكانوا يلبسون في حروبهم الدروع السلوقية ويعتقلون الرماح وينتكبون القسى ويضربون بالسيوف المشرفية الرماح السمهرية والردينية. وكان في سلاحهم أيضا النبال، والتروس، والدرق والمجانق، وعرادات لرمي الحجارة مرمى بعيدا (وهي الحديفات).

إن حب الفخر في كل قبيلة حملها على التسلط على أختها من غير ذنب أوبه. وقد تشابه العرب واليونان القدماء في هذا الداء، داء الفخر المؤدي إلى التسلط تشابها غريبا. فإن أكبر الرذائل التي أودت باليونان حبهم لذلك فرغبت كل مدينة منهم في الاستئثار بالأمر والاستفراد به وجعلتهم كالسمك يتآكلون ويفني بعضهم بعضا حتى أن من يطالع تاريخ حروبهم خصوصا حروب أسبارط Sparte وأثينا Athenes لا يسعه إلا استغراب تلك الرغبة الشديدة التي كانت لكل من المدينتين المذكورتين في التغلب على أختها. وقد فطر العرب على مثل ذلك فكان دأبهم التقاطع قبل تآلفهم والانقسام فيما بينهم فدلوا بذلك على أنهم لا يحسنون سياسة الملك وأن إحسنوا تأسيسه كما قال ابن خلدون. وبين الأمرين فرق واضح فالتأسيسي يقتضي القوة والبسالة والعسكرية والصبر على الشدائد، أما السياسة فأول ما تستوجبه اتحاد الكلمة والثبات والانتظام وهذا ما كان ناقصا في الأخلاق العربية ومن الأسف قدسرى هذا الداء في دول الإسلام بعد ذلك فنخر عظام المسلمين حتى تداعت كل الأعضاء أو كادت وتفرقت أجزاء الجسم الواحد فصارت هدفا لكل رام، ولقمة سهلة للازدراد. والله اعلم هل هم من غفلتهم سيستيقظون.

واقعة الشيخ أحمد بقمار[1]

في حدود عام 1180 هـ-سنة 1766 م كان القائم بالإمارة بتقرت هو الشيخ أحمد بن الشيخ محمد بن الجلالبية وكانت له عداوة مع الوادي وبعض قرى سوف. فرحل بمحلته نحو الوادي حتى نزل بوادي زيتن. وكان جاء النذير من تماسين لأهل الوادي في ذلك فتأهبوا واستعدوا له استعدادا كليا وخرجوا عازمين على قتله أو أسره أو عدم رجوعهم إلى منازلهم.

واقتتل الفريقان ومات من كل فريق خلق كثير. وفي آخر النهار عاين الشيخ أحمد انحلال جنده ففر يطلب النجاة لنفسه وتبعه من معه. ولحق بأثرهم أهل الوادي حتى حال بينهم الظلام فخشوا من الوقوع

1. في عهد الأتراك بالجزائر تكاد تكون المناطق الصحراوية في عزلة عن النفوذ التركي وأن تعيش شبه مستقلة تحت نفوذ ما يسمى بالسلطان مثل سلاطين تقرت. وكانت منطقة سوف هي الأخرى مستقلة وتابعة صوريا لشيخ العرب ولسلطان تقرت الذي كانت تدفع له بعض قرى سوف إتاوة سنوية رمزية بسيطة جدا – وكانت السلطة بمنطقة سوف للجماعة التي يقع عليها الاختيار من طرف الأهالي- وقدرفض البعض من قرى سوف نفوذ أبناء جلاب الذين توارثوا الحكم وانقاد إليهم البعض الآخر. وكان مقرهم مدينة تقرت. الأمر الذي جعل سلاطين أبناء جلاب يحاولون في عدةمناسبات محاربة قرى سوف الرافضة لسلطتهم قصد إخضاعها. وما واقعة الشيخ احمد الذي هو الجد الأعلى للجلابة وحملته على قرية قمار إلا من هذا القبيل.
وقد سموا الجلالبية لأن أجدادهم الأولين كانوا تجارا في الغنم (الجلب) وهم من سلالة بني مرين حسب المراجع.

في مكيدة إذ ربما يكون فراره خديعة فرجعوا غانمين بعض الأسلحة والثياب والدواب.

ثم اتفق رأي الشيخ أحمد ومن معه على الذهاب إلى قمار في غفلة أهل الوادي وظنهم ذهاب المحلة إلى تقرت فأتوها أي قمار في ربيع الثاني من عام 1180 هـ-سنة 1766 م. كما ورد ذلك في كناش الشيخ العروسي. وفي مخدرته. ونزلوا في الزراديب وقطعوا بعض النخيل وأفسدوا الفواكه وأحرقوا الجريد فخرج لهم أهل قمار في اليوم الثاني ووقع القتل في الفريقين. وبعث أهل قمار من يخبر أهل الوادي وبعض القرى فقتل بالطريق. وبعثوا في الليل آخرين فوصلوا. وبات القماريون شر ليلة قياما بالأبواب ومعهم نساؤهم يحملن بعض ما يحتاجون.

ثم أصبح القتال بين القومين فكانت الدائرة على أهل قمار حتى كادوا يلحقوهم إلى منازلهم. وقبل الظهر أتى المبشرون بقدوم أهل الوادي ففرح القماريون وكثر لغظهم واستيقظوا من سباهم فبلغ الخبر إلى الشيخ أحمد فارتحل من حينه بمحلته يجد السير إلى تقرت. وكان اهل قمار لما لحقهم قنعوا بالسلامة فأرسلوا إلى قوم الواديين أن ارجعوا فرجعوا، وكفى الله المؤمنين القتال وهو ولي المؤمنين.

بنـــاء البهيمـــة الجديـــدة

في عام 1195 هـ-سنة 1781 م رحل أهل البهيمة القديمة، وكانت تسمى القدايم ونزلوا على بئر البهيمة محلهم الآن فوجدوه طيب الماء، فسيح الأرجاء، حسن الهواء، كثير الأشجار، وكان موضع القدايم ضيقا، مر الماء، قبيح الهواء، لا ينبت إلا شجر النتين.

ولم يبق من البهيمة القديمة أي القدايم سوى محل سيدي محمد الشريف. وتوجد الآن الحجارة والأسس حوله كثيرة لعدم ردمه بالرمل. وقد حدد في هذا العهد وجعلت عليه قبة هي القائمة اليوم.

قيل وفي هذاالعام ايضا كان خراب عامرة قمار. وفيه كان خلع الشيخ أحمد المتقدم ذكره من تقرت.

وفي عام 1196 هـ-سنة 1782 م رحل أهل الزقم من قريبتهم القديمتين ونزلو جميعا بمحلهم الآن قروا به قرية الزقم الموجودة اليوم.

وفيه حصلت الوباء بين المواشي وجدب بالصحراء. والله أعلم.

إيواء أهل قمار للشيخ أحمد

جاء في كناش الشيخ العروسي أنه حين خرج الشيخ أحمد من تقرت وقلت أتباعه ندم على ما فرط منه في قمار فأرسل للقماريين معتذرا يطلب التأمين والإبلاغ للجريد، فأجابوه وحسنوا له الخطاب، فأتاها عام 1199 هـ-سنة 1785 م. ونزل بجانبها الغربي وهو على حذر منهم لظنه المكر به، لكن ارتكب أخف الضررين. ثم انتقل إلى جانبها الشرقي ثم إلى الزراديب. وفي جميع ذلك لا يستقر له قرار. وكانت رسله تترى إلى نفطة في شأن النقلة إليها، وأهل قمار يبالغون في إكرامه. ومكث فيهم عامين كأنه يأكل من لحمه، فضعف جسمه بعد أن كان بدينا بطينا، وانتهكت قواه حتى صار لا يقوم إلا على يديه من تفكيره فيما كان عليه وما آل إليه. وحق عليه قول الشاعر :

فأصبحت كنتيا[1] وأمسيت عاجنا[2] وشر خصال المرء كنت وعاجن

ثم انتقل إلى نفطة عام 1201 هـ-سنة 1787 م، وأراح نفسه وغيره.

---

1. الكنتي هو القوي الشديد.
2. العاجن هو الضعيف أو كبيرالسن الذي يعتمد بيديه على الأرض عند قيامه. فعند وضع يديه على الأرض عند قيامه شبيه بمن يضعهما عند عجن الدقيق.

وكان في خلال مدته بقمار أغرى بعض السفهاء[1] أهل الوادي للفتك به فامتنعوا من إذايته قائلين : لا نحارب من جاءنا على وجه الحرب. وعدها الناس لهم من الفضائل التي لا تنسى. والله أعلم.

---

1. نظرا للعداوة التي كانت بين أهل الوادي والشيخ أحمد المذكور اغتنم بعض السفهاء الذين يصطادون في الماء العكر فرصة إقامة الشيخ أحمد بقمار فأشاروا على أهل الوادي بالانتقام منه غير أنهم أبوا ذلك لأن العرب من طبعهم لا يعتدون إلا على من سبق بالاعتداء عليهم ولا يحاربون سوى من أتاهم على وجه الحرب. وقد يكون أهل الوادي مثل أهل قمار حريصين على حماية الشيخ أحمد المقري لو أنه احتمى بهم.

وقائع الشيخ فرحات بسوف

بعد انتقال الشيخ أحمد على الجريد، ولا أدري أكان في تلك السنة نفسها أم في التي بعدها أو الراجح في وسط تلك السنة كما يرشد له ما في مخدرة الشيخ العروسي أن الشيخ فرحات[1] كانت له وقائع بنواحي الزاب الغربي ومداشر تقرت الشمالية فأراد الذهاب أيضا إلى سوف.

قال الشيخ نصر: فلما قارب الشيخ فرحات نخيل سوف ترجل وقصد الرقوبة فقطع كثيرا من جريدها وأراد أن يصول على جميع تلك النواحي فعارضه أهل تاغزورت وأهل العرش منهم خاصة وأرادوا محاربته فتيقنوا بالعجز. فسأل عن نخيلهم فأخبر بذلك فأمر قائد محلته وهو إبراهيم بن الحاج بن قانة بتجمير نخيلهم فجمر منه نحو الثلاثمائة نخلة فكبر النهار على التاغزوتيين لكنهم لم يظهروا جزعهم خوفا من النكاية بهم.

---

1. حوالي سنة 1787 م كان الشيخ فرحات بن جلاب سلطانا على تقرت ونواحيها. وكان مستقلا عن الحكم التركي رافضادخوله تحت نفوذهم.
أما موقف أهل سوف فكان حرجا أمام تلك الظروف، فبينما كان سلطان تقرت يطالبهم من ناحية بالاعتراف بسلطته وتسليم الجبايات إليه، كان شيخ العرب ببسكرة الذي يمثل السلطة التركية يبعث إلى منطقة سوف بين الحين والآخر بعض جنوده من الأتراك لتسليم الجبايات. فنتج عن ذلك خلاف بين أهل سوف وانقسام فيمابينهم. فكانت إذن بعض قرى سوف خاضعة لنفوذ سلطان تقرت وأخرى معترفة به. وهذا هو الذي حمل سلطان تقرت على محاربة هذه القرى قصد إرضاخها.

وحكى لي بن بوروبة رحمه الله أنه وقع قتال بينه وبين أهل تاغزوت وإلى الله البراءة من القولين.

وجاء في كناش الشيخ العروسي ما نصه وأن كان مجملا وكذلك في مخدرته. واللفظ للأول : "وفي رمضان من هذه السنة (يعني المتقدم ذكرها) أتى الشيخ فرحات وإبراهيم بن الحاج بن قانة بمحلة إلى الرقوبة جمرت من جر (نخيل) العرش ومن معهم نحو ثلاثمائة نخلة وقطعت جريد الرقوبة وما حولها ... الخ".

قال القدماء : ثم انتقل الشيخ فرحات إلى الصحراء يريد الذهاب إلى الزاب الشرقي فنزل قريبا من غمرة بنحو ميل من الجهة الشمالية وأقام بها يومين.

قال الشيخ نصر : لكن الشيخ فرحات غير رأيه فأصبح لاويا عنانه نحو الدبيلة فقصد نصفها الغربي[1] يريد تدميره وإجلاء أهله. فلما قارب المكان بعث إلى الدبيليين يخيرهم بين الخروج من غير قتال وترك المنازل والأملاك أو الدفاع عن أنفسهم إن كانوا قادرين. فاتفق رأيهم بعد مشورة طويلة على المدافعة إذ الخروج من غيرها عار، والموت لا تتأخر ولا تتقدم بل الحي يعيش سعيدا والميت يموت شهيدا لقوله (ﷺ): "من قتل دون ماله أو حريمه مات شهيدا".

فنشط الجميع، ووافقوا على ذلك الرأي، واقتتلوا خارج البلدة برهة مات أفراد قليلة من كلتا الفرقتين وفي آخر الحال انهزم الدبيليون ودخلوا

1. وقد تختلف نفس القرية الواحدة فيمابينها كما جرى بالنسبة لقرية الدبيلة إذ كان نصفها.

البلدة والقوم أثرهم يقتلون ويسلبون. ثم خربوا مساكنهم ونهبوا أمتعتهم، وإلى اليوم بعض جدران الدبيلة الغربية معروفة توارثها الدبيليون[1] وفروا بأشخاصهم يطلبون النجاة تاركين جميع ما يملكون فنزلوا بالزقم واستوطنوها إلى الآن. ويقال لبعض الفارين الذين بالزقم أولاد سعيدان.

وكانت الواقعة المذكورة قبل ليلة القدر بيومين أو ثلاثة أيام من السنة السابقة الذكر.

ثم ارتحل الشيخ فرحات راجعا من حيث أتى بغنائم كثيرة معجبا بصنيعه وما سولت له نفسه وحق عليه قول القائل :

سيعيد الله كلا منهم وسيجزي فاعلا عما فعل

بل قيل ان بعض العقوبات تعجل في الدنيا قبل الآخرة ومنها هذه وذلك أن يوم صدود المحلة من الدبيلة أصابتهم ريح عاصفة شبيهة بريح عاد وأمطرت عليهم السماء مطرا كأنها من أفواه القرب وأعقبه حجر كالرمان أهلك كثيرا من مواشي المحلة ومات جم غفيرمن القوم وجرح معظمهم. والله على ما شاء قدير.

قال القدماء : ارتحل الشيخ فرحات من سوف ولم يتعرض لأهل قمار فعزم على الرجوع إليهم فاعتراه مرض لايقدر معه على النهوض فأذن للشيخ إبراهيم بن جلاب بن عبد القادر بالتوجه إليهم وتخييرهم بين إعطاء إتاوة (غرامة) يفرضها عليهم حسب اجتهاده وبين القتال

1. يعني توارثها الدبيليون القاطنون بجانب الدبيلة الشرقي إذ أن أهل الناحية الشرقية من القرية لم يحاربهم الشيخ فرحات وبالتالي لم يغادروا منازلهم.

فنزل بجنب قمار الغربي، وبعث لرؤسائهم فأتوه منقادين ينتظرون ما يأمرهم به، فعرض عليهم رأي الشيخ فرحات فقبلوا الصلح، فسلط عليهم ثلاثمائة ريالات في كل مائة ريال يملكونها (صرف الريال في سوف فرنك واحدوخمسة وعشرون سنتيما) فقبلوا ذلك وأخذ منهم تلك الأموال وكر راجعا بمن معه. وذلك في 1202 هـ-1788 م. في أواسط السنة أو آخرها حسب قول القدماء.

وبعد ارتحال الشيخ إبراهيم المذكور تذاكر أهل قمار في الوسيلة الحاسمة للنجاة من هذه الطامة الكبرى فأرسى أمرهم على أن يحتموا بأهل الوادي.

وفي 1203 هـ-1789 م، أتى الشيخ فرحات بنفسه ومعه جيش عظيم يقوده محمد بن الحاج بن قانة ونزل على قمار كعادته وأمر أهلها بدفع خمسة وعشرين ألف ريال سوفي وما يكفي المحلة من القمح والسمن والزيت وما يكفي دوابهم من الشعير والحلفاء وما يكفي لأخبيتهم من الخشب وأقام فيهم نحو الخمسة عشر يوما على هذا الحال، وارتحل راجعا.

قال الشيخ نصر : قد أتى إلى الشيخ فرحات رجلان من أهل الوادي يتوسطان بينه وبين أهل قمار فلم يعبأ بهما فرجعا من فورهما. وعزم أهل الوادي على معارضة الشيخ فرحات إذا رجع في العام القابل وعلى تعصبهم مع القائمين ضده. وجرت السيارات بين قمار والوادي وما زال الأمركذلك إلى عام 1204 هـ-1790 م. فأتى الشيخ فرحات في عدد قليل إلى قمار ونزل بمحله سابقا فأتاه أهل الوادي للوساطة فعبس

في وجوههم فخرجوا قبل الجلوس وأمروا أهل قمار بعدم إعطائه المال المفروض عليهم. وكان قبل وصول الجماعة المذكورة قبض من القماريين أربعة آلاف درهم (ألفي فرنك) فانتقل قانعا بها ونزل حول تاغزوت فجمعت له دراهم معلومة من بعض القرى وأصبح ملتفتا نحو تقرت حانقا على أهل الوادي أكثر من قمار.

وارتبطت أهالي قمار بأهالي الوادي أشدالارتباط حيث كانوا سببا في إخراجهم من بين أنياب الأسد وصده عنهم مرغما.

وجعلت الأعراس (الأفراح)، وضرب البارود، وخرج أرباب الشبابة (القصبة المثقبة) وأهل الكوبة (الدربوكة) وأهل الدرز (الغناء) وجالوا في الأصحن وحولهم النساء متزينات بأبهج زينة يولولن (يزغردن) ويصدين (يصفقن).

ثم في آخر السنة المذكورة مات الشيخ أحمد بمكة المكرمة وجاء خبره إلى سوف يوم 5 محرم من عام (1205 هـ-1791 م)، فأظهروا التكدر لأجله حيث كان من ذوي حماستهم. وفرحوا باطنا لما وقع منه معهم، وتم بذلك سرورهم، لكن في آخر ربيع الثاني من هذه السنة غرقت سفينة برادس قرب تونس فيها من أهل قمار ستةوثلاثون حاجا ممن قضى فرضه ورجع من جملتهم سيدي الطاهر بن سيدي خليفة بن الحسن صاحب المنظومة السابقة ونظم الجليل المسمى جواهر الإكليل على مختصر سيدي خليل، ومنهم الحاج أحمد بن الهادي والحاج سعد الشارف، ومن غيرهم نحو ثلاثمائة حاج.

وغرقت في نفس الليلة ثلاث سفن أخرى فيها ألف وأربعمائة مسافر. فحزن أهل قمار من أجل ذلك حزنا شديدا وصار فرحهم ترحا. ودوام الحال من المحال.

وفي 20 من جمادى الأولى من هذه السنة أيضا قدم صالح باي[1] من قسنطينة ومعه ستة آلاف فارس من العرب المشهورين بالشجاعة قد انتقاهم من جند عظيم وألف فارس من الترك. وسار بهم إلى تقرت وحاصر بها الشيخ فرحات أربعين يوما و لم يقدر على فتحها. ثم ارتحل وترك بعض جنوده ولفائف العرب والرواغة متعصبين مع الشيخ محمد بن الشيخ الحاج أحمد برأس وادي المغير. وأذن له في الغارات ومحاصرة الشيخ فرحات ويأتيه المدد في كل حين.

وبعث الشيخ إبراهيم مع قائد العبيد إلى سوف ليأخذوا أخبية الترك المودوعة بقمار كما يأخذون الإماء والعبيد من قرى أولاد سعود ففعلوا وتم لهم ما أرادوه ونكل بالشيخ فرحات وقومه، وخرج ناجيا

---

1 . تنص بعض المراجع على أن حوالي عام 1202 هـ-سنة 1788 م أرسل صالح باي والي قسنطينة حملة تأديبية ضد سلطان تقرت فرحات بن جلاب الذي رفض طاعته والدخول تحت نفوذه فعجز صالح باي أمام قوات فرحات مرات عديدة، الأمر الذي دعا صالح باي إلى القدوم بنفسه وإلى إعمال الحيلة للقبض على فرحات بأن يبعده من محله بإشعال ثورات ضده بسوف سنة 1791. فاضطر فرحات للذهاب إلى منطقة سوف قصد إرجاع الأمن بها وفعل بها ما فعل وقيل مات بهذه الواقعة وقيل بغيرها وبذلك تم لصالح باي الاعتراف بنفوذه على تقرت وما حولها، وبحيلة أخرى استطاع صالح باي أن يؤسر أتباع فرحات وقواده بمكان يسمى زريبة الوادي.

بنفسه، وقيل قتل بها، والصحيح خلافه. وتولى الشيخ محمد المذكور عل تقرت ودانت له الرعية، وأمن الطرق، ونصب الحرس في الأماكن المخفية، وعدل بعض مياه النخيل وعمت عافيته وعفوه أهل سوف، فصار بوسائطه يسعى في قطع أسباب الخلاف بينهم وفي بث روح الأخوة خلالهم، إلا أن صوته هذا لم يبلغ البعض منهم.

وفي خلال هذه المدة ذهب جماعة من الربائع إلى إخوانهم الذين اختلطوا بالطوارق وتناكحوا مع السودان. ومنهم طوائف بقرب فزان يظعنون بأطراف وادي الأجال كما سيأتي ذكرهم لأجل أن يأتوا معهم فلم يجيبوهم لذلك إلا طائفة قليلة من المحل المتقدم ذكره يقال لهم أولاد الحجاج، وبعض العوام يقول أولاد حجاج بدون تعريف. وتعمقوا في الصحاري فارين من قرب الوادي وتصاهروا مع بعض العربان واختلط نسبهم في ذلك العهد، ثم أنفوا من ذلك وعزموا على أنهم لا يزوجون بناتهم لغيرهم ولا يتزوجون من غيرهم. وبقي هذا دأبهم غالبا إلى الآن، فصفت اليوم أنسابهم وتميزت أحسابهم واشتهروا بذلك. والله أعلم.

مناوشة الحناشي للقماريين

جاء في كتاب العروسي : "كما قال القدماء إنه لما تمكنت قدما الشيخ محمد في تقرت[1] ولم يبلغ صوته مسامع بعض أهل سوف، أخبر الباي صالح بذلك. فوجه محلة يظنها كافية وأمر عليها أبا عزيز بن نصر الحناشي، فنزل بالمكان المسمى العدامة بغمرة قمار الشرقية الشمالية. وخرج القماريون للقائه، وبعثوا لأهل الوادي لظنهم عدم القدرة على المحلة وإذا بهم حين رأوهم استحقروا شأنهم، فراودوهم عن الخروج من غير حرب فامتنعوا فوقعت بينهم مناوشات خفيفة وكلمات طفيفة وأخبر أبو عزيز باستنجاد أهل قمار بأهل الوادي، وإذا أتوا يشتد الحال ويصعب الانفصال فالأولى عدم التأخر عن الانتقال، فجمع أناسه وخرج مسرعا.

ولما وصل أهل الوادي أخبروهم قائلين إن المحلة انتقلت من أمس خفية علينا ولم يبلغنا خبر عنها إلى الآن. وأقاموا في قمار يوما ورجع أهل الوادي من غير كثرة تعب ولا إراقة دماء. وكفى الله المؤمنين شر القتال.

وكان ذلك عام 1207 هـ-سنة 1793 م.

---

1. بعد انتصار صالح باي على فرحات بن جلاب دخلت منطقة تقرت تحت النفوذ التركي. وعين صالح باي الشيخ محمد بن الشيخ الحاج احمد واليا على المنطقة مكان فرحات ومع ذلك بقيت بعض نواحي سوف مناهضة للشيخ محمد المذكور لأسباب قديمة.

وفي هذه السنة أتى كثير من العرب إلى سوف ونزلوا بالوادي معظمهم من الفرجان. ومنهم من نزل بالهنشير أيضا وحرضوا أهله على زيادة البناء. وكانت كوينين في ذلك العهد تندرج نحو العمران وتكبر شيئا فشيئا. وفي آخر هذه السنة وقع جدب بالصحراء أضر بالمواشي وتزاحم الناس عل موقع المطر. والله أعلم.

مناوشــــة أهــــل الـــــوادي

قال الرايس حمدة لما وقع جدب بالصحراء ومزاحمة الناس على مواطن المرعى رغب كل فريق في أن تكون له الأرض الخصبة فتضارب الشباب والعبيد عليها ونزل كثير من العائلات من الصحراء إلى البلاد قبل أوان النزول المعتاد هروبا من القتال، وجم غفير تعمق في الصحراء القبلية حتى التقى ببعض أهالي صحراء غدامس فوجدوهم على حالة سيئة من الجوع والعراء بسبب قبح الأرض وجدب الصحراء، وحين رجعوا تبعهم كثير منهم ونزلوا بأرض سوف وسيأتي ذكرهم في المصاعبة وأولاد أحمد وكوينين إن شاء الله.

ولما اجتمع الناس في الوادي زمن الخريف تجاذبوا أطراف الحديث وتلاوموا عما صدر منهم سابقا فقام بعض الحمقاء يشخر ويمخر ويتطاول بالكلام الذي لا يناسب فقام له أكفاؤه وتشاجروا ثم أفضى الحال إلى المضاربة بالعصي ونحوها، قيل مات في تلك الحادثة أربعة وقيل سبعة وقيل أحد عشر رجلا، فانتقل بسبب ذلك كثير من الأهالي ونزلوا بمحل الهنشير القديم الذي هو في طريق تقرت الآن غربي بالحجرة بانحراف إلى الشمال، معظمهم من سوفية أولاد أحمد وأفراد من المصاعبة، وذهبت طائفة إلى الهنشير الشرقي فقبلهم أهله واختلطت أنسابهم الآن فصاروا منهم، كما ذهب كثير من الربايع إلى نواحي الزقم وتركوا أملاكهم بالوادي توارثها إخوانهم الباقون.

وكادت تتقوض أركان الوادي في ذلك الحين لولا حكمة بعض رجاله وثبات أبطاله.

وكان ذلك في أوائل عام 1208 هـ-سنة 1794 م، والله أعلم.

رجوع الصيايدة وأولاد رابح إلى تاغزوت

قال الشيخ نصر وعلي بن بوروبة الزبيدي أن الصيايدة وأولاد رابح بعدما كانوا مستقرين بقمار وضاق بهم المجال لضيق المكان اختاروا الرجوع إلى تاغزورت فأخذوا أمتعهم ونقودهم وعوضت أملاكهم.

أقول : هذا هو الصحيح لوجود القرائن الدالة على ذلك وأن رجوعهم كان عام 1209 هـ-سنة 1795 م.

ويزعم البعض أن ذلك كان قبل التاريخ المذكور بنحو خمس سنين، وهو خلاف التحقيق. فقد سألت الكبار فكان كلام الكل ينطبق على هذه السنة. والعلم عند الله.

وفي هذه السنة مات صالح باي[1] مقتولا وتولى الأمر بعده أبو الفتك حسن باشا. وفيها مات بتقرت محمد بن الحاج بن قانة مسموما بعد رجوعه من الجزائر. ثم ولى على تقرت ابن أخيه علي بن القيدوم وعزل حسن باشا في سنته من قسنطينة وولي الوزناجي مصطفى وعزل إبراهيم بن الحاج وقيل سجنه. وعزل عليا ابن اخيه من تقرت وخرج منها. ثم اتفق رأى معظم أهل تقرت وهم خدام أولاد الشيخ أحمد وأولاد الشيخ عبد القادر على تولية الشيخ محمد بن إبراهيم الأكبر وهو الملقب بمهماس. واستقر على سرير الملك خمسة أيام فإذا صاحب

1. صالح باي والي قسنطينة الذي قاد حملة تأديبية ضد فرحات بن جلاب سلطان تقرت الرافض لحكم الأتراك كما تقدم ذلك.

قسنطينة الوزناجي مصطفى قد ولى الشيخ إبراهيم بن الشيخ الحاج أحمد فأتى حانقا على تقرت وأخرج الشيخ محمد مهماس بعد أيام وقعت بينهما. وبقي في أطراف البلد ينتظر الخبر من رفيقه بقسنطينة وهو الحاج محمد بن كوجك علي كما يترقب التفاف الناس حوله فيعود لمحاربة تقرت. فمات رفيقه بقسنطينة في تلك الأيام وبلغ خبره إلى مهماس فعرف ان ذلك من سوء حظه فهرب إذاك ومكث أياما بالصحراء وتفرق من كان معه واقتسموا ما لديهم من المؤونة التي كان أحضرها مهماس لجنوده.

ثم أشار عليه بعض خواصه بالرجوع إلى تقرت تحت حماية الشيخ إبراهيم والشيخ محمد، فرجع بتلك الصفة نازعا أبهة الملك لابسا لباس السوقة ففرحا بقدومه ووسعه عفوهما وحلمهما وأزالا ما بخاطره من الانكسار.

وبعد زمن يسير انقلبت الأحوال ورجع الملك إلى حسن باشا فأتاه الشيخ فرحات من الوادي على القول بأنه كان حيا ومعه أربعون فارسا من مشاهيره مصحوبين بهدية عظيمة منها خمسة عشر عبدا، وخمس عشرة أمة ومهريان نجيبان على كل منها راحلة (سرج) بخمسة عشر دينارا، وثلاثة أفراس وكثير من النقود طمعا في الولاية على تقرت، فلما وصله أخذ ما عنده وسجنه وضيق عليه فيه، وأكرم ممن كانوا معه وأرجعهم إلى محلهم.

وكان في آخر تلك الوقائع عام 1214 هـ-سنة 1800 م، والله أعلم.

محاولـــة فتـــح قمـــار

قال القدماء، كما جاء في كناش الشيخ العروسي : إن حسن باشا وجه محلة تحت قيادة الشيخ إبراهيم يريد بها فتح قمار وإخضاع أهلها. فترلزوا بقرب طريق المعيز في الناحية الشمالية الشرقية من قمار. وحاصروها شهرين وثلاثة أيام ولم يفتحوها. وكانت أيدي الواديين تساعد أهل قمار جهارا بالمؤونة والمقاتلين والأسلحة وغير ذلك.

فلما تيقن الشيخ إبراهيم العجز عن الفتح أمر قومه بحفر نقب كالدهليز (الداموس) شرقي أرض سيدي حمودة ليصل إلأى الصومعة التي بجامع سيدي ابراهيم من الجهة الشرقية، فشرعوا فيه. فلما قاربوا الصومعة أحس أهل قمار بالحفر تحت أرجلهم فتنبهوا وعلموا بالحيلة.

فحفروا قرب ذلك الموضع على سمته وجعلوا أناسا شجعانا بأسلحتهم هناك كي يقتلوا الحافرين عند وصولهم إليهم فكان الأمر كما ذكر. فقتلوا كثيرا من المحلة ثم دفنوا ذلك الدهليز وبنوا في مكانه.

وكان ذلك في أوائل عام 1215 هـ-سنة 1801 م. والله أعلم.

بنـــاء الدبدابـــة

حين عجزت المحلة عن فتح قمار أمر الشيخ إبراهيم قومه بقطع الحجر وحرق الجبس لبناء قرية قربها يضيقون بها عليها واختطها لهم.

فشرعوا في بنائها في شهر جمادى الأولى من السنة الماضية. فبنوا أولا سورا محيطا بأرض بيضاء ثم بنوا داخله ثمانية وعشرين برجا. وكان لذلك السور أربعة أبواب في كل جهة باب. وبعد ذلك شرعوا في بناء سور آخر داخل السور الكبير. ولما انتهوا من جهاته الثلاث وقبل تمام الجهة الرابعة وهي الشمالية بعث الشيخ إبراهيم خفية بعض الجند إلى ابني الشيخ أحمد حين بلغه خروجهما من الخنقة ليأتوا بها فلما قدما عليه سجنهما مع الشيخ المكي بن اسماعيل بن جرير. وأخبر بذلك حسن باشا فأمره بعزلهم وأخذ مالهم فاستصفى ما لديهم وأخبرهم بما ورد في حقهم.

وأراد أن يحيط بمال الشيخ أحمد فأخبر قبل ورود الطوارق. فأرسل عشرة من الترك وقام معهم بعض أولاد سعود ونقلوا جميع ما على ملكه ومنه خمسة وعشرون ألف محبوب ذهبا وحمولة جملين حريرا وكثير من القماش المختلف وغيره، وذهبوا به إلى نفطة. وحينئذ أتى بجموع عظيمة ونزل بنواحي بئر العرب الآن بينه وبين قمار مسافة نصف يوم أو أكثر في الناحية الشرقية الشمالية.

وبعث لأهل الوادي فأتاه وفد منهم وتعصبوا جميعا على المحلة. فخرج الشيخ إبراهيم في قطع من الليل سائرا بمن معه نحو تقرت تاركا ما بناه خلفه. وكان ذلك في آخر السنة المذكورة.

وفيها وقعت المجاعة الكبرى التي عمت سائر إفريقية وأضرت بسوف خاصة.

ثم ركدت الزوابع في سوف بعد ذلك برهة حتى أفضت ولاية تقرت إلى الشيخ عبد القادر وآخر ذلك عام 1228 هـ-سنة 1813 م. والله أعلم.

تمام عمران كوينين

بعد أن صفا الجو بتقرت للشيخ عبد القادر استهان أبناؤه بعمهم الشيخ أحمد[1] وأنزلوه غير منزلته فأنف من ذلك. فبعث يستجيش بعض قرى سوف كي ينصروه على أخيه عبد القادر. وخرج من البلاد وسكن الصحراء إلى أن قدم إليه ناصروه. وبلغ خبره إلى أخيه فجمع من تحته وأرسل إلى أهل الوادي فأتاه أكثرهم.

وتخلف أهالي الهنشير الشرقي والساكنون بموضع الهنشير الغربي.

ووقعت مشادات بين الفريقين مات فيها البعض وجرح البعض. وفي آخر الأمر انهزم الشيخ أحمد وتفرق قومه وفر إلى تاغزوت ثم توجه إلى الهنشيرين الذين تخلف أهلهما فهدم مساكنهما وفر أصحابهما إلى كوينين ولم يبق بالموضعين أحد. وبسبب ذلك قوى عمران كوينين في ذلك الحين وكثر ساكنوها واشتدت وطأتهم وقويت شوكتهم.

ثم انتقل الشيخ أحمد إلى الزاب الغربي وبقي يجلب على مداشر تقرت الشمالية. وكانت العرب تميل له بسبب لين عريكته وسماحة خلقه وحسن طبعه فلا يغضب أحدا ولا يعامل أحدا بمكروه ولا يخلف وعدا وعد به. وإلى وقتنا هذا يثني عليه العام والخاص عدوه وصديقه. ودام حاله كما ذكر إلى أن مات الشيخ عبد القادر السابق ذكره وولي

1. الشيخ أحمد هنا غير مذكور سابقا في موضوع واقعة الشيخ أحمد بقمار.

الشيخ أحمد مكانه فقام له الناس أحسن قيام ودخل تقرت عام 1240 هـ- سنة 1825 م وساس الرعية وضبط أمورها مع لين الجانب والبشاشة في الأحلاء والأقلاء. واستقامت له أيام كما رام وكأنه اختارها بنفسه لنفسه. والله أعلم.

دخول الدولة الفرنسية إلى الجزائر

قال الشيخ نصر: كانت أحوال سوف أيام الشيخ أحمد إلى وقت دخول الجولة الفرنساوية إلى الجزائر، فإن العمالة اضطربت وشرد كثير الناس إلى تونس ونواحيها فحظوا بالقبول. وماجت الناس في عاقبة الأمر وتعاكست رؤساء القبائل ووصل شيء من أخبار ذلك إلى سوف فوقع بهم ما وقع بغيرهم وكثر القيل والقال ووقعت مشاحنات من أجل ذلك بين أبناء الشيخ عبد القادر ومن تعصب معهم، والشيخ أحمد وأقوامه ومن تعصب معهم ووقعت أيام بوادي ريغ وسوف، وأطراف الزاب واستمرت تلك المحاربات ثلاث سنين وفي آخرها اضطر الشيخ أحمد للخروج من تقرت.

أقول : كان دخول الدولة المذكورة إلى الجزائر في أوائل محرم عام 1246 هـ-سنة 1830 م.

وفي أثناء تلك الوقائع كان أحد الفرنساويين يقال له ليون روش Léon Roche أصله من مدينة جرينوبل Grenoble من أرض فرنسا، ولد عام 1224 هـ-سنة 1809 م. كما ذكر ذلك عن نفسه في كتابه الذي وضعه بالفرنساوية بعنوان : "عشر سنوات في الإسلام" Dix ans à travers l'Islam ودرس الحقوق على غير ميل منه لها ثم سافر إلى الجزائر عام 1247 هـ-سنة 1832 م. واستعمر مع والده أرضا بتلك الجهات التي استولى عليها الفرنسيون في ذلك العهد.

وصادف أن لمح فتاة مغربية تسكن بجانبه فعشقها وعشقته على ما يقول، وولع بها ولعا شديدا دعاه ذلك إلى تعلم اللغة العربية ليقدر على خطابها وفهم جوابها. وكان الفرنساويون في ذلك الحين في هدنة مع الأمير عبد القادر الجزائري فاحتال روش على الأمير ودخل في خدمته وادعى الإسلام وحاز ثقة الأمير حتى أهله بمسلمة وأطلعه على سرائره ودخائله واتخذه كاتب سره وصار من أقرب الناس إليه.

وفي عام 1248 هـ-سنة 1833 م، تعصب الجزائريون على الفرنساويين وبايعوا الشيخ عبد القادر بن محي الدين على القتال وولوه أمر الجهاد وذلك بعد أن طلبوا مبايعة والده فاعتذر فأشار عليهم بمبايعة ابنه الشيخ عبد القادر لما رأى منه من الكفاءة بما يتعلق بهذا الأمر العظيم والدور الجسيم. وحين تمت له المبايعة جمع الناس من كل ناحية فأتاه من جملتهم في الحين جماعة من تقرت وسوف. واستمرت تلك الحروب نيفا وخمس عشرة سنة. وفي خلال ذلك ضرب الأمير السكة المحمدية التي يوجد بعضها الآن، وخدم الآلات الحربية على الطراز المتقن، ولما أظهر شجاعته وكان هو القائم بأمور قومه قال متحدثا بذلك :

ومن عادة السادات بالجيش تحتمي — وبي يحتمي جيشي وتنصر أبطالي

وفي آخر الأمر أتاه جيش من مراكش من خلفه. ففاوض أعيان من كانوا معه في أن يستأمن دولة فرانسا فوافقوه على ذلك فخابر قائد الجيش الفرنساوي فأجابه على شروط بينهم ثم خصصوا له مركبا وحملوه ومن معه وكانوا ينيفون على الثمانين نفسا إلى بلدة طولون وبعد ستة أشهر نقلوه إلى أنبواز فأقام فيها أربع سنين وستة أشهر فنقله

نابليون الثالث بعد أن أكرمه ورتب له في كل سنة خمسة آلاف ليرة وأخذ عنه العهد أن لا يعود إلى الجزائر فسافر إلى الأستانة.

أما ليون روش فإنه حين نشبت الحرب بين الجانبين فر هاربا وخان الأمير وكان عينا عليه لجيش الفرنساويين. ثم عارض أهل الجزائر الدولة الفرنساوية في أن يسوغ لهم الخضوع لها لأن الدين يمنعهم من ذلك فكان جواب الدولة المذكورة أن الدين لا يمنع ذلك حيث كانت صاحبة قوة. فاستقر الأمر على الإتيان بفتوى[1] من علماء المسلمين في ذلك. وتوجه روش المزبور إلى القيروان ومصر وحصل من علمائها على الفتوى المقصودة والضالة المنشودة. وسافر إلى الحجاز ليقوي تلك الفتوى من علماء مكة والمدينة. فدخل الحجاز وزار الحرمين ونزل على شريف مكة محمد بن عون بتوصية من المسمى فريسنل Fresnel الذي كان قنصلا بالمركز الفرنساوي بجدة وكانت له صحبة مع الشريف المذكور ولكن فضحه بعض الحجاج المغاربة فكاد يموت فخلصه الشريف منهم وأكرمه وأرسله إلى فرسنل ورجع بمقصوده إلى الجزائر.

وفي عام 1249 هـ-سنة 1834 م، خرج الشيخ أحمد من تقرت وتولى أمرها بعده الشيخ عبد القادر، والله أعلم.

1. عندما واجهت سلطات الاحتلال الفرنسي للجزائر مقاومات عنيفة متتالية وثورات عديدة قام بها الجزائريون هنا وهناك بالتراب الجزائري لجأت إلى إقناعهم بالإستسلام اعتمادا على فتوى دينية. وللحصول على الفتوى المذكورة أوفدت المسمى ليون روش الذي تظاهر بالإسلام وأعطى لنفسه اسم الحاج عمر، أوفدته إلى القيروان حوالي سنة 1841 م، وطلب من علمائها فتوى تتضمن عدم جدوى مواصلة الجزائريين في حربهم ضد فرنسا. ومن القيروان انتقل لنفس الغرض إلى الحجاز ثم عاد إلى الجزائر وقد نال غرضه. لكن ذلك لم يثن الجزائريين عن مواصلة كفاحهم التحريري، كما سيأتي ذكر ذلك.

فتوى سيدي ابراهيم الرياحي[1]

كان أحد القماريين اشترى نخيلا منذ أمد من أحد التاغزوتيين وكان محبسا عليه فخدمه المشتري وغرس في أرضه كثيرا من الأشجار. وكان أهل قمار وأهل تاغزوت جعلوا بينهم شروطا من جملتها أن الأرض التي يشتريها أهل قبيلة من الأخرى لا ترد ولو كانت محبسة قطعا للفتن بينهم. فنبذ ابن ابن البائع (حفيد البائع) ذلك الشرط وطالب القماري برد الأرض له وإبطال البيع فامتنع المشتري أو ورثته. فأفضى الأمر إلى استفتاء من له النظر فاتفقوا على رجلين أحدهما من قمار والآخر من تاغزوت فأفتيا بإمضاء البيع فلم يقتنع قوم القائم بذلك وطلبوا توجيه الاستفتاء إلى تونس.

وكان للتاغزوتي معرفة بالشيخ سيدي إبراهيم الرياحسي من وقت زيارته لسيدي الحاج علي التماسيني رضي الله عنه والقماري هو الذي كتب المسألة وجوابها. فوجه تلك الفتوى له في ذي الحجة من عام 1255 هـ-سنة 1839 م. وبقوا ينتظرون الجواب عنها زمنا طويلا. ثم أتاهم ما يترقبونه في أواخر عام 1256 هـ-سنة 1840 م)، بإبطال المفتيين المذكورين وإرجاع الملك إلى صاحبه الأول فاتخذها التاغزوتي حجة،

1. الشيخ سيدي ابراهيم الرياحي من العلماء الأجلاء التونسيين، عرف بصلاحه وغزارة علمه لا سيما في الفقه والشريعة الإسلامية. وضريحه الآن بتونس العاصمة. وسميت الطريق التي بها ضريحه باسمه.

وعزم على إحراج القماري منه ولو قهرا. لكن قبل ذلك دخل بينهما ذوو الخير والصلاح فاصطلحا علي إعطاء القائم شيئا من المال وترك النخيل لمشتريه. وقبل كل منهما رأس صاحبه وما افترقا إلا عن تراض. وسأذكر هنا تلك الفتوى وإن بها طول قصد أفاده المطلعين إذ كثير من الناس في أرضنا يقع لهم مثل ما في الفتوى المذكورة ولا يهتدون لسبيلها والله الموفق.

وصورة ذلك :

سئلت عن مسألة هي أن رجلا اشترى من رجل أرضا مشجرة نخيلا ببلد قمار إحدى قرى سوف والبائع له من بلد تاغزوت إحدى قرى سوف أيضا. والحال أن الأرض المذكورة محبسة على البنين دون البنات. والمحبس عليه هو الذي باعها أي التاغزوتي فابتاعها (اشتراها) منه القماري. وذلك أن القبيلتين المذكورتين بنوا بينهم عرفا إذا ابتاع منهم أحد أرضا من أهل تاغزوت والأرض محبسة فلا يفسخ البيع فيها بل يمضي بيعها دفعا للفتن وقطعا للخصومات بينهما. فاشترى الأرض المذكورة السائل المذكور من التاغزوتي منذ سنين عديدة فقام الآن ابن المحبس عليه يريد فسخ البيع الواقع في الأرض المذكورة هل له ذلك أم لا؟

فأجبت (أسند الإجابة لنفسه خاصة لأنه المباشر لذلك) إن هذا البيع صحيح معمول به شرعا من وجهين الأول لما جعله أهل قمار وأهل تاغزوت من تحليل بيعهم الحبس لبعضهم بعضا وبنوا عرفهم على ذلك خشية الفتن. ولا شك أن الضرورة تبيح المحظور ولا ضرر أعظم من الفتن فبنوا ذلك ارتكابا لأخف الضررين عند التقابل. ألا ترى أنه لا

يجوز للقاضي أن يدعو للصلح إن ظهر وجه الحق لقول أبي الضياء خليل بن إسحاق في باب القضاء ولا يدعو للصلح إن ظهر وجهه. واستثنى منها مسائل حيث قال وأمر بالصلح ذوي الفضل والرحم كان خشي تفاقم الأمر. قال الشيخ عبد الباقي في حله عنه هنا أي الفتنة بين المحكوم عليه وله فيأمن بالصلح لكن فيها وجوبا دفعا للمفسدة. وشراح خليل الذين بين أيدينا كالشيخ عبد الباقي، والشيخ بركات بن عبد الرحمان بن باديس، وبهرام، والخرشي، والمواق والشيخ داود الأنطاكي كلهم مطبقون على ذلك فانظر رحمك الله كيف تعين الصلح مع ظهور الحق وما ذلك إلا خشية تفاقم الأمر ليس إلا. فما بالك بالخصام بين القبيلتين المذكورتين. فلذلك كان من المعلوم عندهم أن الرجل منهم إذا احتاج وأراد بيع نخيله المحبس عليه وعلى آبائه فيبيعه لرجل من أهل تاغزوت فينحل الحبس به ولا تقع فيه خصومة أصلا ويصير كلا حبس فهذه طريقة أحباسهم يشهد بها العيان. فهذا أصول الشريعة يرجع له عند التعذر. تأمل قول الشيخ عبد الباقي أيضا في باب الوقف (الحبس) حيث قال : ثم أولاد أولادي وهذا ما لم يجر العرف بخلاف ذلك فيعمل به لأن ألفاظ الواقفين مبناها على العرف. تأمله بإنصاف. فإن قلت إذا كان العرف جاريا كما قلتم هكذا فلم تكلم هذا القائم لأن وهو من أهل تلك البلدة وهلا عمه ما عمهم؟

قلت: هذا القائم رجل انتقل من بلده وتعصب بالغير فخشينا من أن لا يراقب عرفنا وإن كان يجب عليه قول التتائي والقرافي في قواعده أي فروقه فلا يحل للمفتي أن يفتي بالطلاق حتى يعلم العرف في ذلك البلاد

وجميع الأحكام مبينة على العوائد أي العرف فانظره إن شئت عند قول الشيخ خليل في باب الطلاق "أو برية او خلية أو بائنة" وهذا ظاهر جدا في غاية الظهور فلا نطيل بنظائره.

الوجه الثاني : مقصد المحبس أيضا فهو مفسد للحبيسة حيث خص بها الذكور دون الإناث حسبما نص عليه الشيخ خليل عاطفا على مبطلات الحبس بقوله : "على بنيه دون بناته" والشيخ عبد الباقي في حله هنا عنه فإن وقف على بنيه وبناته جميعا وشرط من تزوج من بناته لا حق لها في الوقف وتخرج منه فإنه باطل لأنه أخرجهن ابتداء كما في التتائي. زاد في الغتبية أنه يبطل إذ شرط أن من تزوجت من بناته بطل حقها وقال : ويدل عليه رواية ابن القاسم أنه من عمل الجاهلية.

الحاصل أن جميع أحباس أهل بلدنا كلها المقصود بها إخراج البنات والإضرار بهن لأنه لما حبس على الذكور خاصة دل على قصد الضرر وهو باطل أيضا لقول الشيخ عبد الباقي عند قول خليل في باب الوصية ما نصه : "إن لم يجز فللمساكين أو المجاهدين ونحوهم بطلت لأنه لما بت بذكر الوارث دل على قصد الضرر وما قصد به الإضرار لا يمضي لقوله تعالى في حق الموصي "غير مضار" والخبر "لا ضرر ولا ضرار".

تأمل صحة البيع المذكور غير معمول به شرعا صار البيع فيه صحيحا لما علمتم من أن المعدوم شرعا كالمعدوم حسا.

حرره الأخضر بن أحمد بن حمود السوفي القمارى عام 1255 وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله.

وبعد ذلك الحق الأخضر المذكور برسالته ما نصه :

"وقولي: وبطل على بنيه دون بناته على ما درج عليه الشيخ خليل لأنه المبين لما به الفتوى وهذا مما لا خفاء فيه كما قال زروق على الوغليسية وإنما ذكرنا كلام الشيخ خليل لأن ما فيه هو المعمول به في الفتيا".

ثم زاد قوله :

"إلى الشيخ العلامة النقاد والكوكب الوقاد سيدنا ابراهيم الرياحي من كاتبها محبك الأخضر بن أحمد، السلام عليكم ورحمة الله، وبركاته وبعد ما قولكم فيما أجبت به السائل فإن كان صوابا فهو من فضل الله وإن كان غير ذلك فارشدني لله والسلام عليكم من كافة الأحباب".

فأجابه الشيخ ابراهيم الرياحي بعد الحمدلة والتصلية بما نصه :

"فقد أطلعت عل ما كتبت فظهر لي أنه لا يجوز فتح هذا الباب فإنه يلزم فصم الشريعة عروة عروة فإن لم تمتك صلحا هتكت عنوة إذ يمكن أن تتفق جماعة على ترك الصلاة المفروضة وإن من صلى تقوم بسبب صلاته فتنة. وهكذا سائر الواجبات فعلا وتركا. ومعلوم أن المحافظة على الدين مقدمة على المحافظة على الدماء، وهذه الفتوى التي ارتكبتها بالنظر إلى الوجه الأول من قبيل الاستصلاح أي مراعاة المصلحة وهي من شأن المجتهدين المطلعين على مقاصد الشارع لا من شأن أضعف المقلدين أمثالنا.

قال القرافي في الفرق بين قاعدة من يجوز له أن يفتي ومن لا يجوز له ذلك : اعلم أن طالب العلم له ثلاثة أحوال :

الأول : أن يشتمل بمختصر من مختصرات مذهبه فيه مطلقات مقيدة في غيره وعمومات مخصصات في غيره فيحرم عليه الإفتاء به وإن أجاده حفظا وفهما إلا في مسألة يقطع فيها أنها مستوعبة التقيد لا تحتاج إلى كتاب آخر فينقلها لمن يحتاجها على وجهها وتكون هي المسألة المسؤول عنها لا مشبهة ولا مخرجة.

الثانية : أن يتسع تحصيله في المذهب بحيث يطلع على تقييد المطلقات وتخصيص العمومات لكنه مع ذلك لم يضبط مدارك إمامه ولا مستنداته في فروعه متقنا بل سمعا من حيث الجملة من أفواه الطلبة والمشائخ فهذا يجوز له الإفتاء بما يحفظ من مذهبه اتباعا لمشهوره ولا يشبه ما لم يحفظه بما حفظه لأن ذلك إنما يصح بمعرفة مدرك إمامه وأدلته واقيسته ومعرفة رتب العلل ونسبتها إلى المصالح الشرعية، وهل هي من باب الضروريات أو الحاجيات أو التحسينات ... الخ. ما قصد منه فانظر رحمك الله من أي حالة من تلك الحالتين أنت ولعلنا جميعا لم نصل إلى الحالة الأولى فضلا عن الثانية فينطبق علينا قول القائل :

عليك بطورك لا تعده ودع من سواك لأطواره
فمن شذ عن طوره يفتضح وتبدو حقائق أسراره
ويأتيه غير جهول به يبين له كنه مقداره

وأما استنادك إلى العرف واستدلالك بكلام القرافي فغير صحيح لأن كلام القرافي وغيره في عرف يخصص العام ويقيد المطلق كما في باب اليمين وفي عرف لأحد المتداعيين ونحو ذلك مما لا يمكن حصره. وأما عرف ببطل الواجب ويبيح الحرام فلا يقول به أحد من أهل الإسلام.

وأما استنادك إلى المحبس قصد إخراج البنات ... الخ فلا يجدي نفعا لأن العمل جرى بمضيه خلاف ما في المختصر وما جرى به العمل من الخلاف مقدم على غيره ولو كان الغير مشهورا ولهذا اعتنى العلماء بالتصنيف فيما جرى به العمل فقط. على أننا إذا قطعنا النظر عن تقديم المعمول به على غيره ودرجنا على قول خليل بالبطلان فإنه لا يصح بيعه قبل حكم حاكم بفسخ الحبس لأن المسائل الخلافية لا تجعل كالمعدوم حسيا، وحينئذ يجوز بيعه. والحاصل أن بيع الحبس المذكور لا يجوز. والمصلحة على مدرك الإمام والتيقن بانه لا معارض لتلك المصلحة ولا شبهة تمنع من مراعاتها.

هذا ما ظهر لمزجي البضاعة ابراهيم بن عبد القادر الرياحي مسلما عليك وعى سائر الأحباب.

وبعد كتبي ما سطر تذكرت فتوى مسألة الشيخ ابن محسودوهي قريبة من فتواك ولنذكرها ثم نذكر ما ورد عليه. قال في المعيار : وسئل سيدي علي بن محسود رحمه الله عن أرض المساكين المحبسة عليهم هل يجوز بيعها في مثل هذه السنة بما نزل بهم من الخصاصة فأجاب بقوله : بيعها في مثل هذه السنة لعيشهم وحياة أنفسهم أفضل عند الله من بقائها على هلاكهم. وقد أمرت بيع كثير من هذه السنة. وقال الإمام الوزير عبد الرحمان الفاسي: لا أعرف مستندا لهذه الفتوى ولعلها اجتهاد في هذه النازلة. نعم مستندها في الجملة اعتبار المصالح المرسلة وهي أصل في مذهب مالك بل المصلحة في ذلك ضرورية، فهي أولى

بالاعتبار من المرسلة كما تقرر في فن الأصول وهي جارية على ارتكاب أخف الضررين. هذا باختصار.

وكتب عليه سيدي عمر الفاسي رحمه الله ما وجه به هذه الفتيا من الاستصلاح إنما يتم لو سلم ابن محسود من أهل الاجتهاد المطلعين على موارد الأدلة العارفين بمقاصد الشريعة وإلا فمن أين للمقلد أن يخرج أو يدعي غلبة الظن. إن هذه المسالة أي المصلحة فيها تحصيل مقصود الشارع وإنها لم يرد في الشرع ما يعارضها ولا ما يشهد لإلغائها مع أنه لا بحث له في الأدلة ولا نظر له فيها. وهل هذا إلا تجري على الدين وإقدام على حكم شرعي بغير يقين، إلى آخر ما نقله عن الغزالي، وأبي الحسن الأبياري وإمام الحرمين من النقول التي مرجعها إلى أن اعتبار المصالح إنما هو شأن المجتهدين المطلعين على مقاصد الشارع إذ ليس كل مصلحة يصح اعتبارها فتأمل ذلك حق التأمل فإنه يزيدك بصيرة فيما قررناه لك، والله أعلم.

واقعة أهل الوادي مع الشيخ علي

جاء في مخدرة الشيخ العروسي وكذا في كناشه بعد أن خرج الشيخ أحمد من تقرت، توجه إلى الناحية الشمالية وأوصى بعض أهل كوينين بنقل والدته إليهم وهي أم هاني بنت أبي الضياف مع زوجته عالية بنت الحاج السعيد، وأبنائه الشيخ علي والشيخ عبد الرحمن، والشيخ عومر، والشيخ محمد، فامتثلوا لوصيته وأقروهم في منزل يليق بهم وأكرموهم إكراما وافرا.

وحين استقر قرارهم أرسلت والدته خفية من يأتي لها بمالها المخبوء بمنزلها الذي كانت فيه بتقرت. فوصل الرسول وحفر على الأشياء وأخرجها من الأرض وخرج بها من تقرت ليلا. فعلم به إبراهيم بن الحاج فأرسل في أثره إنسانا يشبه سليك بن السالكة[1] يسبق الخيل يسمى عبد الجواد بن محمد بن عبد الجواد فأدركه في آخر النخيل فأخذ ما عنده وأطلقه.

وكان الرسول حين أحس بالجري وراءه أسقط بعض الأشياء في حافة الطريق بانجراف رجع إليها بعد ساعة وأخذها وأتى بها إلى صاحبتها بكوينين.

١. سليك بن السالكة أو السلكة كان في عصر الجاهلية معروفا بتفوقه في العدو أي أسرع الناس جريا على الأقدام وكان إلى جانب ذلك أكثرهم خبرة بالطرق ومسالك الأرض.

ومن جملة الأشياء التي أخذها عبد الجواد صندوق صغير (ربعة) به ستة عشر ألف محبوب وخمسمائة ليرة وستون بندقية تساوي كل واحدة الآن خمسة فرنكات، وزوجان من أخراص الذهب الكبار وخمسة عشر عقدا من الجوهر، وستة عشر قرطا متوسطا وخلخالان إثنان وثلاثة معاضيد فضة وغير ذلك.

ولما أفضت ولاية تقرت إلى الشيخ علي أراد الثأر ومتابعة محي خصمه فجمع جندا عظيما وأتى به إلى الوادي على حين غفلة وأهله متفرقون بالصحراء والأسفار. فقتل من وجده من أصدقاء خصمه. ووقعت أيام متوالية بين الجانبين ينخذل فيها كل مرة جماعة الوادي. وفي آخر الحال انعكست القضية ودارت الدائرة على قوم الشيخ علي. وحين تيقن الشيخ علي بعدم النيل، ووجود الميل فر بقومه ليلا إلى تقرت. وكان ذلك في عام 1256 هـ-سنة 1840 م، والله أعلم.

اضطراب أهل ســـوف

في زمن ولاية نجيب باشا على طرابلس بلغه أن الشيخ غومة المحمودي يجمع جموعا يريد الإجلاب بها على الحكومة، فأسرها في نفسه يترقب الفرصة للقبض عليه.

وفي شهر صفر من عام 1251 هـ-سنة 1835 م، أتى الشيخ غومة ورؤساء قومه إلى الوالي وأعطوه الطاعة والانقياد فكساهم وأهدى لهم البرانيص، ثم سجن الشيخ غومة أياما حتى أخذ عنه العهد بعدم الثورة بشرط إعطاء الآخر ما كان يعطيهم من كان قبله.

وفي عام 1252 هـ-سنة 1836 م[1]، رجع الشيخ غومة إلى مكان عليه فوقعت بين قومه وقوم طاهر باشا حروب. كان الظفر في آخرها للشيخ غومة فغنم مهمات حربية كثيرة ومؤنا ومدفعا.

---

1. في هذا الظرف بلغ جيش الاحتلال الفرنسي للجزائر أبواب قسنطينة التي حاصرها مرتين الأولى سنة 1836 م والثانية سنة 1837 م. وقد قاوم صاحب قسنطينة أحمد باي القوات الفرنسية بكل ضراوة وصمد في وجهها صمود الأبطال بفضل مشاركة أهالي قسنطينة الذين استبسلوا في المعركة. ولم يتمكن الفرنسيون من الاستلاء على المدينة إلا بمشقة وبعد القتال من حي إلى آخر.

وفي هذا العهد كان الفرنسيون قد اعترفوا بالأمير عبد القادر رئيسا وأميرا على دولة حاكمة بالتراب ذات حدود معينة لكن هذا الاعتراف قد نقض بعد ثلاثة أشهر من طرف المحتلين قصد مواصلة أهدافهم التوسعية. وكانت منطقة تقرت وسوف وما والاهما حينئذ -وبعد ذهاب الأتراك- تحت نفوذ أحمد بلحاج خليفة الأمير عبد القادر، وكان ...

ثم في عام 1255 هـ-سنة 1839 م، قدم المذكور في جموع عظيمة يريد بها طرابلس فوصل إلى وادي الهيرة، فخرج له القائم مقام بكربك في عساكر كثيرة، والتقى الفريقان نحو خمس ساعات وفي الختام انهزم بكر بك وجنوده. وضبط الشيخ غومة الزاوية والعجيلات وزوارة. وعندئذ بعث بعض الولاة من يسعى بين قومه في الاستمالة فتم له ما أراد واختلفت كلمة القوم واقتتلوا أياما ثم تفرقوا وجنح بعضهم للطاعة والخضوع. وبلغ خبرهم إلى من دبر ذلك فأرسل أحد عماله لقتال المارقين ففتح ما حجز أولا وفر الشيخ غومة إلى الجبل مكسور البال.

ثم في عام 1257 هـ-سنة 1841 م، خرج أحد العمال لفتح الجبل فلقيه غومة في جموعه وتواقعوا ودارت بينهم حروب شديدة انهزم فيها غومة ومن معه بعد أن مات كثير من أصحابه وأسر منهم السبعين نفرا قتلوا أيضا بطرابلس.

وفي ذلك الحين التقى الشيخ غومة ومن معه بجماعة من طرود في الصحراء القبلية وطلب منهم التعصب معه على ما يريد فطلبوا منه التوجه معهم

...مركز خلافته منطقة الأوراس. وعندما بلغت قوات الاحتلال منطقة الأوراس قاومها أهالي المنطقة مقاومة نادرة المثال وجرت بين الجانبين معارك طاحنة زمنا طويلا كان أثناءه أهل سوف يمدون إخوانهم في الأوراس بالأسلحة التي كانوا يجلبونها من الجريد. ودام ذلك إلى أن اكتشف الفرنسيون أمرهم فنصبوا لهم المكامن وشددوا الحراسة في جميع الطرق الآتية من سوف فاستولوا على كثير من القوافل الحاملة للأسلحة والذخائر وأسروا أصحابها. وفي النهاية استولى الجيش الفرنسي على منطقة الأوراس ولجأ خليفة الأمير إلى سوف. وبعد الأوراس قصد الجيش الفرنسي منطقة بسكرة فدخلها سنة 1844 م.

إلى وادي سوف فأجابهم إلى ذلك وطار خبره إلى سوف فاحتار أهلها حيرة كبيرة وبعث بعضهم إلى ولاة تقرت يستجيرون بهم إذا جاء هذا الرجل فحصلوا على الكفالة منهم، ووعدوهم بالإتيان إذا وقع حادث.

وفي أثناء إقامة غومة بأرض سوف ولد له طفل سماه السوفي يوجد إلى الآن بنواحي طرابلس. ثم وقع وباء الجذري في سوف أهلك كثيرا من الصغار ولحق بعض الكبار وإلى الآن يعرف ذلك بعام الجذري، فانتقل الشيخ غومة من أجله وقارب الوصول إلى أطراف طرابلس كالعادة فاستقدمه إلى العاصمة أحد العمال بأمان وذلك بواسطة مصطفى بك قورجي فقدم وعظم منزلته وسماه قبوجي باشي وولاه عضوا بمجلس الإدارة وذلك في حدود عام 1258 هـ-سنة 1842 م، وفيها حصل خلاف وعدم وفاق بين غومة واللواء أحمد باشا فألقى القبض عليه ثم نفاه ونافقت لذلك المحاميد وأهالي الجبل.

وفي أوائل عام 1259 هـ-سنة 1843 م، خرج لمحاربتهم نائب العامل بجموع عظيمة والتحمت الحروب بينهم ومات الكثير من الفريقين وفي النهاية جنحوا للسلم وطلبوا الأمان فأمنهم ولم يسكن خوف بعض أهل سوف إلا بعد أن سمعوا بنفي الشيخ غومة وحصلت الراحة زمنا يسيرا، وربك الفعال لما يريد لا يسأل عما يفعل. والله أعلم.

الزوابع في ســوف

قال في كتاب "المنهل العذب" : "بعد أن حصل اليقين بنفي الشيخ غومة وأنه لا يرجع إلى سوف أرسل من مكان احتمى أولا ببعض التقرتيين إليهم ليتمكنوا من غيرهم".

وحينئذ وقعت نفرة كبيرة بين أهل الوادي وغيرهم من قرى سوف فسعى أهل الخير في إزالتها وإطفاء شرارها.

وفي حدود عام 1266 هـ-سنة 1850 م[1]، وقع وباء الكوليرة بإفريقية فأتى رجل من المرازيق مريضا بها ونزل بغوط أولاد شبل الآن الذي برقيقات فأتاه أناس يعودنه فمرضوا أيضا بالكوليرة حتى فر الناس من الغوط المذكور. ومات الرجل وحده هناك ولم يطلعوا عليه إلا بعد ثلاثة أو أربعة أيام وقد تغيرت رائحته فألقى عليه التراب بمحله وإلى الآن توجد بعض عظامه. انتشر ذلك الوباء في الوادي ثم عم سائر أرض سوف ومات منه خلق لا يحصى عددهم إلا خالقهم. حكي أن الذين يذهبون لحفر القبور لا يعودون إلى منازلهم من طلوع الشمس

1. في هذه الفترة الزمنية كانت الثورات المسلحة ضد الاحتلال الفرنسي في أغلب المناطق الجنوبية. ففي سنة 1849 م كانت ثورة الزعاطشة إحدى واحات بسكرة يقودها بوزيان وقد اضطر القائد الفرنسي فيها إلى قلع النخيل وإحراق المباني. وفي آخر الأمر استشهد بوزيان. وفي سنة 1852 م، كانت ثورة أهل الأغواط فقاوموا المحتلين مقاومة بطولية الأمر الذي جعل الغزاة يلجؤون إلى الإبادة الجماعية.

إلى غروبها فكلما انتهوا من حفر قبر تأتيهم جنازة أخرى. واسترسل ذلك زمنا. والكوليرة المتقدم ذكرها هي الأولى وأما الأخيرة التي لم تصل إلى سوف فهي عام 1282 هـ-سنة 1866 م.

واستمرت الرائحة إلى عام 1271 هـ-سنة 1855 م[1]، ثم فر الشيخ غومة من منفاه وأتى أهل الوادي بالصحراء فأكرموا مثواه وعظموا مترلته وبقي مستترا عندهم زمنا. قال الشيخ نصر: وفي هذا الوقت ولد محمد السوفي لا في المرة السابقة والله أعلم.

ووقعت حينئذ بعض القلاقل بسوف تخوفا من الرجل وممن تعصب منه. لكنه حيث كان آسفا على وطنه لم يستقر له قرار طيب فرحل مع بعض الطرودين على ضواحي تونس ونزل بمطماطة وكتب إلى الوالي يلتمس منه العفو والاستخدام فلم يقع طلبه موقع القبول فقدم بمن معه الجبل والتفت حوله قبائل نالوت وقاباو ويفرن ومن كان بتلك الضواحي من العربان. ثم في رمضان من السنة المذكورة قدم في جموعه إلى مركز متصرفية الجبل وحاصر المتصرف فاستمد الوالي فبعث له الأمير الأي إسماعيل بك وقائم قام الطوبجية المسمى مصطفى بك وكومندان خيالة العرب محمد آغا أنديشة في العساكر فزحف إليهم غومة في جموعه

1. ثار الشيخ غومة المحمودي فيما بعد على كل من باي طرابلس وباي تونس، وميدان نشاطه طرابلس والجنوب التونسي ومنطقة سوف. وللشيخ غومة ابن اسمه محمد السوفي سمي بذلك لأنه ولد بتراب سوف. أما المسمى باي سوف فهو حفيده أي ابن ابنته، وهذا هو الذي كان حاضرا سنة 1920 م في معاهدة لوزان التي فرضت حماية إيطاليا على طرابلس، كما ذكر ذلك الدكتور أحمد ناجح.

بموضع يعرف بالرومية وتحاربوا محاربة شديدا هلك الكثير من العساكر وانهزم مصطفى بك وقدم غومة مركز متصرفية الجبل فاقتحم القصر وضبط ما كان فيه من المهمات والمدافع وغير ذلك.

ثم أرسل المهمات بتمامها إلى والي الولاية مع عريضة التمس فيها العفو والاستخدام فلم يقبل أيضا طلبه فاستمر غومة في سيرته واستفحل أمره وضبط كافة الجبل وأتاه أهالي غريان بطاعتهم وخضوعهم لهم فقبلهم وفي ذلك العهد رجع من كان حيا من الواديين إلى سوف بعد أن أعطاهم هدايا عظيمة وكلفهم بتبليغ سلامه إلى كافة أهل الوادي.

بلغني أن الرسالة التي وجهها لهم توجد بطي بعض كتب السيد عطاء الله ابن الجديدي التي صارت الآن في حوز عمر بن مسعود.

ثم إن الشيخ غومة ذهب إلى الزاوية وانتهى إلى قريتي ورشفانة وجترور وانضمت إليه أهالي تلك النواحي. فزحف إليه عبد الله باشا وأحمد باشا بالعساكر فلقيهم بجموعه في قرقارش والتحم القتال بينهم فانهزم غومة وهلك الكثير من قومه وفر إلى الجبل.

وفي عام 1272 هـ-سنة 1856 م، خرج قاسم باشا فالتقى بأقوام الشيخ غومة بالرومية أيضا فتواقعوا الحرب نحو تسع ساعات هلك فيها الكثير من قوم غومة وانهزم إلى فساطو ثم أرسل له الوالي برنوصا محلى بالفضة وحصانا من جياد الخيل مع بعض الأعيان وأخذ عليه العهد بالخروج من الجبل وأن لا يعود إليه فيما بعد وأن لا يتعاطى ما يكدر صفو الأمن ويخل بالراحة فخرج من الجبل في سبعين نفر من أصحابه ونزل بأطراف القطر التونسي من جهة الأعراض وسارت السيارات

بينه وبين أهل الوادي. وذهب إليه الزائرون منهم بهدايا فخيمة. وكاتب الباي ليقبله أو يشفع فيه عند الباب العالي. وتوسل في مطلبه بقنصل فرنسا. فأتى الباي وحضه على قبوله فقبله. وكاتب الباب العالي شافعا فيه فأجيب بعدم القبول وإن من اللازم إعانة باشا طرابلس على القبض عليه. فأنف لذمته أن تخفر وبقي غومة في محله والتفت حوله جموع بسلاحهم. فأحس منه الباي بمبادئ الشر فكاتبه ان يرحل إلى داخل العمالة قرب القيروان او الحاضرة. فتعلل غومة بكثرة مواشي من معه وإن الأرض هناك لا تسعهم.

ولم يزل يجمع حوله العربان ويستميلهم بالتنفير من أداء الغرامة حتى تفاقم الأمر وكاد أن يتسع الخرق على الراقع. فلزم الباي حينئذ تلافي الحال ودفع الضرر قبل استفحاله فجهز له محلة عظيمة. ولما وصلت إلى نواحي غومة كتب إليه أميرها مخيرا له بين الارتحال إلى داخل العمالة أو البعد عن أطرافها وإن خشي يبعث معه من يوصله لمنجاته. فتعلل غومة وأفضى الحال إلى القتال في مفاوز الصحراء زمنا طويلا. وفي آخر الأمر تشتت أقوام غومة بعد أن مات منهم جم غفير وفر هو ناجيا بنفسه حتى اتصل ببعض النوايل أبلغوه إلى صحراء سوف. فراسل جماعة من الوادي الذين يعرفهم فأتاه بعضهم وتوجه بهم إلى نواحي غدامس فغزا قائمقاميتها وضيق عليه وأخذ كثيرا من مهماته وذخائره وزبر بعض النخيل ونفر عاملها إلى العراء. فاتصل خبره إلى والى الأيالة فوجه إليه عثمان باشا الذي هو الوالي اللواء مصطفلى باشا في عساكر طميمة ومعه علي بك رئيس الأزبابودي، والحاج أحمد

الأذغم، فالتقوا في محل يقال له وادي وان، وحمى الوطيس بينهم ومات من كل طائفة أناس، وفي الختام قتل غومة هناك. فتفرقت جموعه ورجع كل فريق إلى مترله.

وتأسف بعض أهل الوادي لفقدان الشيخ غومة تأسفا عظيما حيث كان بعضهم من قبيلته كما سيأتي وبعضهم من جنده وعصبيته.

وكان ذلك في أواخر عام 1274 هـ، وقيل في شهر رجب من سنة 1858 م.

ومن شعره الملحون[1] حين أسر ونفي وكان مارا على سوق الثلاثاء بطرابلس :

جزناك سوق الثلاث اقباله　　غلب سلطنه ما هو غلب رجاله

وقال حين ضيقوا عليه المجال وأرادوا قتله وقد أشار عليه بعض أصحابه بالهروب لينجو من ذلك :

يا نفس رومي للرصاص الطايب　　وهروبـك قـدام لعـداء خايـب
الرب يقتل والرصاص أسبايب　　عمـر اللي قصر ما طولاته ذله

1. الشعر الملحون: سماعه أسهل للفهم من قراءته لأن كتابته لا ترضخ إلى قواعد عربية صحيحة، قيل إن الشيخ غومة عندما سجن مرة وضع في بئر السجن. ولتمكينه من الهروب عمد أنصاره إلى حفر دهليز (نفق) من خارج السجن يؤدي إلى البئر. ومنه خرج الشخ غومة فعلا. ولما تيقن بالنجاة قال أثناء امتطائه جواده الذي كان في انتظاره الأبيات الشعرية الملحونة التالية :

ساهل على ربي وقريب خيره　　يدور الفلك بين السدى والنيرة
مـا بـين الـسدى وخيوطـه　　وبين شبح العين الفوق واللوطة
ما بين الطيرة اتجبي محظوطة　　وبين المحظوطة أتـولي طيـره

ومن شعر السوفي[1] في الحرب الطرابلسية التي جرت يشجع القوم على صد العدوان وحماية الأوطان قوله :

يا ليت في غريـان سمح الطلـة　　دورات تـبري كامنـات العلـة
لحـزان تـذهب والـدرك يجلـه　　ونـصير في نزهـات كيـف العيـد
يـا ليـت في غريـان لـي رباعـه　　من الصغر ثاروا ملازمين الطاعـة
البـاجي العـايط يبـدروا فراعـه　　يقسوا العـدو عـن رفعـة التقعيـد
يـا ليـت في غريـان لـي رفاقـه　　مـن الـصغر ثـاروا للعـدو فلاقـه
لا يرفعـــوا لـــواي لا بنداقـــة　　كـان الثمانيـات صـنعة سـيدي
يا ليت في غريان يأتي صـغاري　　يصفوا كلامي يحـضروا في نهـارى
يصلوا العدو صمصام حرق النـار　　يحمـو رجـالي نوشـة التـصهيد
يـا لنـدرا غريـان بـاتش فـايز　　في المـال يحمـل و الغنـائم حـائز
بـابور دولـي بـالمراكز جـايز　　مـن غـير توقيـف ولا تحييـد

1. إن القصيدة الحمامية المذكورة لم تكن لمحمد السوفي المذكور بل هي للمؤلف نفسه قالها أثناء الحرب بين طرابلس وإيطاليا. وهي قصيدة طويلة لم يسجل المؤلف هنا إلا البعض منها. وإن نسبها لمحمد السوفي فذلك من قبيل التستر به نظرا لظروف المؤلف الحرجة إذ ذاك والمتمثلة في مؤامرات السلط الفرنسية المحلية ضده. وقد بعث المؤلف كامل القصيدة إلى طرابلس وأهل غريان منهم خاصة يحثهم على الصمود في القتال وصد الغزاة عن الوطن فانتشرت القصيدة هنا وهناك وكان لها صداها ووقعها لدى الأوساط الليبية. وقد عرف عن المؤلف الكثير من القصائد في الشعر الملحون سواء في الحماس او المدح أو الهجاء أو الرثاء أو الغناء. والكثير من قصائده في الغناء بعد أن لحنها بنفسه صارت تغنيها النسوة في الأفراح ولم تزل لحد الآن كما وجدت بمكتبة المؤلف مخطوطا ضمنه شعره الملحون يحتوي على إحدى وعشرين قطعة شعرية في مختلف الأغراض.

يل لندرا غريان باتش نايم وبات ضده في لهموم يلايم
يصبح بحرنا بالبرارط عايم فيه للبابر هاربة ابتبديد
يا لندرا غريان باتش هاني وبات ضده في لهموم يعاني
بالموت والتجريح والغرقان والمال يغدي وزايد التنكيد
يا لندرا غريان باتش عالي وبات ضده في لهموم يكالي
مخذول بين الناس كالزوالي ما ينصراش رفيق بالتوديد
يا لندرا غريان باتش رايض وبات ضده من الغلب يتفايض
منكوب من سلطان ليهم غايظ قومه ينادوا بكلمة التوحيد
يا لندرا غريان باتش هادي بعد الزعازع من طمع الأعادي
جاته جماعة أذلال من لوغاد من رعبهم يقسوا على التسنيد
يا لندرا غريان باتش زاهي با فخار جات الناس بيه اتباهي
وعدوه حازن في المصايب لاهي واملام من لجناس بالتنفيد
يا لندرا غريان باتش شاره وعدوه من لنكاد قلبه داره
من حرب زادت مكاره جاحيها مخلوع بالتهديد
يا لندرا غريان باتش طارب بهلاك طايش كان فيه يحارب
ضاقت عليه اليوم كل مسارب دفع الخطيا وقلة التقعيد
يا لندرا غريان فيكش ظني فيكش مزايا اللي عليها انغنى
تنصر علم الدين تقلب عني تسمى سعيدا وصاحب التشييد
يا لندرا غريان فيكش نعره فيكش جماعة حازمة بالنغره
شجعان ما يولوش وقت الدغرة يصلو العدو وشعله بلا تبريد
أنا ريت يا غريان تحمي ناسك شقت جموع اللي اترموا عن ساسك
تمسى اتناغي في السما ابقنطاسك تقطع طمع من قال هم جهد أيدي
أنا أنقول يا غريان ماكش واطي حتى التسمع بلعيار الخاطي

يبدأ ذيل الناس فيك بباطى ردف عليه الناس يا محميد
نوصيك يا غريان صد اشواره حصن عليه الباب عند ازواره
واسقيه من كأس العذاب امراره واصل عليه الحب بالتغريد
نوصيك يا غيان جيب امقابض واجمع القوم العاريا واللابس
واهجم على الحيطان هد طرابلس أتحوز الظفر من غير ما تكويد
ننبيك يا غريان هذي أوصايه راهي جميع الناس ليك امرايه
يحصوا الفعايل كاملة باشفايه هذاي نصحي ليك بالتوكيد

وغير هذا كثير من الأشعار الحماسية التي تؤثر في الحجر تركناها خوف الطول والسآمة. والله أعلم.

وصول القوات الفرنسية إلى تقرت وسوف[1]

قال الشيخ نصر : قبل فرار الشيخ غومة من منفاه بقليل وصلت مقدمات الدولة الفرنساوية إلى تقرت وكان صاحب أمرها في ذلك الوقت الشيخ سلمان آخر الجلابية. فحينئذ بعث الشيخ سلمان إلى أهل سوف يطلب منهم الإعانة إذا أتته محلة فرعدوه بذلك.

وفي عام 1270 هـ – 1854 م، أتت محلة عظيمة من الفرنساويين زاحفة نحو تقرت فنــــزلت بدبشة المقارين (من مداشر تقرت الشمالية). فجمع سلمان قومه وبعث إلى أهل سوف ففزع منهم جم غفير وصلوه في يوم وليلة، فألفوه على وشك التقدم. ففرح بمقدمهم وإكرامهم وفرق في رؤسائهم العطايا ووعدهم بأكثر من ذلك عند الظفر.

---

1. بعد احتلال منطقة الأوراس من طرف القوات الفرنسية وانتقال الأمير عبد القادر من الأوراس إلى سوف توجهت القوات الفرنسية حوالي سنة 1844 م. إلى منطقة بسكرة وكان بها ممثل لسلطة خليفة الأمير يدعي شيخ العرب. كما كان على تقرت وسوف الشيخ سلمان بن جلاب. وكلهم تابعون لسلطة خليفة الأمير.
وبعد ما استقر الفرنسيون ببسكرة توقفوا مدة عن مواصلة الزحف نحو الصحراء بعد تقديرهم لما سيواجهونه من صعوبات فاكتفوا بإرسال محلات إلى منطقة تقرت وسوف بقيادة الجنرال ديفو للتعرف على مسالكها وسبر أحوال أهلها فلم يكن احتلال مقارين سوى سنة 1854 م وبذلك تمكن الفرنسيون من الاستيلاء على أغلبية الجنوب. وبعد أخذ تقرت لجأ سلمان والشريف إلى الوادي.

حكي أن من جملة جماعة سوف رجلا يقال له كرباع صال في القوم وكانوا في وقت الاستراحة – قائلا لهم : كيف تصبرون على القتال إلى الآن، فقام الناس من غير استعداد ولا انتظام وهاجموا المحلة وكانوا ينتظرونهم واقفين على قدم وساق وتحاربوا زمنا طويلا. وفي آخره انهزم جند سلمان ولحق في أثرهم أقوام المحلة تقتل وتسلب. فتفرق الناس في الشطوط والشعاب والنخيل. وفر الشيخ سلمان إلى تماسين فاختفى بها أياما. ثم انتقل إلى سوف فنزل بالوادي ومكث فيه مدة ومنه ذهب على تونس ولم يعد بعد ذلك.

ثم بعد أن نزلت تلك المحلة بتقرت وأخضعت أهلها ارتحلت متوجهة إلى سوف لتخبر أحوالها. وبعد قتال بين الطرفين أياما عديدة في النخيل والسيوف تغلبت المحلة على سوف.

وولت الدولة بعد ذلك المسمى على باي بن فرحات قائدا عاما على تقرت ومداشرها وعلى ورقلة والوادي ومداشره.

ثم في زمن قريب انفصلت عنه ورقلة وبقي الآخر تحت يده يتصرف فيه كيف يشاء من غير معارض. وصار يقيم ستة أشهر بالوادي وستة أشهر بتقرت. والمحل الذي يخرج منه يترك فيه ابن عمه علي بن عمر خليفة عنه فيفعل كفعله أو أشد، وفي آخر الأمر ازداد ظلمه كما سيأتي، والله أعلم.

تحرج حالة ســـوف

بعد أن استقرت قدما علي باي في الوطن استفحل فيه وصار لا يرحم صغيرا ولا يوقر كبيرا فتضجرت الناس من فعاله وبحثوا على من يبلغ صوتهم إلى ابن قانة فلم يجدوا كاتما للسر مفصحا عن جميع عللهم ومضارهم. وكان أحد الرجال المشهورين بأولاد أحمد يقال له الشيخ عون بن الصناني من فريق أولاد جاء بالله ممن تأثر بذلك الخطب العظيم والهول الجسيم، فتوجه إلى السيد محمد الصغير بن قانة مستغيثا به في دفع ما حل به وبقومه وأبلغه جميع ما صدر عن علي باي من المظالم التي من جملتها أنه أرسل إلى عشرة من الأغنياء وقال لهم بلغني انكم تحدثتم بقتلي فإنني كأنني مت فادفعوا لي دينت أربعين ألف ريال رواج سوف على كل واحد منكم أربعة آلاف، فدفعوها. ومنها أنه جعل مائتي فرس على أهل الوادي تكون معدة لوقت الإغارة تعلف من عمد أربابها ولا يعطيها شيئا من العلوفة ولا المرتب. ويزعم أنه جاعل خمسمائة فرس وكان يأخذ مرتباتها كلها. فإذا حدث حادث وتخلف أحد أرباب الخيل ولو بعذر واضح تسلط عليه غرامة قدر ما يملك فيصبح من يومه فقيرا ومن فعل ذنبا ولو صغيرا جدا يفعل به مثل ذلك.

فبلغه خبر الشيخ عون فحنق عليه ولم يقدر على عقوبته حيث استند إلى ركن شديد ومازال يترصد له ويحرس ذهابه وإيابه وما يذهب به وما يأتي به وقد كثر ترداده حتى أوشى له الواشون أن

الشيخ عون يقول :سيعزل علي باي ونطلب ابن قانة خلفا له يأتي إلى سوف. فحينئذ آجر عليه رجلين من عرشه فقتلاه وذلك في حدود عام 1278 هـ - 1862 م. ثم سلط على عرش أولاد أحمد غرامة عظيمة، ثم ستة آلاف فرنك في كل سنة دية تدفع إلى محمد بن الشيخ عون (في زعمه أنهم هم الذين قتلوا الشيخ عون) حتى إلى سن البلوغ وكان ابن القتيل صبيا صغيرا. واستمر ذلك اثني عشرة سنة ودفعوا جميعها فأعطى ملزوم عام واحد إلى محمد المذكور والباقي أخذه هو.

ولم تحصل في أيامه راحة بسوف. كما ساد في أيامه النعيمي وابن الناصر الغربيان[1] ومحمد بوعلاق اليعقوبي. ومات في عهده من الوادي خلق كثير. وجمع منهم ومن وادي ريغ أموالا طائلة قيل بلغت اثنين وثلاثين مليونا من الفرنكات.

وكانت مدة ولايته نحو تسع عشر سنة، والله أعلم.

---

1. حوالي سنة 1860 م، قام المسمى ابن نصر على رأس مئات من الفرسان بهجومات عديدة على القوات الفرنسية بمنطقة سوف. وقد انضم إليه الكثير من أهل المنطقة. وبعد معارك جرت بين قومه وقوم القائد الفرنسي ديفوا التجأ ابن نصر إلى تونس. وفي ذلك العهد جرت ثورات مماثلة قام بها كل من المسمى النعيمي والمسمى بوعلاق.

إكرام أهل سوف للنمامشة

في أواخر عام 1285 هـ-سنة 1869 م، وقع قحط كبير وغلاء مفرط قلت فيه الحبوب واللحوم والألبان وما يتولد منها كالزبدة والسمن والجبن والأقط (الكليلة) فتضرر أصحاب المواشي والمزارع ضررا فادحا. ولكن أهل سوف حيث كانوا أصحاب تمر لم يقع لهم ضرر كبير لاستغناء غالب الفقراء به عن الطعام (الحبوب).

وانهالت النمامشة عندئذ على أرض سوف فعمت جميع القرى لما حل بهم من الجوع. فرق أهل سوف لحالتهم وبسطوا لهم أيدي العطاء والإعانة بل بعضهم التزم بإطعام بعض العائلات تماما وصيرها من جملة عياله وبعضهم يخرج أحمال التمر يفرقها فيهم كما يفرق عليه النقود والثياب والخضر والفواكه[1].

ومهما دخلوا إلى غوط لأخذ الحطب أو الخضر لا يتعرض لهم أحد بل يراهم بعينيه ويسكت. وكان البعض كجدي سيدي محمد بن عامر إذ رآهم في غوطة يختفي لئلا يزعجهم لرقة قلبه. وتأثر من أجلهم تأثرا كبيرا. ودام الحال على ذلك مدة إلى أن جعل الله بعد عسرة يسرا. وداوم الحال من المحال.

1. قال النبي ﷺ : "الله في عون المؤمن ما كان المؤمن في عون أخيه".

واقعة قمار مع الشريف

كان سيدي محمد العيد بن الحاج علي رضي الله تعالى عنما يتردد على قمار كعادة أهل الله يريد بث الطريقة التجانية[1] في سوف فأنكره بعض أهل قمار واتفق رأي ستين منهم على كتب عريضة فيه افتراء لينتقل عنهم وأعطوها إلى أحدهم ليتوجه بها إلى تقرت وقيل ذهب بها جماعة ولما توسطوا في الطريق خرج عليهم جمع من الرجال أخذوا جميع ما عندهم ومن جملة ذلك العريضة المكتوبة فرجع خصوم الشيخ منكوبين خاسرين. وحملت تلك العريضة إلى الشيخ فدعا أصحابها وتلاها عليهم وطلب منهم الكف عن فعالهم. وقيل دعا عليهم والعياذ بالله.

ثم انتقل سيدي محمد العيد إلى تماسين وأتى خلفا عنه الشيخ سيدي محمد الصغير رضي الله عنه. وفي تلك الأيام اشتدت الوطأة بين علي باي وأهل الوادي بسبب فعاله السالفة وأحمى منهم بعدم الليونة معه كما كانوا سابقا فلما أتى من تقرت حمل عائلته وأمواله وخدمه إلى قمار وأنزلهم قرب الباب الغربي منها ووضع خيله وخدمه في منزله آخر قبالته، أسكنه إنسانا يقال له علي بن ديخة ووضع على سطح المنزل (الحوش) الهوادج التي جاءت فيها نساؤه وعليها حولي أحمر.

1. قال الدكتور ناجح أحمد : تأسست الطريقة التجانية حوالي سنة 1748 م وظهرت بسوف بين 1790 م و1791 م. أما مركزها بالمنطقة الصحراوية فبلدة تامسين. وسبق الكلام على ذلك في موضوع تقرت.

وكان أتى إلى ورقلة رجل شريف يقال له بوشوشة[1] فاجتمع بابن الأخضر المخدمي والتفت حوله جموع كثيرة من المخادمة والشعانبة ومنهم المسمى لبز من شعانبة الوادي وكثير من قرى سوف. وذكروا له أفعال علي باي وأمواله وأنها في قمار وكان علي باي قد ذهب إلى الزاب مصحوبا بنحو أربعين فارسا تاركا جميع عياله وأمواله في المحل المتقدم ذكره.

فأتى الشريف بوشوشة[2] بجيشه المذكور مارا على الطيبات. ثم مازال سائرا حتى نزل على قمار غربا منها. وكان نزوله في آخر النهار. فبعث من يعرفه بموضع علي باي فأشير عليه بحوش علي بن ديحة المتقدم ذكره.

ولما بلغ خبره إلى أهل الوادي بعثوا إليه في بكرة الغد ثلاثة عشر إنسانا لمقابلته منهم الشيخ السائح، والشيخ مصطفى، ومحمد بن أحمد بن شبل الحمديون، وإبراهيم بن فرجاني المصعبي، وابن الباهي العشبي، فلما قدموا صباحا وجدوا الشريف يتأهب لدخول قمار فبادر بالذهاب

---

1. قام محمد بن التومي المدعو بوشوشة بثورة ضد الغزو الفرنسي بالجنوب طيلة أربع سنوات أي من سنة 1870 م، إلى سنة 1874 م. ففي شهر أفريل سنة 1870 م. هاجم بلدة القليعة واستولى عليها. ومنها توجه إلى بلدة متليلي فدخلها في شهر ماي من السنة نفسها. وفي شهر فيفري سنة 1871 م، افتك مدينة ورقلة التي اتخذها فيما بعد مركزا لقيادته ومنطلقا لعملياته الحربية. ومن ورقلة اتجه على رأس عدد من جنوده إلى منطقة سوف مارا بطريق الطيبات حتى بلغ قرية قمار فانضم إليه عدد كبير من أهل المنطقة ثم عاد إلى تقرت وظل يحارب الجيش الفرنسي من مكان إلى آخر في المناطق الصحراوية إلى أن سقط أسيرا بنواحي عين صالح حوالي سنة 1874 م.

إلى حوش ابن ديحة وبحثه جميعه فلم يجد به شيئا وسمع حينئذ نساء علي باي فأغلقن باب منزلهن، وأردن الخروج من ظهره فخشين فأتاهن محمد بن أحمد بن شبل المذكور ومعه رجل من أولاد حميد الذين بقمار يقال له محمد الطيب ابن درويش فأخرجاهن وذهبا بهن إلى الشيخ سيدي محمد الصغير فاختفين بالزاوية.

فبلغ خبر ذلك للشريف فظن أن المال حمل أيضا إلى الزاوية فتأخر عن الذهاب إلى المنزل والحال أن جميع المال والحلي والأثاث هناك.

ثم حرض قومه عل قتل فاعل ذلك فظفروا بمحمد المذكور فقتلوه في ظهر حائط بإزاء الباب الغربي. وأغراهم على أخذ السلع التي بالحوانيت (المتاجر) وما فيها من النقود عقابا لأهل قمار.أقول : وكان لأبي حانوت (متجر) كبير بقمار به سلع كثيرة مختلفة ودراهم عديدة كسر القوم بابه وأخذوا جميع ما فيه. وعند انجلاء الأمر رجع والدي فلم يجد بالحانوت سوى محرمة (منديل) تحزم بها واتجه من ثمة إلى خنشلة يأكل زاد الطريق مع رفيق له قماري يقال له عمارة بن البحري من أولاد حميد.

وحين عظم الأمر بعث سيدي محمد الصغير رضي الله عنه رجلا يقال له عبد القادر بن عمرية وبيده شيء من المال إلى الشريف ليكف عن الناس حتى يتشاروا فيما يكون به العمل ومراده -رضي الله عنه- حقن الدماء وحفظ الأموال.

ثم توجه إليه الشيخ السايح المتقدم ذكره وابن الباهي، والحاج حميداتو، والحاج عبد القادر بن علية ومحمد بن عمار والحاج عمار بن زروق،

وسعودي. وفوضوه فسمع كلامهم ووعدهم بالانتقال فجمع قومه ومتاعه وارتحل راجعا من حيث أتى بعد أن انضم إليه العديد من أهل سوف.

وفي حال ذهابه مرّ بتقرت فقتل بقية القوم الذين تركهم علي باي هناك. كما تحزب معه جماعة مستندين إلى فتوى من الشيخ عبد القادر وقاتلوا العسكر الذين هناك وعزم على الاستيلاء على تقرت وما يليها. وإطاعة جم غفير من الناس.

ومنها ارتحل إلى ورقلة إذ هي محل أقوامه فاتخذها عاصمة له.

وعلى إثره أتى علي باي من الزاب حين بلغه تفصيل الواقعة ومعه جند كبير مغتاضا على تقرت وقراها فلما وصل إلى المغير شرع في قتل أناسه وإخلائه منهم. فسمع أهل تقرت فأرسلوا الشريف بوشوشة وأقوامه فأتوهم وتوجهوا جميعا لصد علي باي لكن الشريف انهزم في آخر الأمر ورجع وذلك لأنه لم يستعمل الرأي بأن يصل إلى تقرت خفية وفي هدوء وإذا استقر قراره بها يفعل ما بدا له.

قال الشاعر :

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي المحل الثاني

ثم نقل الشريف عياله وذخائره وخدمه ورجع إلى ورقلة.

وكان ذلك في آواخر عام 1288 هـ-سنة 1866 م. والله أعلم.

إيواء أهل سوف للهمامة

قال القدماء من أهل سوف : كان في زمن إدريس تعاصى الهمامة أي بعض منهم علي الباي وشعلوا النار فعالا غير لائقة مع قائدهم. قيل أرادوا قتله وأتاه جماعة منهم لذلك. فلما رآهم عرفهم فلبس ملحفة امرأة وخرج مستترا وبذلك لم يعرفوه حتى خلص إلى مناجاته.

فوجه لهم الباي قوما أشداء تسلطوا عليهم فقتلوا منهم هناك أناسا كثيرين وفر الباقون إلى سوف[1] فتبعهم المحلة تقتل وتنهب إلى أن أوصلتهم إلى صحن الطريفاوي الشرقي وصحن الزقم الشرقي.

ثم رجعت المحلة فاشتغل المنكوبون بدفن أمواتهم الذين ماتوا هناك وحملوا الجرحى على الإبل ودخلوا قرى سوف ولما وصلوا إلى الوادي أراد بعض الناس طردهم فمنعهم البعض الآخر قائلين إنهم أتونا مستجيرين بنا ولا نخيب المستجير و إلا كنا من اللئام.

فنزلوا بالصحن الغربي القبلى من ناحية أولاد احمد الذي به مقبرة الفرنساويين الآن بخيامهم وإبلهم وأمتعتهم.

1. قيل إن الفارين من الهمامة الذين قدموا إلى سوف من نفطة يقدر عددهم بنحو الخمسمائة أسرة ودامت إقامتهم بالوادي وبعض قرى سوف قرابة الشهرين. وقد تدخل قنصل فرنسا بتونس لدى الباي لإعطائهم الأمان والسماح لهم بالعودة إلى مواطنهم فقبل الباي شفاعة القنصل.

وصاروا مواصلين الليل بالنهار في النياح والبكاء وشق الجيوب وخمش الوجوه (النديب) وتسويدها مع الأبدان وعدم إيقاد النار، وغير ذلك.

وصارت نساؤهم تدخل المنازل للتسول من شدة الجوع فيعطيهن الناس ولا يمنعهن ولا يزجرهن و لا يظهر لهن انقباضا من شدة الشفقة و العطف عليهن و على أطفالهن المحمولين على ظهورهن.

ومازال الأمر كذلك حتى ظهر الفساد في امرأة منهن تذهب خفية إلى عبيد خليفة بن إدريس. ولما علم بذلك انتهرها وهددها فتعاصت وتعنتت وأثارت حمية الهمامة معها. فأجلاهم الخليفة عن سوف بعد مشورة ابن إدريس ورجعوا إلى مواطنهم خاضعين طائعين للباي.

و كان ذلك في أواخر عام 1292 هـ-سنة 1875م.

ولله سبحانه وتعالى في خلقه شؤون يتصرف في عباده كيف يشاء لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

استقرار الإدارة الفرنساوية بوادي ريغ وسوف

قال الرايس حمده: ما زالت تلك الاضطرابات تتحرك في سوف حتى أتت محلة من قبل الدولة الفرنساوية يرأسها قائد يسمى لاكروا فمرت بالصحاري الغربية وانتهت إلى وادي ريغ ومن بعدها أتت إلى سوف. وسارت في بطون صحاريها وسبرت أحوال الرعية ودعت الناس إلى الخضوع والانقياد.

وفي ذلك الحين جعلت رئيسها بتقرت يسمى طانشو.

وفي خلال تلك المدة خرج البعض من أهل سوف عن الطاعة وجالوا جولات مات فيها البعض. واستمر بعد ذلك مجيء المحلة من تقرت بين الحين والحين خوفا من عصيان أهل سوف. كان إتيان لاكروا المذكور إلى سوف في أوائل الشتاء من عام 1299 هـ-سنة 1882[1].

---

1. لم تتمكن القوات الفرنسية من احتلال أرض سوف نهائيا إلا سنة 1882 م،فتمركزت بقرية الدبيلة و لم تتمكن من التمركز بمدينة الوادي إلا حوالي سنة 1887 م، مع العلم بأن الوادي لا يبعد عن الدبيلة سوى عشرين كيلو مترا وهذا يدل على أن سلط الاحتلال واجهت صعوبات أثناء غزوها لأرض سوف.

تقدم القول بأن سلطات الاحتلال لم تتمكن من التمركز بمدينة الوادي إلا حوالي سنة 1887 أي بعد 57 سنة من دخولها أرض الجزائر وهذا يعني أن الشعب الجزائري ظل يقاوم الغزاة و لم يستسلم قط رغم جميع الوسائل التي اتخذها سلط الاستعمار للقضاء على كيانه.

فقد كان في حسبان فرنسا عند نقلها الأمير عبد القادر إلى المنفى أنه صار من السهل الاستيلاء على كامل التراب الجزائري الذي واصل مقاومته مدة ودون عناء، غير أن الشعب الجزائري الذي واصل مقاومته جعلها تتراجع في تقديراتها واستعدت لحرب طويلة النفس.

...تمكنت فرنسا فيما بين 1830 م-1882 م من الاستيلاء على المناطق الشمالية وبعض المناطق الجنوبية من التراب الجزائري وعمدت في أثناء ذلك إلى افتكاك سهول الشمال وأراضيها الخصبة من أصحابها وتسليمها إلى معمرين أجانب جلبتهم من فرنسا وايطاليا وإسبانيا لهذا الغرض وليكونوا في نفس الوقت أداة عدوان على الشعب الجزائري لكن الشعب قابل العدوان بمثله وتصدى لمقاومته عن طريق ثورات متعددة هنا وهناك وبين الحين والآخر مثل ثورة أولاد سيدي الشيخ بالجنوب الوهراني، وثورة أبي زيان بالواحات، وثورة المقراني الشهيرة سنة 1870 م، وثورة بوعمامة بمنطقة سعيدة وثورة الشريف بمنطقة ورقلة وتقرت وسوف وغير ذلك.

وإن كان التفوق في جانب الغزاة على الجانب الجزائري في تلك الثورات فالسبب يعود إلى فقدان الخبرة الحربية الكافية لدى القادة الجزائريين آنذاك، أضف إلى ذلك صعوبة المواصلات بين المناطق و عدم توازن القرى .

ولما كانت الحرب العالمية الأولى (1914 م -1918 م) دفعت فرنسا لها ضمن جنودها عددا كبيرا من الجزائريين فمات منهم الكثير في ميادين القتال وعاد الباقون إلى الجزائر وهم يحملون حقدا متزايدا على الاستعمار و الظلم وشعورا وطنيا كان نواة لبعث المقاومة بالجزائر من جديد في شكل منظمات سياسية وهيئات دينية إصلاحية تعمل كل منها حسب مخططات مرسومة وتهدف جميعا إلى تحرير الشعب الجزائري من الاستعمار الفرنسي ثم كانت الحرب العالمية الثانية (1939 م-1945 م) وكان أبناء الجزائر من الجنود الذين سجلوا فيها مواقف بطولية وهم جنبا إلى جنب مع جنود الحلفاء: (فرنسا، أمريكا، إنجلترا، روسيا)، والذين وعدوا الشعوب المستعمرة بالاستقلال بعد الانتصار على معسكر المحور :(ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية إذاك).

وكان النصر للحلفاء على المحور وطلع فجر 8 ماي 1945 ليحتفل العالم بانتهاء الحرب وزوال النازية فشارك الشعب الجزائري كغيره في احتفال ذلك اليوم معبرا بدوره عن رغبته في الحرية. لكن السلطات الاستعمارية بالجزائر قابلت هذا المهرجان الشعبي بالحديد والنار فانقلب الاحتفال إلى ثورة دموية قتل فيها الجزائريون قتلا جماعيا لاسيما في نواحي قالمة وسطيف.

كان هذا الحادث مما خيب ظن الشعب الجزائري في وعود الحلفاء وبالتالي أدركوا أن الوسيلة الوحيدة للتخلص من الاستعمار الفرنسي هي الاعتماد على النفس وحمل السلاح في وجهه.

...وتكتل الشعب الجزائري وراء حزب جبهة التحرير الوطني الذي أعد العدة لخوض المعركة وافتكاك حريته افتكاكا وتخليص بلاده نهائيا من الغاصبين الأجانب.

في شهر أكتوبر 1954 م كان اجتماع القيادة العسكرية للحزب وعنده تقرر أن يكون فاتح نوفمبر ميلاد الثورة المسلحة على مستوى كامل التراب الجزائري. وفعلا كان الميلاد المبارك واندفع الشعب يؤيد ثورته بأبنائه وأمواله فضمن لها الحياة والاستمرار.

وفي شهر ديسمبر 1958 م تأسست حكومة جزائرية مؤقتة في المهجر وقد أصبح جيش التحرير الوطني يسيطر على أغلب الأراضي وفي مستوى تحدى به قوة فرنسا ومن ورائها الحلف الأطلسي.

لم يفد فرنسا جميع ما استعملته من وسائل مادية ونفسانية للسيطرة على الشعب والقضاء على الثورة فاضطربت أحوالها السياسية والاقتصادية وفي النهاية جاءت بالجنرال دي غول الذي رأت فيه أملها الأخير. لكن دي غول بعد ما اختبر الشعب الجزائري وثورته من قريب أدرك أنه لم يبق من سبيل لإنقاذ سمعة فرنسا وإخراجها من المأزق سوى الخضوع للأمر الواقع ودعوة الجزائريين للتفاوض. وكانت مفاوضات إفيان التي اعترفت للشعب الجزائري الذي ضحى بمليون ونصف شهيد بحق تقرير المصير.

وحددت الاتفاقيات إيقاف الحرب ابتداء من 19 مارس 1962 م لإجراء استفتاء عام يوم فاتح جويلية 1962 فصوت الشعب على استقلاله التام وانفصاله عن فرنسا.

وحان وقت الإعلان عن هذا الاستقلال فاختارت الحكومة الجزائرية أن يكون ذلك يوم 5 جويلية 1962 حتى يتفق عيد الاستقلال الرسمي مع اليوم الذي دخلت فيه فرنسا أرض الجزائر.ولعل في هذا الاتفاق بين الحادثين (5جويلية 1830- 5 جويلية 1962) مغزى عميق ينبغي على كل جزائري أن يستخلص منه العبرة وهو إذ يحتفل كل سنة بذكرى استقلاله يوم 05 جويلية 1962 كذكرى سارة وفرحة من أجل تحرير وطنه من براثن الاستعمار، عليه أن يتذكر في نفس الوقت اليوم ذاته 5 جويلية 1830، ذلك التاريخ المؤلم الذي خسر فيه وطنه طيلة 132 سنة، وبالتالي يجب عليه أن يتحاشى تكرار مثل تلك المأساة، وأن يسهر لأجل الحفاظ على وطنه بالعمل الصادق المثمر حتى يزدهر في جميع ميادين الحياة التي تضمن له المناعة من طمع الطامعين وتساعده على الالتحاق بركب المتقدمين.

وفي تلك الأزمنة كان قد تولى ابن إدريس على ورقلة وفر بوشوشة منها مع أتباعه فاختفى في إحدى مداشرها. وولى القائد العربي على سوف وكان محل قراره بالوادي حيث كان من قبله في موضع البرج الآن والذي هو مترل أولاد تواتي سابقا وسار في الناس سيرة سيئة لا يرحم صغيرا ولا يوقر كبيرا وبسط لسانه يسب الرفيع والوضيع. وقصد كبراء القبائل بالسجن من غير ذنب حتى أفضت النوبة إلى المسمى حميد بن عبد الله بن حميد الجامعي فربطه بحبل في الإصطبل بين الخيل. وفي عشية اليوم ألبسه امرأة وأمره برحي القمح مع الإماء السودانيات ففعل وقال له : لترين مغبة هذا الظلم. وبعد زمن يسير خرج القائد العربي ومعه رجل من الوادي يقال له الحاج عبد القادر، وعبد أسود وطفلان وكان قد حمل مال الإتاوة ليبلغه إلى بسكرة. فلما نزل بمحل البليدة القديمة بقرب سيف المنادى أتاه حميد بن عبد الله المذكور في جماعة من أصحابه فقتلوا الحاج عبد القادر، أولا لئلا يفعل بهم شيئا ومنه ذهب حميد بنفسه إلى القائد العربي وهو نائم فوقف على صدره فأيقضه من نومه ثم ذكره في السب و الكم الذي قال له سابقا بعد أن عرفه بذاته وبعد ذلك قتله. وذهب إلى الطفلين فأيقضهما وأخبرهما بما فعل وبين لهما المال وأنه ما قتله إلا لأجل ما فعل معه و لم يكن له غرض في النقود. و إلى الآن يعرف ذلك المحل به. وكانت الواقعة في حدود عام 1292 هـ-سنة 1875م.

وفي خلال تلك المدة كان ابن إدريس في طلب الشريف بوشوشة يبحث عنه سرا وعلانية حتى ظفر به وأنفذه للدولة الفرنساوية من غير

واسطة. واعتبرته منه ذلك عملا عظيما فكافأته الدولة بطلب منه بتوليته تقرت وسوف فولى عليهما وعدل في أول الأمر ثم تغيرت سيرته.

قال الشيخ نصر: لما وصل لاكروا إلى سوف وقصد الصحراء شرد الكثير من الناس فذهب معظمهم إلى ناحية النمامشة وبعضهم إلى نواحي الجريد خصوصا حامة توزر. وبعد أن استتب الحال رجع أكثرهم وبقي منهم بالجريد إلى الآن.

أقول : وهكذا كان ما كان من أحوال الدهر وصروف الزمان وإنا لله ولا قوة إلا بالله. نسأله سبحانه حسن المآل والاستجابة لما بقلوبنا من آمال، إنه تعالى سميع بصير وعلى تبديل الأمور قدير.

بـــاب الأنســـاب

قال النبي ﷺ :"**تعلّمُوا مِن النّسَب ما تَعرِفُونَ بِهِ أَحْسَابكم وتَصِلُونَ به أَرحَامَكُم**".

الحكم في معرفة الأنساب

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاس إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُم شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لتعارفوا ...﴾[1].

وقال ﷺ : "تعلموا من النسب ما تعرفون به أحسابكم وتصلون به أرحامكم".

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : "تعلموا النسب ولا تكونوا كنبط السواد إذا سئل أحدهم عن أصله قال من قرية كذا".

وفي رواية أخرى عنه :"تعلموا أنسابكم ولا تكونوا كأنباط بابل إذا سئل أحدهم من أين هو أجاب من هذه القرية أو من تلك ".

والنبط جمعه أنباط ونبيط وهم قوم من العجم ثم صارت الكلمة تطلق على العوام ومنها كلمة نبيطة أي عامية.

وجاء في قول بعضهم :"من لا يعرف النسب لا يعرف الناس، ومن لا يعرف الناس لا يعد من الناس".

قال الإمام ابن خلدون :"ذهب كثير من أئمة المحدثين والفقهاء مثل ابن إسحاق الطبري والبخاري إلى جواز الرفع في الأنساب ولم يكرهوه محتجين بعمل السلف. فقد كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه أنسب قريش لقريش بل ولسائر العرب، وكذا ابن عباس، وجبير بن مطعم وعقيل بن أبي طالب وكان من بعدهم ابن شهاب، وابن سيرين، وكثير من التابعين" والله أعلم.

---

1. سورة الحجرات، الآية 13.

نســب العــرب

اعلم أن أمة العرب تنقسم أولا إلى قسمين هما : عدنان، وقحطان. وزاد بعضهم قسما آخر وهو قضاعة والراجح أنه من ذرية حمير. ومنهم من ينسبه إلى معد بن عدنان.

أما عدنان فهو من ولد سيدنا إسماعيل عليه السلام و ليس عندنا يقين بأسماء الآباء الذين يتصل بهم إليه. وقد قيل أنه عدنان بن أد بن أدد بن اليسع ابن الهميسع بن سلامان بن نبت بن قيذار بن إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه السلام.

وأما قحطان: فقيل هو أيضا من ولد إسماعيل وهو ظاهر كلام البخاري في قوله:"باب نسبة اليمن إلى إسماعيل ".وساق في الباب قول النبي ﷺ :"ارموا يا بني إسماعيل فإن أباكم كان راميا".

وقيل إنه من ذرية سام بن نوح عليه السلام. والجمهور على أن قحطان هو يقطن المذكور في التوراة وعلى هذا فإن قحطان هو ابن عابر بن شالح ابن أرفخشد بن سام بن نوح. وعابر المذكور هو سيدنا هود عليه السلام.

ثم تنقسم عدنان إلى ربيعة ومضر وإياد وهم أبناء نزار بن معد بن عدنان. وتنقسم قحطان إلى كهلان وحمير ومنه قضاعة القصية.

جاء في "العقد الفريد": "كهلان بن سبا بن قحطان و الراجح أن سبا هو ابن يشجب بن يعرب بن قحطان كما الراجح أن حمير ليس هو قضاعة إذ حمير أخو كهلان وأبوهما سبا المذكور. وقضاعة من ذرية حمير إذ قضاعة أبوه مالك بن عمرو بن مرة بن زيد بن مالك بن حمير، واسم قضاعة عمرو".

قال إسحاق الكلبي وطائفة : قد يحتج في ذلك بما رواه ابن لهيعة عن عقبة ابن عامر الجهني، قال يا رسول الله، من نحن؟ قال: أنتم من قضاعة بن مالك. وقال عمرو بن مرة وهو من الصحابة : نحن بنو الشيخ العجاز الأزهري قضاعة بن مالك بن حمير وقال البعض إن حمير أبوه معد بن عدنان وليس بصحيح وإن كان القائل به جماعة كثيرة منهم ابن عبد البر وبن العباس، وابن عمرو، وجبيربن مطعم،واختاره الزبير بن بكار بن مصعب وابن هشام.

قال السهيلي: والصحيح أن أم قضاعة وهي عبكرة مات عنها مالك بن حمير وهي حامل بقضاعة فتزوجها معد بن عدنان فولدت قضاعة.فتكنى له ونسب له.والله أعلم.



نسب قيس عيلان

اعلم أن قيس المذكور هو أبو أكثر القبائل الموجودة الآن في أرض سوف وما حولها.

قال الشيخ الجرجاوي في شرح قول الشاعر :

أيها السائل عنهم وعني لست من قيس ولا قيس مني

قال: إن قيسا هذا هو أبو القبيلة المشهورة من مضر واسمه النأس بفتح النون وسكون الهمزة بعدها وبالسين المهملة. وأما قيس فلقبه (أي رجل الشدة) لأن القيس في اللغة هو الشدة أي صاحب الشدة في الحروب والتحمل للضيم ممن ينسب إليه أو يستجير به.

وأما عيلان فهو اسم الشخص الذي كفل قيسا ورباه فنسب هذا إليه.

وقال الشيخ قطة في شرح البيت المتقدم : قيس أبو قبيلة وهو قيس عيلان بالعين المهملة أخو إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

وجاء في "العقد الفريد" : ولد مضر بن نزار ولدين هما : إلياس والنأس هو عيلان أمهما الرباب بنت صيدة بن معد بن عدنان. فولد النأس الذي هو عيلان بن مضر ولدا واحدا وهو قيس بن عيلان بن مضر. وولد إلياس ابن مضر ثلاثة أولاد وهم عمرو ويسمى مدركة: وعامر وهو طابخة وعمير وهو القمعة. ويقال إن القمعة هو الجرعة وأمهم خنذف وهي ليلى بنت حلون بن عمران بن الحاف بن قضاعة.

وقال في موضع آخر : قيس بن النأس وهو عيلان بن مضر.

أقول : الراجح أن قيس عيلان هو النأس كما سبق أن ذلك كان لقبه وانتسابه. وجميع البطون المضرية تنسب لذنيك الرجلين وهما إلياس والنأس.

فمن ولد إلياس بنو مدركة،وهم هذيل بن مدركة، وكنانة بن خزيمة بن مدركة، وأسد بن خزيمة بن مدركة، والهون بن خزيمة بن مدركة وبنو طابخة بن إلياس بن مضر وهم: ضبة بن أد بن طابخة، ومزينة وهم بنو عمرو بن أد بن طابخة. نسبوا إلى أمهم مزينة بنت كلب بن وبرة. والرباب: بنو أد بن طابخة وهم بنو عدي وسميت الرباب لأنها اجتمعت وتحالفت فكانت مثل الربابة وبنو تميم، وبنو ثور، وبنوعكل، وصوفة وهو الربيط بن الغوث بن أد بن طابخة.

ومن النأس، بنو عمرو، وبنو خصفة يعني أن النأس ولد ولدين هما: عمرو وخصفة .ثم ولد عمرو ولدين هما : عدوان وفهم وولد خصفة ولدين محارب وعكرمة. ومن عكرمة منصور ومنه مازن، وسلامان، وهوزان، وسليم.

ومن سليم : بهنة وثعلبة، وامرؤ القيس، وعوف، ومعاوية، ومن هوزان بكر. ومن هذا معاوية ومنبه، وزيد، وسعد.

ومن معاوية بن بكر بن هوزان جاء جشم، ونصر، وعوف، وصعصعة. ومن هذا الأخير عامر، ومرة، وربيعة، والحارث، وقيس، وعوف، ومن عامر بن صعصعة ربيعة، وهلال. والله أعلم.

سليـــم وهـــلال

أما نسب سليم فهو بحسب ما تقدم هكذا: سليم بن منصور بن عكرمة ابن خصفة بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

ومن بني سليم بهنة بن سليم بن منصور، ومنه جاء مالك بن بهنة بن سليم، وامرؤ القيس بن بهنة بن سليم. وهبيب بن بهنة بن سليم، وقيس بن بهنة بن سليم. فمن مالك بن بهنة جاء ذياب ومنه رافع ومنه فاتك ووهب. ومن امرئ القيس بن بهنة خفاف،ومنصور وعوف.ومن هبيب بن بهنة، أحمد، وحامد، وزياد، وحميد، ومن قيس بن بهنة، خفاف ومنه ناصر ومنه زغبة.

وأما نسب هلال فهو:هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوزان بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر بن نزار ابن معد بن عدنان. وفي منصور يلتقي نسب هلال و سليم.

ومن بني هلال نهيك ومنه أبو ربيعة، ومنه رباح، وأثبج، وزغبة. فمن رباح بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال، عمر، وزغبة، ومالك ومرداس. ومن اثبج بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال قرفة، وعامر، وياسر، ومشرف، ودريد، ومن زغبة، مالك منه عامر. وسيأتي ما هو متفرع عن سليم وهلال عند ذكر أنساب بعض أهل سوف إن شاء الله. وهو المرشد و الموفق.

طـــرود وعـــدوان

قال شارحو قول تأبط شرا الفهمي :

فأبت إلى فهم وما كدت آئبا   وكم مثلها فارقتها وهي تصفر

قالوا : فهم أبو طرود القبيلة العظيمة الشهيرة.

ومعنى البيت : أني رجعت إلى فهم (أبي طرود) وما كدت راجعا لأني كنت في يد العدو وكثير من القبائل التي مثل فهم فارقتها وهي تصفر أي تتلهف.

وفي نور الأبصار أن الليث بن سعد (الإمام العظيم) مولى عبد الرحمن بن خالد بن مسافر الفهمي نسبة إلى فهم بطن من قيس.

زاد في كتاب فتوح افريقية قوله : ومنهم طرود إخوة عدوان.

وفي تاريخ ابن خلكان جاء قوله : من بني فهم بنو عمرو بن قيس بن عيلان.

وفيما ذكر البهيقي : بنو طرود بن فهم بطن متسع منهم الأعشى الشاعر الفاضل المشهور.

قال ابن خلدون : من بني وائل بن حكيم بنو طرود. وقد يقال إن طرودا ليس لسليم وأنهم من منبس إحدى بطون هلال بن عامر. ويقال أن منهم زيد بن العجاج بن فاضل المذكور في رجالات هلال. والصحيح في طرود أنهم من بني فهم بن عمرو بن قيس بن عيلان وكانت طرود أحلاف الدلاج ثم قاطعوهم وحالفوا آل ملاعب.

وجاء في "العقد الفريد" ما نصه : فمن بطون قيس، عدوان وفهم أبناء عمرو بن قيس عيلان وأمهما جديلة بنت مدركة بن إلياس بن مضر، نسبوا إليها...

فعلى هذا تكون سلسلة نسب طرود هكذا: طرود بن فهم بن عمرو بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

وقد قيل سموا طرودا نسبة لرجل يدعى طرادا من قوم مسروق بن عندالة حين كانوا بطرابلس فقتلوا رجلا وحين طلبت منهم الدية امتنعوا وفروا ليلا كما تقدم ذكر ذلك. كما قيل إنهم من منبس وإحدى بطون هلال بن عامر.

وقيل أيضا أن طرودا لسليم كما سيكون ذلك في نسب بعض من استطعت رفع نسبهم. والله أعلم بالصواب.

ويكون نسب عدوان حسب ما ذكر هكذا : عدوان بن عمرو بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. كما قيل إن عدوانا من بطن رياح بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر. وإلى الله صحة الصحيح.

فمن عدوان عامر بن الظرب حكيم العرب وهو عامر بن الظرب بن عمرو بن عياذ بن يشكر بن عدوان. ومنهم عميلة وكنيته أبو سيارة وهو عميلة بن الأعزل بن خالد بن سعد بن الحارث بن وابش بن زيد بن عدوان.

وذو الأصبع العدواني وهو من بني ثعلبة بن الظرب بن عمرو بن عياذ بن يشكر بن عدوان.

ومن طرود نمر بن دهمان الذي عاش مائتي سنة وفعل الفعال العجيبة التي يطول ذكرها هنا. ومنهم الحطيئة الشاعر الذي كانت تهابه العرب لهجائه. وتأبطا شرا وهو ثابت بن عمثيل، وغير ذلك من رجالات العرب المشهورين. والله أعلم.

تذييـــل

قيل إن طرودا هم أبناء جبلة بن الأيهم بن غيمان، انتسبوا لرجل يقال له طرد بن دابس، وهو خلاف ذلك. أولا إن طرودا (بضم الطاء والراء) اسم رجل لا شبهة فيه.ثانيا أن جبلة المذكور ليس له جد يقال له غيمان وهو الملوك الغساسنة ولم يأت أحد من نسله إلى هذه الناحية.

قال الشريشي الكبير : جبلة هو ابن الأيهم بن جبلة بن الحارث الأوسط بن ثعلبة بن الحارث الأكبر بن عمرو بن جفنة.

وقال في "العقد الفريد": جفنة بن حارثة بن عمرو بن حارثة بن ثعلبة ابن امرئ القيس بن مازن بن الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن حمير بن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان. ثم قال : كانت ملوك غسان بالشام وهم سبعة وثلاثون ملكا ملكوا ستمائة سنة وست عشرة إلى أن جاء الإسلام. وسبب تسميتهم بذلك أن ماء في موضع يسمى المشلل يقال له غسان فمن شرب منه من الأزد فهو غساني.

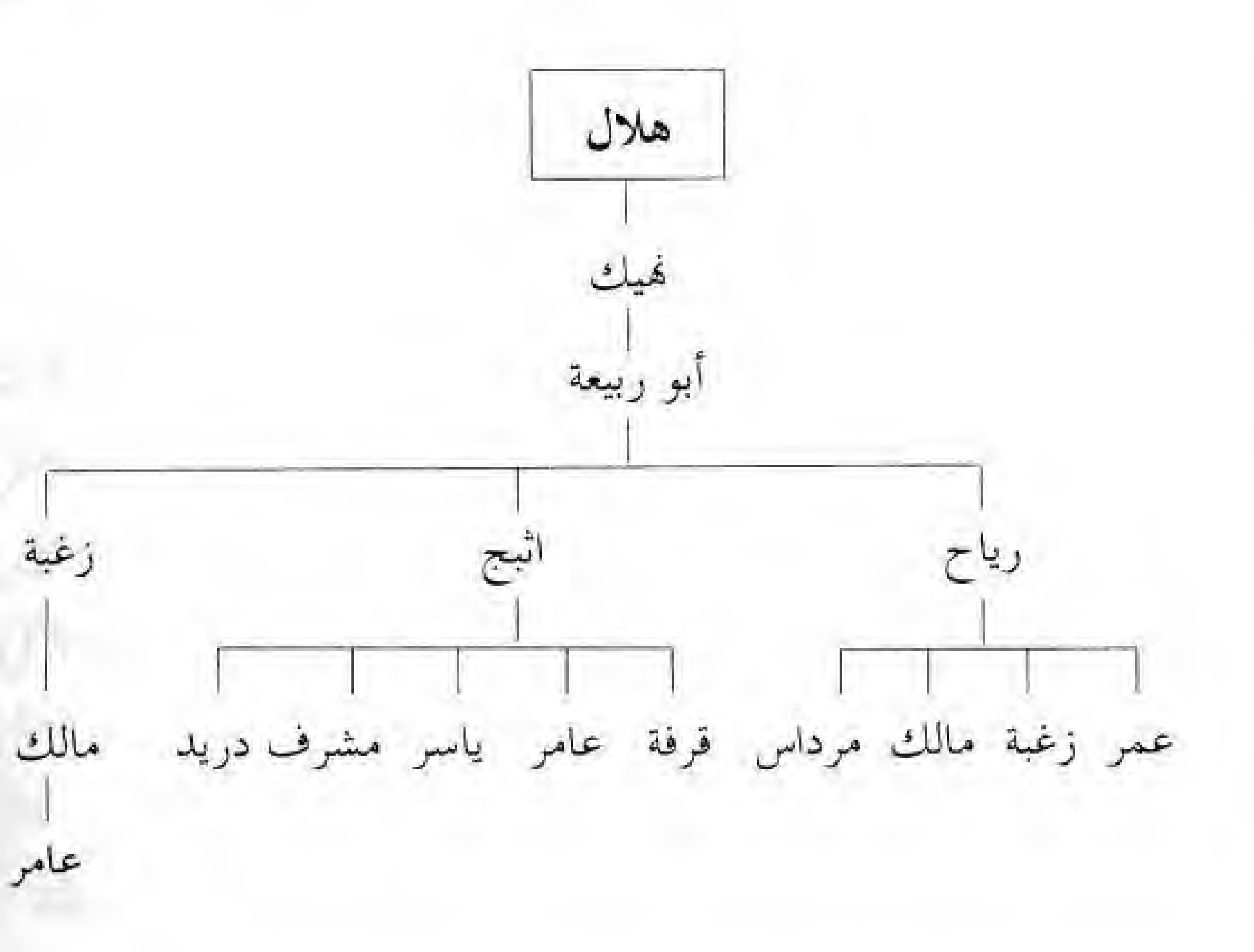
قال الشريشي : وهو آخر ملوك غسان. وكان طول جبلة اثني عشرة شبرا فإذا ركب مسح الأرض بقدميه.ولما أراد أن يسلم كتب إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في القدوم عليه فسر (فرح) بذلك وكتب إليه أن اقدم فلك ما لنا و عليك ما علينا. فخرج في مائة فارس من عك وجفنة فلما دنا (قرب) إلى المدينة ألبسهم ثياب الوشى المنسوجة بالذهب الأصفر والحرير الأحمر، وجلل الخيل بجلاجل الديباج وطوقها أطواق الذهب والفضة. ولبس تاجه وفيه قرط مارية. فلم يبق بالمدينة

إلا وخرج إليه. وفرح المسلمون بقدومه وإسلامه. ثم حضر الموسم مع عمر. فبينما هو يطوف بالبيت إذ وطئ إزاره رجل من فزارة فحله، فالتفت إليه جبلة مغضبا ولطمه فهشم أنفه،فاستعدى عليه الفزاري عمر (اشتكى له به) فقال له عمر : ما دعاك لطمت أخاك. فقال له : انه وطئ إزاري ولولا حرمة هذا البيت لأخذت الذي فيه عيناه (رأسه) فقال له عمر: أما أنت فقد أقررت فإما أن ترضيه و إما أن أقيده منك.قال: أتقيده مني وهو رجل سوقة (رعية). قال عمر : قد شملك وإياه الإسلام فما تفضله إلا بالعافية. قال جبلة : قد رجوت أن أكون في الإسلام أعز مني في الجاهلية. فقال هو ذاك. قال إذن أتنصر (أي يصير نصرانيا) قال عمرك إن تنصرت ضربت عنقك لأنك مرتد عن الإسلام والمرتد يقتل. واجتمع وفد فزارة ووفد جبلة وكادت تكون فتنة. فقال جبلة لعمر: انظرني إلى غد يا أمير المؤمنين. قال: ذلك إليك. فلما كان في جنح الليل خرج في أصحابه إلى القسطنطينية فتنصر. وعظم هرقل قدومه وسر به وأقطع له (أعطاه) الأموال والرباع (الأراضي)...

فأنت ترى محل جبلة ونسبه وزمنه وهذا مخالف لما قيل.ثم إننا لا نجد في جميع نسبه اسم غيمان. وأما جبلة الذي في كندة فهو ابن الرايش بن الحارث بن معاوية بن كندة.

وجاء في "العقد الفريد"ما نصه : كندة بن عفير بن عدي بن الحارث بن مرة بن ادد بن زيد بن يشجب بن غريب بن زيد بن كهلان بن حمير بن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان...الخ.

فليس في نسب هذا أيضا ما ذكر والله أعلم.



سليم **هوزان** **مازن**

- سليم: بهنة عوف امرؤ القيس معاوية
- هوزان: بكر
  - بكر: معاوية منبه سعد زيد
    - معاوية: صعصعة نصر جشم عوف
      - صعصعة: عامر مرة غالب قيس
        - عامر: هلال ربيعة

سليم

- بهنة
  - مالك
    - ذياب
      - رافع
  - امرؤ القيس
    - خفاف منصور عوف
  - هبيب
    - أحمد حامد زوايد حميد
  - قيس
    - خفاف
      - ناصر
        - رغبة

تنبيهـــات

أولا: قال الإمام ابن خلدون: تاريخ الأنساب أضعف الجميع لخفائه واندراسه باندراس الزمان وذهابه.

ثانيا: لا يخفى أن الشعوب، والقبائل، والفصائل، والعمائر، والبطون والأفخاذ التي بأرض سوف مختلطة ومتسعبة لا يمكن التمييز بينها إلا بمشقة وجهد، فرأيت أن أذكر الشعب أو غيره وأنسبه إلى أصله سواء كان على حدة أو مختلطا مع غيره.

ثالثا : إني أذكر تلك القبائل حسب دخولها إلى الوادي وغير الأول فالأول وأعتبر التقدم ولو بشيء قليل ولا أراعي الشرف أو القوة أو الفضل.

رابعا : أراعي الأكثرية في تلك القبائل ولا ألتفت إلى الأقلية، فلا يقول القائل كيف أن فلانا مثلا أتى مؤخرا وهو مع القبيلة المذكورة أولا.

خامسا: إني أرفع نسب من استطعت رفعه وأترك بعض الأنساب إما لعدم تحقيقي بها أو الشك فيها أو لعلة أخرى، كما قد أذكر نسب بعض الذين أتوا متأخرين جدا إلى سوف ولهذا أخرت في كتابي هذا موضوع الأنساب ليدخل فيه من أتى ولو في هذا التاريخ.

سادسا: قال ابن الكلبي : الشعب أكبر من القبيلة، ثم العميرة، ثم البطن، ثم الفخذ، ثم العشيرة، ثم الفصيلة.

سابعا: إن أكثر قبائل سوف من طرود، وعدوان وسليم، وهلال. ينسبون جميعا إلى قيس عيلان وهو الناس بن مضر كما تقدم ذكر ذلك. والله أعلم.

نســـب أهـــل الـــوادي

اعلم أن أهل الوادي الآن قد تركبوا من قبائل، وفصائل، وعمائر، وبطون، وأفخاذ متعددة وينسب الجميع إلى شعبين عظيمين هما الأعشاش، والمصاعبة. لكن بعض بطون كل شعب قد دخل الوادي قبل البطون من الشعب الآخر. وسأرتب الكل حسب الطاقة والاجتهاد. والله أعلم.

قبيـــلة أولاد أحمـــد

هذه القبيلة كانت في القديم عظيمة وصارت في هذا العهد ضئيلة العدد.وهي إحدى القبائل المنضمة لشعب الأعشاش.

قيل سموا أولاد أحمد نسبة إلى أحمد بن هبيب بن بهنة بن سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان.

وقيل : نسبة إلى رجل يقال له حمد بن عمر بن حنظلة القريشي كان قتل ابن عمه وأتى إلى قيروان هاربا...الخ. لكن المخبرين ذوي التحقيق جزموا بعدم صحة ذلك. والله أعلم.

وتتركب قبيلة أولاد أحمد من سبع عمائر :

العميرة الأولى : السوفية

هذه العميرة سميت بذلك لأنها أول من دخل وادي سوف وعمره. فكأنه لم ينسب أحد لسوف سواها.وأولهم سيدي مسطور السابق ذكره.

وكان لبعض أولاده بنتان إحداهما تسمى عائشة والأخرى فاطمة وسيأتي ما يترتب عنهما.

وتتركب هذه العميرة من عشر فصائل خمس أصليات وهي : الأولى: أولاد يوسف وفيهم بيتان من بني عدوان يقال لهم أولاد الأخضر جاؤوا من قديم من طرود الذين كانوا في تندلة. الثانية : أولاد الشايب. الثالثة: أولاد حفوظة. الرابعة : أولاد حفصة. الخامسة : أولاد مصباح.

وخمس ملحقات وهي : أولاد شبل بن موسى بن محمد بن مسعود بن سلطان بن زمام بنورديفي بن داود بن مرداس بن رياح بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوزان بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان.

ذكر القدماء أن الذي أتى إلى الوادي من أولاد شبل إنسان يقال له العربي. وجاء منه ابن يقال له عبد الله. ومنه ابن يقال له محمد. وجاء من هذا ابن يسمى أحمد ومنه جاءت الذرية التي معنا الآن وهم : إبراهيم، والحاج عبد القادر، ومحمد، وهذا الأخير هو الذي مات في قمار سابقا.

وسبب مجيء العربي المذكور إلى وادي سوف مع أنه كان بالمحاميد عرب طرابلس أنه كان بناءا فطلب منه شيخ المحاميد أن يبني له بيتا في مترله فرأته امرأة من قريبات الشيخ كانت بالمترل وقيل جاريته فعلقت به واشتد كلفها وشوقها. فراودته عن نفسها وراسلته خفية فامتنع عن وصالها. فأقسمت له قائلة : إن لم تأت لأقولن أنك راودتني عن نفسي. فوعدها بالإتيان إليها ليلا. فبلغ الخبر إلى الشيخ فأخذ سلاحه وقال : إن جاء مترلي أقتله. ولم يذهب العربي إليها كما وعدها صونا

لدينه وعرضه. ولما انتقل الخبر بين الناس قال في نفسه : إن هذا الإنسان قد تمكنت بيني وبينه العداوة وهو الرئيس فإن لم يقتلني اليوم سيغري بي بعض السفهاء ليقتلني يوما آخر. فأتى إلى أمه وأخبرها بتفصيل الواقعة وقال لها : إني أريد الفرار من هذا المكان ثم ودعها وانصرف تاركا جميع ما عنده. ولم يزل ينتقل من محل إلى محل حتى وصل عند أبناء سيدي مسطور فترل عليهم فأكرموه. وبعد زمن يسير زوجوه بعائشة المتقدم ذكرها. وجعل مترلا من حطب وحلفاء وبيتا من شعر في المكان المعروف الآن بالجامع الصغير الذي بوسط السوق. ثم شرع هو وزوجته في غرس النخيل فجعلوا الغوط المسمى الآن غوط عمار بن صيفي.

فسبب انضمام هذه الفصيلة للسوفية هو تزويج العربي الشبلى بابنتهم عائشة كما تقدم.

الفصيلة الثانية : العلالقة. يزعم بعض العوام أن علاقا جد العلالقة كان خادما للعربي الشبلي المتقدم،وليس بصحيح، وإنما هو حديث خرافة. أما نسبهم فيتصل بعلاق بن عوف بن امرئ القيس بن بهثة بن سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان. وكانت منازلهم مع بني شبل في المحاميد عرب طرابلس كما هو في ابن خلدون و"المنهل العذب".

قال القدماء : إن جد العلالقة الذين بسوف كان مع العربي الشبلي ومن أكبر محبيه وملازميه.ولما فر العربي إلى سوف التحق به وحين خالط أبناء سيدي مسطور زوجوه بفاطمة السالف ذكرها أي أخت

عائشة. وخدم النخيل مع الشبلي وجعل منزله في المكان المعروف الآن برحبة اليهود غربي السوق.

فالسبب في انضمام هذه الفصيلة أيضا للسوفية هو تزويج جد العلالقة بابنتهم فاطمة.

الفصيلة الثالثة : أولاد الجديدي ينسبون إلى سيدي محمد الجديدي الفحقي القيرواني السالمي من بني سالم بن وهب بن رافع بن ذياب بن مالك ابن بهنة بن سليم بن منصور...إلخ. وصاحب الزاوية الشهيرة بالقيروان. كان جدهم الأول بطرابلس عند دخول العرب إلى إفريقية، ثم انتقل إلى قرية فحقة بقرب القيروان. وتناسلت منه ذرية بها وانتقل منهم سيدي محمد الجديدي إلى قيروان فاستوطنوها وجعل زاويته بها. ثم انتقل بعض أبنائه مع بعض العرب الذين قصدوا المغرب، وهم المعروفون عندنا بالسلمية، ونزلوا قرب القرارة و الجلفة ثم انحدروا إلى الصحراء القريبة وأتى جد الواديين الآن منهم. ولهذا من لايعرفهم يحسبهم من السلمية.

ورد في "المنهل العذب" عند ترجمة سيدي عبيد بن يعيش الغرياني الذي خلفه الشيخ الجديدي في مكانه على زاويته أن الشيخ الجديدي قال : إني رأيت في منامي كأني مقدم سفينة وعبيد الغرياني في مؤخرها، فأولت ذلك بأني أموت وهو يرثني. وقال عبيد: فقصدت الجديديين الذين في بلدة فحقة فلم نجد الشيخ محمد الجديدي فدخلت القيروان من باب تونس فوجدته خلف صبية يلعبون فأخذ بيدي ومشى بي إلى زاويته ...إلخ. وكانت وفاة الشيخ الجديدي في حدود عام 802 هـ-سنة 1400 م.

أقول إن سيدي محمد الجديدي المذكور هو أحد أجدادي من جهة الأم لأبيها. فسبب انتساب الجديديين للسوفية هو أن جدهم حين دخل الوادي نزل على أولاد يوسف فتزوج منهم بامرأة يقال لها مسعودة وانضم لهم بذلك.

الفصيلة الرابعة: أولاد ميلود : وهم من أمغاد غدامس. أتى جدهم محمد بن أحمد بن ميلود فنزل على أولاد يوسف وتزوج منهم بامرأة يقال لها مسعودة بنت عطاء الله فانتسب لهم بذلك.

أقول انتهت إمامة الجامع إليهم وكان جميع الأئمة الذين توارثها بجامع السوق أي جامع سيدي مسعود هم من أولاد مسطور، وأولاد الجديدي، وأولاد ميلود، فأولهم سيدي محمد الهادي بن مسطور، ولما مات قام بالإمامة بعده ابنه يوسف، وبعده ابنه بوغزالة وكان صاحب فهم عميق وعلم غزير وتقاييد مهمة. عثرت على تأليف له في التوحيد نظما وبعض مسائل حسابية. وبعد انتقاله،خلفه في الإمامة الحاج عطاء الله ومن بعده سيدي الجديدي وهو المقبور بجانب الجامع الغربي. ومن بعده سيدي عطاء الله الثاني وكان صاحب تحقيق في فني الفقه والميراث، وعنه أخذ الكثير من المتقدمين وقد كتبت عنه مسائل مهمة في الفنين المذكورين، وحجب بصره في آخر العهد.

ودام على تلك الحال يدرس بالجامع الكبير. ومن بعده قام بالإمامة أخوه سيدي محمد بن سيدي الجديدي وهو أبو أمي أي جدي. ومنه قام سيدي مسعود بن سيدي عطاء الله وبعده صهره زوج ابنته وهو سيدي أحمد بن محمد بن أحمد بن ميلود.

الفصيلة الخامسة : أولاد الحداد وهم أولاد العبيدي، أصلهم من أولاد سيدي عبيد الساكنين حوالى نفطة. أتى جدهم بلقاسم الحداد من أولاد عبد الملك فريق أبي طارفة. وكان بلقاسم المذكور رجلا تقيا ورعا فآواه يوسف أحد أبناء سيدي مسطور وزوجه بابنته مبروكة فانتسب للسوفية بذلك، وأولدها ثلاثة أبناء وهم علي ونصيب وسعد، فمن الأول : عمارة والعبيدي ومن الثاني : بلقاسم والغالي ومحمد، ومن الأخير على النقاب. فهذه الفصيلة أتت متأخرة جدا دعاني لتقديم ذكرها إتمام عميرة السوفية. والله أعلم.

العميرة الثانية: أولاد مياسة

قال القدماء وكذا الشيخ العدواني: إنهم أبناء المائسة بنت العش حين تزوجها أحمد بن عمر بن حنظلة. والراجح حسب ما تدل عليه المقارنات وكما جاء في ابن خلدون أنهم من أبناء مياس بن هيكل بن ملاعب بن نمير بن حكيم بن حصن بن علاق بن عوف بن امرئ القيس بن بهثة بن سليم...الخ. نسب العلالقة السابق ذكره. وهم فصائل كثيرة في الطريفاوي و الوادي وعميش وليس معهم طارئ إلا أولاد الخزاز فإنهم من أولاد مولاة العرب الغرابة وسيأتي نسبهم في المصاعبة إن شاء الله. وكان دخولهم إلى الوادي عقب دخول السوفية ولذا ذكرهم إثرهم.

العميرة الثالثة: أولاد جاء بالله

هم أولاد جاء بالله بن جارية بن وشاح بن عامر بن جابر بن فائك بن رافع بن ذياب بن مالك بن بهثة بن سليم. وهم فرق قليلة في أولاد أحمد.

ومعهم بطنان أجنبيان.الأول منهما العوينيون ينسبون إلى عوينة دوز وهي قرية من قرى نفزاوة قريبة من أرض سوف.وهم قليلون جدا. والثاني منهما القوايد، أصلهم من زناتة تكسبت القديمة. وهذا هو سبب تقديمي لهذه العميرة على غيرها وإلا فأولاد جاء بالله أتوا متأخرين من نفزاوة وسكنوا في أولاد أحمد.

وقد تقدم نسب زناتة مرفوعا في وسط الكتاب. وأما قايد المذكور فهو ابن أبي الضحاك بن أبي يزول تافرسين بن فراديس بن ونيف...إلخ. والله أعلم.

العميرة الرابعة : الأميهات

هذه العميرة نسب إلى محل يقال له أميهة بادي قرب نفوسة من أعمال قابس إذ جدهم الأميهى هو الذي أتى إلى أرض سوف من هناك.

وهم اثنتا عشرة فصيلة منها خمس أصليات وهي : أولاد الطالب علي وأولاد بوغزالة، وأولاد نصر بن عون، وأولاد مزيو، والعتايبة. واثنتان مختلطتان هما: رمضين الطريفاوي (أما رمضين الوادي فهم من أولاد مياسة)، وأولاد علية.

وخمس ملحقات : الأولى الترايعة من أولاد تريعة بن محمود. قال القدماء إن أباهم من بلدة قمار وأمهم غربية وهم من الأشراف.

الثانية: أولاد ميداني من أشراف البهيمة الذين أصلهم من نفطة كما سيأتي.

الثالثة: أولاد بن مبروك، أصلهم من الزاب الشرقي وينسبون لأولاد عمر أتوا من الزمن القريب وانظموا إلى الأميهات.

الرابعة : أولاد الدراجي أصلهم من جبل الظاهر وعاشروا عرب سيدي عقبة فكانوا حلفاء أولاد عمر. أتوا متأخرين جدا إلى وادي سوف. وقيل أيضا أصلهم من الدويرات.

أقول : إن أهل الدويرات هم من بني سليم أما أولاد الدراجي فمن الأشراف. والله أعلم.

الخامسة : الدبابشة، أتى جدهم من قرية يقال لها الدبابشة من قرى نفزاوة. ويختلط بهؤلاء أولاد صالح بن حميدة من أشراف نفطة، وأولاد حميدة الزن من أهل نفطة أيضا. والله أعلم.

العميرة الخامسة: العواشير

يجري على ألسنة القدماء أن جد العواشير يسمى عاشورا من موالي أولاد مياسة لكن معظمهم يثبت هذا النسب وبعضهم ينفي ذلك.

وهم عشر فصائل، سبع أصليات وهي : أولاد كرمادي، وأولاد بلقاسم بن قدور، وأولاد الأطرش، وأولاد العطالة، وأولاد طليبة، وأولاد زيد، وأولاد الصغير خرخش، وثلاث ملحقات: وهي النوابلية من نابل بلدة من أعمال سوسة إيالة تونس، وأولاد مصطفى الزبيديين وسيأتي نسبهم، والكواردية أصلهم من غريب أتوا متأخرين جدا. وينضم لهؤلاء أولاد عبد الله الحسان النموشي وبعض من قرية قمار مثل أولاد حمودة وابن غريب.

أقول: الصحيح أن الفرق الأربع الأوليات يقال لها أولاد الحاج أحمد هو صاحب جامع أولاد أحمد الآن الذي أسسه وحرض الناس عليه، وإن

الفرقة الخامسة من أخلاطهم يقال لها القلالبة. ومع السادسة و السابعة أخلاط يقال لهم أولاد التومي وهم الذين كان جدهم مولى لأولاد مياسة يخدمهم ثم هرب من عندهم والتحق بوادي ريغ ثم رجع فاختلط بالمذكورين.

وهذا هو سبب ذكري لهذه العميرة عقب أولاد مياسة. والله أعلم.

العميرة السادسة: أولاد عياد

هم أولاد عياد بن منيع بن يعقوب بن عامر بن مالك بن زغبة بن نصر بن زايد بن سليمان بن وهب بن رافع بن ذياب بن مالك بن بهثة بن سليم...إلخ.

وهم فرق كثيرة كانت في القديم بنواحي طرابلس وبرقة وقابس. أتت منها إلى أولاد أحمد ستة فصائل.والى البهيمة فصيلة واحدة عظيمة. فالست هي: الزرايقة ويقال لهم أيضا أولاد الزرقي، وأولاد غربي، والأمهاوات، وأولاد محول، وأولاد مبارك، وأولاد زغدود ثم وقعت بين أولاد محول وغيرهم مشاحنات خرجوا من أجلها من أولاد أحمد فترل بعضهم بالمصاعبة وبعضهم بالأعشاش وسيأتي ذكر ذلك إن شاء الله.

العميرة السابعة: السوامش

أصل هذه العميرة من نفزاوة وينتسبون إلى سماش بن سيدي بوجويحيف النفزاوي. وبعضهم يزعم أن سيدي بوجويحيف هو جدهم لأمهم فقط لأنه لم يترك ابنا ذكرا، وسماش المذكور هو ابن ابنته وأبوه من بني سليم الذين سكنوا جبل الظاهر والدويرات وتفرقوا بنواحي نفزاوة.

ومن الأخبار التي تناقلها القدماء أن سيدي بوجويحيف المذكور، وسيدي معبد الذي بقرب غدامس، وسيدي خويلد بورقلة، وسيدي علي بن خزان الذي بقرية الدبيلة هم اخوة عبدوا الله جميعا بالصحراء القبلية ومنها تفرقوا فساق الله كل واحد إلى محله الذي هو به الآن بعد أن طوحته الطوائح زمنا.

وهذه العميرة أتت متأخرة جدا لكن تتميما لقبيلة أولاد أحمد قدمتها في الذكر. وهذا آخر الكلام على القبيلة المذكورة. والله أعلم.

المصاعبـــة

الذي جرى على الألسنة في الأزمنة الأخيرة أن هذا الشعب يسمى المصاعبة. واختلفوا في سبب تسميته ذلك. فالبعض يقولون لأنهم ينسبون إلى مصعب بن شباط، لكن هذا الاسم أتى لهم متأخرا، وهم كانوا شعبا عظيما قبل وجود مصعب فيهم.

قال الشيخ العدواني إن مصعب اثنان أخوان أحدهم يقال له الأعور، والآخر يقال له التاجر. أما الأعور فهو من ولد همام بن فطاسة البدوي. وأما التاجر فهو ولد عمر بن أبي بكر بن سعد بن لؤي بن المسعود الصحابي...إلخ.

أقول: لعل هذا الخطأ في النسخ أو الطبع أو سهو من المؤلف إذ كيف بعد أن كان الأعور و التاجر أخوين صارا أحدهما من ولد همام والآخر من ولد عمر. وهب أن الأخوة كانت من قبل الأم فقط فكيف يشتركان في الاسم مع اضطراب نسب الثاني. فالصحيح ما أخبرني به حمد بن بوزغاية رحمه الله، وهو أن المصاعبة كان يقال لهم المصابعة بتقديم الباء على العين. وان المصاعبة كان يقال لهم الأصابعة.

جاء في المنهل"المنهل العذب" قوله : الأصابعة نسبة إلى رجل ذي أصبع زائدة ... ولم يذكر التجاني لأي بطن ينتسبون.

وورد في كتاب الشريشي الكبير قوله : ذو الأصبع هو القائل:غدير الحي من عدوان إلى آخر أبيات الشعر المعروفة.

ثم قال : وهو ابن قيس بن صعصعة بن طرود بن فهم بن عمرو بن قيس عيلان ...إلخ.

وشعب الأصابعة أو المصابعة أو المصاعبة ينقسم إلى أربع قبائل وهي: الشبابطة، والقرافيين، والعزازلة، والشعانبة، وسيأتي تفصيل الجميع إن شاء الله.

قبيـــلة الشبابطـــة

ينتسبون إلى شباط المتقدم ذكره. وقال القدماء إنهم من العرب الذين دخلوا وادي سوف عقب سيدي مسطور وأولاد أحمد.وفيهم بعض أهل تكسبت القديمة من زناتة.

وتنقسم قبيلة الشبابطة إلى اثنتي عشرة عميرة.

العميرة الأولى : الشراردة

سموا بذلك لشدة نفرتهم من الناس وشرودهم.وهم ست فصائل أصلهم من توزر.

الأولى : المداخلة. الثانية. لروابح. الثالثة : أولاد قريش. الرابعة : أولاد حمه الطالب. الخامسة: أولاد عثمان. السادسة: المنانعة ويقال لهم أيضا أولاد مناعي. وكلهم دخلوا وادي سوف جملة حسب قول القدماء.

العميرة الثانية : أولاد بوجديد

نسبة إلى جدهم بوجديد الذي جعل البناء الجديد في تكسبت التي كانت بموضع غوط الدواب الآن وهو المغيبة.

وتنقسم هذه العميرة إلى ست فصائل : اثنتان أصليتان وهما : الأولى: أولاد حمانة. الثانية: أولاد البوهالي. ومع الأخيرة أولاد دهانة النموشي.

وأربع ملحقات وهي : الأولى : أولاد حمادي أصلهم من بني سليم. الثانية: أولاد صابر بن عسكر بن حميد بن هبيب بن بهثة بن سليم بن منصور.

وهم الصوابرية. وقد انتسب هؤلاء إلى أولاد بوجديد بالمصاهرة.
الثالثة: المراغنية، نسبة إلى سيدي مرغني الرجل الصالح المقبور الآن بمحل تعبده في صحن الماسط.

وذهب الناس في نسبهم مذاهب شتى فمنهم من يقول إنهم من الطوارق تصاهروا مع أولاد بوجديد وحين ضاق المجال بهم نزلوا بالصحن المذكور فخدموا ضريح سيدي مرغني ونسبوا إليه.ومنهم من يقول إنهم من بني مرغمى بن صابر المذكور آنفا وإنما أبدلت العامة ميم الاسم بالنون فصار مرغني مثل اسم الشيخ الصالح فظنوا أنهم منه.

أقول رأيت في الجزائر كتابا بخط القلم اسمه : كتاب السلسلة الوافية والياقوتة الكافية (أو الصافية،اشتبه عني ذلك) مقتطف من الجمهرة الكبرى، وكتاب التحقيق في النسب الرقيق وكتاب الاعتبار وجواهر الاختبار. وكان على كتاب السلسة الوافية هذا خاتمان قديمان لم تتبين لي كتابتهما، منسوبا للشيخ أحمد بن أبي القاسم العمشاوي مؤلفا عام 1198 هـ-سنة 1784 م ذكر فيه نسب المراغنية بما نصه : وأما المراغنية بنو يوسف بن مخلوف فجدهم اسمه الحسن بن القاسم بن عبد الكريم بن إبراهيم بن عبد العزيز بن عمر بن سليمان بن عيسى بن إدريس بن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى...إلخ.

أقول وبعد أن كان المراغنية في أولاد بوجديد تصاهروا مع أولاد مياسة واختلطوا بهم فصاروا الآن يذكرون في عديدهم مع أولاد أحمد. وسيدي مرغني المسطور هو جدي من جهة الأم لأمها. حقق الله النسب.

الرابعة : العوامر أبناء سيدي عامر بن صالح بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن يعلا بن عبد العلا بن أحمد بن محمد بن عمر بن سليمان بن أحمد بن محمد بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن سيدتنا فاطمة الزهراء بنت سيدنا ومولانا محمد ﷺ.

أقول: انحصر نسل بني عامر الواديين في أبنائه وهو محمد الذي قدم من نواحي سوسة بالإيالة التونسية. وتناسل من هذا ذرية كثيرة مات بعضهم من غير عقب. وبعضهم عقب وهم عمار، وإبراهيم، وأحمد وعلي.

فمن الأول، محمد الذي مات من غير عقب، وعلي ولم يعقب أيضا، ومن الثاني محمد الساسي فقط وهو أبي -اللهم حقق النسب- ومن الثالث بلقاسم، ومنه أحمد، ومنه البشير المفقود الآن. ومن الأخير محمد ومنه عمر ومنه علي الذي مات من غير عقب ومحمد،ومن هذا محمد، وعمر ومصباح، والحسين.

وقد انضم العوامر لأولاد بوجديد بالمصاهرة.

العميرة الثالثة : الشوايحة

ينسبون إلى شيحة وهو محل بقرب جبل أوراس لترولهم به زمنا عند دخول العرب أرض إفريقية.ثم أتوا إلى وادي سوف واختلطوا بالشبابطة وتصاهروا معهم.

وهم من بني رياح بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوزان بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس

عيلان لوجود ما يدل على ذلك فيهم إذ سمعت من بعضهم دعوى القرابة مع بعض الرياحيين.

وتنقسم هذه العميرة إلى ثلاث فصائل وهي : الصوالح، و الكعوب، والذرايعة، وكلهم دخلوا وادي سوف متأخرين وإنما ذكرتهم هنا تتميما لقبيلة الشبابطة. والله أعلم.

العميرة الرابعة: العيايدة.

هذه العميرة تقدم نسبها في أولاد أحمد إذ هي قطعة منهم وهم أولاد مجول. لكن الآن تصاهروا مع الشبابطة وصاروا من عديدهم.

العميرة الخامسة : الأبالى

هم أولاد بالي بن فرحات بن سليمان يتصل نسبهم بالفصائل الملحقة مع العوامر المتقدم ذكرهم.

وتنقسم هذه العميرة إلى أربع فصائل،ثلاث أصليات وهي : الأبالى، وأولاد القيطة، وأولاد الدودي ومن انتمي إليهم.

وواحدة ملحقة وهي الأمطارية. أصلهم من ماطر وهي بلدة من أعمال إيالة تونس، أتوا متأخرين فانضموا لهؤلاء بالمصاهرة. وأكثرهم الآن انتقلوا إلى نفطة واستوطنوها و لم يبق بعميش منهم إلا القليل.

العميرة السادسة : الأعليات.

هم أولاد علية بن صمودة بن حمدان، أصلهم من بلدة الحضر التي بوسط نخيل توزر الآن غربا منها. ويقال إن نسبهم يتصل ببني همام.

أقول ويدل على ذلك قرابتهم في بني رضوان، منهم خاصة خلافا لمن يزعم أنهم من العرب الغرابة. والله أعلم.

العميرة السابعة : الأمامنة.

سميت هذه العميرة بذلك لأن جدهم كما قال القدماء كان غير مسلم ثم آمن وحسن إسلامه وسمي عبد الله المؤمن. وقيل أيضا أنه كان من حلفاء بني مزروع الذين في جبل الظاهر. وكان يقال لبنيه أولاد المؤمن ثم تصرفت فيه الألسنة فصار يقال لهم الأمامنة. و لم يكن من هؤلاء أحد بالوادي بل كلهم في عميش. والله أعلم.

العميرة السابعة : المساعية.

هم أولاد المسعى بن إسماعيل بن باعلي. أصلهم من إباضية مزاب. أتى جدهم عام الجماعة الكبرى، وبلغني أنهم إلى الآن لا يسمون عليا، والعهدة في ذلك على القائل.وقد عدل جدهم عن الاعتزال حين خالط أهل سوف فصار سنيا. والله أعلم.

العميرة التاسعة : الستاتة.

هذه العميرة تجمع طائفتين هما : أولاد ستو. وأولاد سيدي موسى ومن انضم إليهم.

قيل أصلهم من أولاد مولاة بن منكاسة بن ورصيف بن يحي بن تمصيت بن الضرى بن زيحيك بن مادغيش إلى آخر نسب البرابرة. فهم على هذا القول من البرابرة الذين اختلطوا بعرب رحمن والسلمية المتقدم ذكرهم بنواحي وادي ريغ.لكن الصحيح أنهم من أبناء سعيد بن مالك

بن رياح بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر...إلخ. الذين هم في أرض ورقلة. أتوا متأخرين إلى وادي سوف فاختلطوا بالشوابحة في القديم وبالسواكية في الأخير ...والله أعلم.

العميرة العاشرة : الجلايصية

هم أولاد جلاص أو زلاص بن حبوس بن لماية بن فاتن بن تمصيت ابن ضرى... إلى آخر نسب الستاتة على القول الأول. فالزلايصية من البربر الذين كانوا نازلين بنواحي القيروان وتفرق منهم أناس بقسطيلة والزاب وسوف. وقد أتوا متأخرين فتصاهروا مع الشوابحة وصاروا في عديدهم .والله أعلم.

العميرة الحادية عشرة : الزبدة.

سميت هذه العميرة بذلك نسبة إلى زبيد.

جاء في تاريخ ابن خلكان ما نصه : زبيد بضم الزاي وفتح الباء الموحدة وسكون الياء المثناة تحت وبعدها دال مهملة اسمه منبه بن صعب بن سعد العشيرة بن مذحج.

وزاد "العقد الفريد" هو ابن مالك بن أدد بن زيد بن يشجب بن زيد كهلان بن سبأ بن مالك بن أدد بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن عابر وهو سيدنا هود عليه السلام بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام.

وقال ابن خلكان : زبيد قبيلة كبيرة باليمن خرج منها خلق كثير من الصحابة رضي الله عنهم.

أقول : وحين دخلوا مع العرب إلى إفريقية اجتمعوا في ناحية واحدة بقرية قرب المهدية. ومن هناك تفرقوا.والدليل على ذلك ما ذكره القدماء ويؤيده ما في رحلة ابن بطوطة.

ومن هذه العميرة شعبة مع أولاد أحمد وقد تقدمت الإشارة إليهم. وسيأتي ذكر بعضهم مع الأعشاش وفي كوينين وتاغزوت.

ومن الزبيديين من نزلوا بنفطة ومنهم من ذهبوا إلى الزاب فاستوطنوه.

والذين هم بالوادي مع شعب المصاعبة الآن ثماني فصائل وهي : العمامرة، والخوالدية، وأولاد الحاوى، وأولاد فرجاني، وأولاد القتى، وأولاد بوسنينة وأولاد القصير، والبقاقصة. وقد أتوا إلى وادي سوف منذ زمن غير بعيد. والله أعلم.

العميرة الثانية عشرة: السواكرية

هذه العميرة تنقسم إلى ثلاثة أقسام : أولاد إسماعيل، وأولاد ذياب، بن ساكر، وأولاد الحاج عبد الرزاق بن ساكر.

فأما الأولون فأصلهم من مليكة وهي إحدى قرى غرداية. وأما الأخيرون فقال عنهم الشيخ العدواني أن نسب جدهم يتصل بسيدنا الزبير بن العوام وابن صفية عمة الرسول ﷺ.

قال القدماء : أتى الساكر متأخرا ونزل بتكسبت الجديدة واستوطنها وولد له ابنان. أحدهما يقال له ذياب، والآخر عبد الرحمن. ثم مات الأخير من غير عقب. وولد الأول ابنان أحدهما يسمى الساكر، والثاني عبد الرزاق (شهر بعد حجة بالحاج عبد الرزاق). وكان رجلا صالحا.

ثم انتقل الأول إلى الوادي، والثاني إلى بلدة يقال لها الخضراء قرب غمرة إحدى مداشر تقرت. فوجد فيها سيدي محمد بن السايح فخدمه زمنا وبعد ذلك أشار عليه بأن يسكن هو وبنوه الغديرة التي هي محل الطيبات القبلية الآن. وقال له: احمل معك ناقة فإذا وصلت إلى مكان فأشرفت الناقة على الموت فانحرها ولا تأكل منها واسكن بمحل موتها وإن لم يقع شيء للناقة فارجع.فلما وصل إلى ذلك المحل، أي الطيبات وقع للناقة ما ذكر فسكن هناك وابتدع النخيل. والى اليوم توجد نخلتان طويلتان مما غرسه الحاج عبد الرزاق. ثم بعد ذلك أمره الشيخ بالرجوع إلى الوادي فرجع وسكن مع أخيه في الشبابطة وتصاهر معهم، وجميع الرزازقة الموجودين الآن هم منه.

وانضم لهؤلاء أربع طوائف، اثنتان من الزاب واثنتان من الجريد. فالأوليتان هما أولاد الشريف، وأولاد حميدة بن سعد وكل طائفة من هاتين تنسب لنفسها الشرف، وحسب قول القدماء إنها من أولاد عامر الذين بنواحي سيدي عقبة، فهم إخوة سعيد السابق ذكرهم. وأما الأخريان فهما أولاد الداب، وأولاد العمودي وقد أتوا في الزمن القريب من نفطة.

وما كان غير مذكور هنا فهو داخل فيمن ذكر لا يخرج عنهم. والله أعلم.

القرافيـــين

هم أولاد قرفة بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان.

قال ابن خلدون : نزل بنو قرفة بجبل أوراس وسكنوه مللا متفرقة واتخذوه وطنا. وربما نزل بعضهم إلى تخوم الزاب. وهم بطون كثيرة. فأولهم بنو محمد بن قرفة ويعرفون بالكلبية. وأولاد شهيب بن محمد كليب ويعرفون بالشهب، وأولاد صبيح بن فاضل بن محمد بن كليب ويعرفون بالصبيحية، وأولاد سرحان بن فاضل ويعرفون بالسرحانية. ثم أولاد نابت بن فاضل وهم أهل الرئاسة في قرفة. ولهم اقطاعات السلطان. وهم ثلاثة أفخاذ، أولاد مساعد، وأولاد ظافر وأولاد قطيعة، والرئاسة أخص بأولاد مساعد بأولاد علي بن جابر بن فتاح بن مساعد بن نابت. ثم انتشر بنو قرفة في الزاب و الرمال.

أقول : إن القرافيين دخلوا وادي سوف متأخرين جدا ولكن حيث كان معهم الآن بعض البطون القديمة ذكرتهم هنا لتتم بذلك الضميمة للشبابطة إذ هم معهم في الأحكام.

وتنقسم هذه القبيلة إلى تسع عمائر إحداها أصلية والباقيات طارئات.

العميرة الأولى : الشراعبة

نسبة إلى شرعبة جد الفطاحزة التي كانت تنمى لها مفاخرة القرافيين الذين بالوادي لجودها وكرمها وحسن رأيها وهي تشبه الجازية في المتقدمين.

وتنقسم هذه العميرة إلى تسع فصائل صغار وهي: الفطاحزة، والزغابية، والقراينة، وأولاد حقانة، والسوايح وأولاد غمام، والهوامل، والطرايلة، والترايعة، الذين يقال لهم الشويرفات لا الذين تقدم ذكرهم في أولاد أحمد.

العميرة الثانية : القشاشطة.

هذه العميرة تنتسب إلى سيدي أحمد بن قشوط الرجل الصالح صاحب القبة التي بوسط جبانة (مقبرة) الأعشاش. وأصله من أبناء سيدي عبيد الشريف الذي هم في ضواحي الجريد. أتى إلى الوادي متأخرا وانضم بالمصاهرة للزغابية ومن معهم وتفرعت عنه الذرية الموجودة الآن بوادي سوف.

العميرة الثالثة : أولاد نصير.

قال القدماء : كانت ورقلة مسكونة بالرومان وخصوصا المكان المسمى نقوسة فتواقعوا مع البربر وخرجوا منها وسكنها البرابرة. ثم لم تنتظم أمورهم واختلفت كلمتهم فوقع الخلل بينهم فقاتل بعضهم بعضا ودخل معهم أناس آخرون في ذلك. ولم تزل الفتن قائمة بينهم إلى أن أتتهم طائفة من الناحية القبلية يقال لها بنو نصير فأصلحوا بينهم واستراح الناس مما كانوا فيه. فصار من أجل ذلك تعطيهم كل طائفة من طوائف البربر خمس نياق في كل سنة. ثم لم يطل ذلك حتى وقع الخلاف بينهم. فخرج معظم بني نصير وقصد المغرب فاستوطن بعضهم مدينة فاس وبعضهم أرض الأندلس وآخرون أرض صنهاجة وغيرهم نواحي القرارة وسوف وهم الذين بالوادي وانتقلوا منه إلى عميش وهم به الآن.

واختلف الناس في نسبهم، فمنهم من يقول إنهم من بني ثور الذين هم بورقلة الآن، وعليه فهم من بني فهم أي من طرود. ومنهم سفيان الثوري الإمام المحدث، والليث بن سعد بن عبد الرحمن كما ورد ذلك في النخبة الأزهرية.ومنهم من يقول إنهم من بني سعد وعتبة ابني مالك بن رياح، لوجود من ينتسب من أهل الوادي إلى سعد. وبلغني أيضا عن بعضهم أنهم من الأشراف.

وتنقسم هذه العميرة إلى ست فصائل وهي: الوقاقدة، والعطالة، والحرايزة، وأولاد ديدة، وأولاد الجديد، وأولاد الشيخة، وجميع من كان يرجع لهؤلاء الستة.

العميرة الرابعة : الرضوين.

نسبة إلى رضوان بن سليمان الهمامي. أصلهم من العرب الذين هم بضواحي فريانة قرب مدينة قفصة بالإيالة التونسية. وأتوا إلى وادي سوف متأخرين وتصاهروا مع أولاد نصير.

العميرة الخامسة : أولاد زايد.

أصلهم من زيود الربايع الآتي ذكرهم.

وهي ثلاث فصائل : أولاد قبوسة، والجعايدة، والعياشة، وإن كان بعض هؤلاء قد اتصل بالعزازلة كما سيأتي.

وأصلهم قديم بأرض سوف واختلاطهم بالقرافيين متأخر وقسمتهم بين العزازلة و القرافيين قريبة من وقتنا هذا والله أعلم.

العميرة السادسة : الحمايدة.

أصلهم من محاميد طرابلس، نسبة إلى محمود بن طوب بن بقية بن وشاح بن عامر بن جابر بن فاتك بن رافع بن ذياب بن مالك بن بهنة بن سليم بن منصور بن عكرمة بن خفصة بن قيس عيلان.

وهم ثلاث فصائل، الحمايدة، والقعايدة و العثمين، ومن انتمى إليهم. والله أعلم.

العميرة السابعة : الجبابنة.

نسبة إلى جبنون بن حبيش النفزاوي. أتى إلى وادي سوف مع الأعشاش فبقي البعض معهم وانتقل البعض إلى كوينين واستوطنوها والبعض الآخر اختلط بالقرافيين بالمصاهرة و الانضمام ثم انتقل بعضهم إلى الجريد ومكثوا بها زمنا ومنها رجعوا إلى سوف وهم : أولاد مراد، والصوالحة أي أولاد صالحة بنت حمرون النفطية، ويتبع هؤلاء أبيات قليلة في تكسبت الآن. والله أعلم.

العميرة الثامنة : مصغونة.

أصلهم من الشابية. فقد جاء في "الخلاصة النقية" أنهم أشياع الحفصيين. كانوا بالقيروان فأجلاهم أبو محمد الحسن فسكنوا البادية. وسموا الشابين لأن أصلهم من الشابة. والصبية في بلدة قبالة المهدية عند مكان يقال له قبودية. وهم طوائف كثيرة لا يحتاجون إلى تعريف في زمننا لشهرتهم ورفعة مكانتهم. والعرب الذين يقال لهم دريد هم تلاميذ للشابية والآن يتميزون منهم.

وهم فصيلتان في القرافيين وغيرهما في العزازلة كما سيأتي ذكرهم. والذين هم هنا : الشكايمة، وأولاد زقب، وكثير منهم لا يعرف نسبه أي أنهم لا يعرفون نسب أنفسهم والله أعلم.

العميرة التاسعة : الأمايد ومن معهم

هؤلاء ينسبهم البعض إلى جدهم المايدة فيقول لهم الأمايد. والبعض الآخر ينتسبهم إلى أمهم مبروكة فيقول لهم: أولاد مبروكة.

وهم أولاد محمد بن الصالح بن المايدة، وأولاد بلقاسم بن صالح بن المايدة، وأولاد مبروك بن صالح بن المايدة، وهؤلاء الأخيرون هم المعروفون الآن بأولاد نواجع، وأولاد الليدي وعمارة.

وأشهر من انتمى لهذه العميرة أولاد القدة، والرزازقة، والبناينة. وغير المشهور أخلاط قليلون مثل أولاد ناصر.

والجميع اختلف في نسبهم. فمنهم من يقول أن جدهم حرطاني ومنهم من ينفي ذلك. والراجح أنهم مختلفون فمنهم من كان جده حرطانيا من غدامس. ومنهم من كان من بني سليم الذين دخلوا وادي سوف مع طرود. وقد ذكر لي بعض الثقات رفع نسبهم فاعتمدت في ذلك على حافظتي لكني نسيته الآن والكمال لله. وإني لآسف على ذلك.

والآن أذكر بقية المصاعبة تتميما لهم وإن كانت بعد الأعشاش في الدخول إلى سوف.والله أعلم.

العــزازلــة

ينتسبون إلى العزال جدهم الذي أتى من المغرب ومعه إبناه الاثنان علي وبلقاسم. وكل واحد منهما له ثلاثة أبناء.

فمن الأول : عباس، وطليبة، وبشير (بالتصغير).

ومن الثاني: عجال، وحمد، وعزيز. ومع الجميع نساؤهم وأولادهم.

فلما وصلوا إلى تماسين مات العزال هناك وأتى ابناه وأبناؤهما الستة فنزلوا بقرب تكسبت القديمة. ثم بقي بلقاسم هناك وذهب أولاده الثلاثة وأخوه علي وأولاده الثلاثة إلى تونس فنزلوا على السيدة المنوبية بقرب باب القرجاني، فمكثوا مدة ثم رجعوا إلى بلقاسم الذي بالوادي فوجدوه قد ارتحل إلى تماسين حيث مات أبوه. ولا يدرون أمات هناك أم لا. وبعد زمن ولد ابن لعجال فسماه بلقاسم على اسم أبيه. قيل إنه هو صاحب الضريح المعروف في الجهة الشرقية الجوفية (الشمالية) من الوادي. وغالب فرق العزازلة تنسب إلى المذكورين، وانضم إليهم كثير من غيرهم.

وأما عجال، وحمد، وعزيز، وعباس وطليبة، وبشير، وعلي، فهم المقبورون بمكان واحد قرب ضواحي روحة والى الآن يعرفون بالعزازلة السبعة.

وتنقسم قبيلة العزازلة إلى خمس عمائر، أربع أصليات والخامسة ملحقة.

العميرة الأولى : أولاد عزيز.

هذه العميرة جمعت أولاد بلقاسم بن عجال على القول بأنه عقب، وأولاد حمد، وأولاد عزيز. لكن اشتهر فيهم الأخيرون لكثرتهم ووجود الرئاسة فيهم ودخل الآخرون في عديدهم.

ودخلت مع هؤلاء طائفة يقال لها أولاد احميمد أصلهم من رحمن بن يزيد بن مرداس بن رياح بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوزان بن منصور بن عكرمة بن خفصة بن قيس عيلان.

ومعهم طائفة أخرى من مصغونة المتقدم ذكرها وهي: أولاد الدردوري، وأولاد زواي، وأولاد الحامدية. ومعهم أيضا طائفة أصلها من غدامس تجمع الطواهرية وأولاد كينة، وأولاد الحاج البكرى. وقيل إن الآخرين هم من أولاد نصير ذكرهم مع القرافيين والله أعلم.

العميرة الثانية : البشايرة.

هم أولاد بشير المتقدم ذكره، وهم أقل عمائر العزازلة عددا. ومعهم أبيات قليلة من نفزاوة يقال لهم النقر. كما انضمت لهم طوائف من أولاد مولاة وهي: أولاد ديوب، وأولاد بوزنة، وأولاد الفقيري لأنهم تصاهروا معهم وإن كانوا في الجباية مع أولاد عزيز.

العميرة الثالثة : الطلايبة.

نسبة إلى طليبة جدهم.وهم متوسطون في العدد. وانضم لهما بيتان من بني عم الشريف، أولاد حميدة بن سعيد بن أولاد عمر بن علي بن أحمد

بن عمر بن محمد بن مسعود بن سلطان بن ورديفي بن داود ابن مرداس بن رياح بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال. ومعهم طائفة من الهمامة القيطنة وهم الشرايطة، وطائفة من سفاقص وهم الغرايسة ومنهم سيدي الحاج أحمد صاحب القبة التي قبلة البرج الآن. وطائفة من توات الحنة إخوة قوارير كوينين وهم أولاد التواتي التي كانت فيهم قيادة عرش للصاعبة سابقا.

وطائفة يقال لها الغنادرة. قال الشيخ العدواني عن هؤلاء الأخيرين أنهم ينسبون لامرأة يقال لها غنديرة كانت تنصب خيمة بالصحراء فيها تمر ودقيق تطعمه للمارين وعابري السبيل فسمي مكانها إلى الآن الخيمة. وكان لها ثلاثة أبناء أحدهم وضاح، أي به وضح وهو البرص فكان يسمى الأبيرص مات قتيلا في طريق الجريد الآن وسمي الماء(البئر) الذي بقربه الأبيرص باسمه. والثاني الأصلع أي عديم شعر الرأس يسمى المصيغيني مات بالعطش في الصحراء فسمي موضعه به إلى الآن. والثالث أخوهما للأم فقط وهو المسعودي لأن أباه كان من أولاد سعود نسبة لرجل شريف مغربي أتى إلى كوينين فانتمى إليه أهلها فصار يسميهم أبناءه. ثم انضم له أهل تاغزوت والزقم لرأي عنده. وصار يقال لهؤلاء جميعا أولاد سعود. وبذلك لا يعرف على السعودي من أية قرية من هذه القرى كان أبوه. ومات السعودي بالصحراء أيضا فسمي أيضا مكانه به اليوم...

أقول: إن كان أي الغنادرة ينسبون إلى السعودي فهم من إحدى فصائل كوينين أو الزقم أو تاغزوت. وإن كانوا ينسبون إلى أحد

الأخوين الأولين فيقرب من الظن أنهم من مصغونة. وإن كانوا يتبرؤون من هذه وينتمون لأولاد طليبة. والله أعلم بالحقيقة.

العميرة الرابعة : العبابسة

ينتسبون إلى العباس السابق ذكره، وهم كثيرو العدد. وقد انضم إليهم بعض العيايشة وتصاهروا معهم وهم: الصيايفة وانضم لهؤلاء وفد من أهل نفوسة من أعمال قابس وهم المعروفون بينهم الآن بالمقاقلة، وطائفة أخرى من تامزرط وهم الزرابطة، والزكايرة. وطائفة أيضا من غدية إحدى قرى غريب وهم الصوالح ومعهم أنفار قليلون من ورقلة والله أعلم.

العميرة الخامسة : أولاد حميد

اختلف في نسبهم لكن الذي يدل عليه انتساب البعض منهم إلى بعض بني سليم أنهم من بني حميد بن جارية بن ذياب بن ربيعة بن زغب بن جرو بن مالك بن خفاف بن امرئ القيس بن بهثة بن سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان.

وذكر لي بعض ذوي العلم من أشرافهم أنهم ينتسبون للأثبج وعليه فهم أبناء حميد بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوزان بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان.

وبحسب القول الأخير فهم هلاليون وعامر أبو حميد المذكور هو أخو دريد لأبيه فكلاهما ابن أثبج ولهما إخوة آخرون منهم قرفة جد القرافيين السابق ذكرهم، وياسر أبو جماعة من أولاد خليفة الذين هم في الأعشاش بالوادي، ومشرف أبو مخدم جد المخادمة الذين هم بورقلة.

ثم إن أولاد حميد حين دخلوا مع العرب استقروا بوادي سوف أولا، وبعد زمن وقع بينهم وبين أولاد أحمد شنآن رحلوا من أجله إلى قمار واستوطنوها.

وحين وقعت الهدنة بين قمار والوادي وصاروا حلفاء أتى بعض من أولاد حميد إلى موطنهم الأول فحانفوا أولاد أحمد ونزلوا مع المصاعبة وصاروا من عديدهم.

وهم ينقسمون إلى خمس فصائل، ثلاث أصليات، واثنتان ملحقتان وهم المحاسنة، والخشارمة والكرارشة، والسود. لأن جدهم أسود كما قيل يسمى أحمد انضم لهم بالخدمة وانتسب إليهم، والسعدين هم أولاد السعداني أصلهم من سيدي عبيد. والله أعلم.

الشعانبـــة

هؤلاء ليسوا من الذين دخلوا وادي سوف في القديم وإنما أتى منهم في الزمن القريب جماعة من متليلي وورقلة فدعاني لتقديم ذكرهم انتساب بعضهم في الصورة للمصاعبة. وكانت جبايتهم العريشة في أول الأمر مع المصاعبة والآن انفصلوا عنهم وصاروا قسما مستقلا بنفسه، لهم قيادة خاصة منهم وجباية مستقلة دون انضمام لإحدى الشعبين أي الأعشاش و المصاعبة.

واختلف في نسبهم اختلافا كثيرا. فبعضهم يقول إنهم من بني سليم وسموا بهذا الاسم حين نزلوا بإفريقية على محل يقال له "شعنبارية" (بالعين المهملة بعد الشين المعجمة). ويذكر بعضهم أنهم من بني مزروع المعروفين بالعكارمة.

أقول: مزروع هو ابن صالح بن ديلم بن حسن بن إبراهيم بن سويد بن عامر بن مالك بن زغبة بني أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر...إلخ. وإبراهيم المذكور هو مجاهر جد المجاهرية الذين هم بتقرت الآن. وقيل سموا بذلك لأن أمهم كانت تدعى شعنبا (بالشين والعين المعجمتين) وينتسبون إلى الحسون عرب اليمن الذين منهم أناس بالهمامة وأناس بالمرازيق، وبعض بورقلة و الآخرون متفرقون بالمغرب.

أقول : الحسون هم بنو عمرة بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن حيران بن قطن بن عريب بن زهير بن غوث

بن اليمن بن الهميسع بن حمير بن عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن عابر إلى آخر نسب زبيد السابق.

وقيل إن جدهم كانت لها كلبة سلوقية تسمى (عانبة) فإذا حرشتها على الصيد تقول لها أشعانبة ودامت على ذلك زمنا طويلا فعرفت بتلك العبارة وصار يقال لأولادها أبناء شعانبة.

وبعض منهم ينتسب للشرف مثل أولاد إسماعيل. وبعضهم ينتسب للمخادمة المتقدم ذكرهم. فعلى هذا يكونون من إخوة دريد القرافين وأولاد حميد.

وقيل أيضا إن جدهم بربري من مسوفة فرقة الملثمين يسمى شعبانا ويقال لأولاده الشعابنة فتصرفت في ذلك الألسنة بالقلب المكاني أي بوضع النون مكان الباء لمكان النون.

ورد في كتاب "المنهل العذب" عند تحديد طرابلس ما نصه: ويحدها غربا تونس وأرض قبائل الشعانبة (بتقديم الباء على النون) التي بين طرابلس و الجزائر...إلخ.

وينحصر الشعابنة الذين بوادي سوف في فصيلتين هما: العمارنية، والغدايرة، ومعهم أبيات قليلة من آل عدوان مختلطون بهم.

وها هنا انتهى نسب المصاعبة ببقية شعب الأعشاش. والله الموفق.

الربــايــع

الربائع جمع ربيعة، كانوا ثلاثة من نسل مالك بن زيد مناة، وربيعة بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة، وربيعة بن حنظلة بن مالك بن حنظلة مالك بن زيد بن مناة يقال لهم الربايع.

أقول: زيد مناة هو ابن تميم بن مرة بن اد بن طابخة بن إلياس بن مضر ابن نزار بن معد بن عدنان الخ. وهم أقوام كثيرون منهم فرق في الشام ومنهم في السودان كذلك حتى إنك لا تميز بين الربعي والسوداني إلا إذا عرفك بنسبه.

وجميع الذين بأرض سوف دخلوا إفريقية زمن دخول العرب إليها وبعد أولاد أحمد وبعض المصاعبة بقليل خصوصا أولاد بلول فإنهم سبقوهم إلا أولاد الحجاج فإنهم أتوا متأخرين من وادي الآجال الذي بقرب فزان. وتركوا كثيرا من إخوانهم هناك وإلى الآن يعرفون بهذا الاسم.

وتشتمل هذه القبيلة على أربعة عشرة فصيلة صغيرة وهي: أولاد بلول، والزيود، وأولاد حمد، وأولاد زقزاو، والرقيعات، والأفايز، والأغوات، والدوامية، والعطايرة، والحوامد، والمصابيح، وأولاد مسعود، والقطايطة، وأولاد الحجاج. ولم يبق الجميع بالوادي بل انتقل منهم أفراد إلى البهيمة ونواحيها. وفي هذا العهد الأخير لم يختلط بهم غيرهم من إخوانهم طرود بعد أن اختلطوا بهم زمنا سابقا.

ويعتقد البعض أن الأرباع الذين بنواحي الأغواط من هؤلاء الربايع وهذا غير صحيح. بل الأرباع هم أبناء الربيع بن زياد بن الربيع بن قنان بن سلمة بن المعقل بن كعب بن ربيعة بن الحرث بن كعب بن حرب بن علة بن خالد بن مالك بن أدد وهو مذحج بن زيد بن يشجب بن غريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن مالك بن أدد بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن عابر إلى آخر ما تقدم كما في "العقد الفريد" و"الجمهرة الكبرى". فالربايع إذن مضريون والأرباع قحطانيون. والله أعلم.

أولاد جـــامـــع

ينتسبون إلى جامع بن تمون بن عبد الله صاحب الولاية على طرابلس عام 602 هـ-1206 م بن إبراهيم بن جامع المرداسي أحد أفخاذ بني سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان لا مرداس بني هلال.

كانت منازلهم بنواحي طرابلس ثم انتقلوا منها إلى الناحية الجنوبية من الإيالة التونسية ومنها إلى أرض سوف وغيرها وبقي البعض منهم في جميع تلك النواحي.

قال ابن خلدون: حين انقطع دابر ابن غانية صرف عزمه إلى إخراج بني رياح من إفريقية، فجاء بمرداس وعلاق من بني سليم الذين بنواحي الساحل وقابس واصطنعهم، ورئاسة مرداس يومئذ في أولاد جامع. وبعده لابنه يوسف، وبعده هنان بن جابر بن جامع. ورئاسة علاق في الكعوب لأولاد شيخة بن يعقوب بن كعب. وكانت رئاسة علاق قبل أي حين دخلوا إفريقية لرافع بن حماد وعنده راية جده التي حضر بها مع النبي ﷺ وهو جد بني كعب. وتكررت بينهم وبين بني رياح الحروب والوقائع حتى أزاحوهم عن إفريقية إلى مواطنهم في هذا العهد بتلول قسنطينة وبجاية إلى الزاب وما يليه. ثم وقعت النفرة بين المرداسيين وغلبوهم على الأوطان وأخرجوهم من إفريقية إلى مواطنهم وصاروا إلى القفر وهم اليوم من جهة بادية الأعراب أهل الفلاة ويترعون إلى الرمل وبعضهم تعمق فيه...

أقول : وهم بوادي سوف غير كثيرين. وسيأتيك في كلام ابن خلدون أن الأعشاش منهم. والله أعلم.

الأعشـــاش

قال ابن خلدون : ولما علا كعب بن علاق وسائر بطون المرداسيين كحصين، ورياح، ودلاج، وارتفع شأهم عند الدولة اعتزوا على سائر بني سليم بن منصور واستقرت رئاستهم في ولد يعقوب بن كعب وهم: بنو شيخة، وبنو طاهر، وبنو علي، وكان التقدم في بني شيخة بن يعقوب لعبد الله أولا، ثم لإبراهيم أخيه، ثم لعبد الرحمن ثالثهما. وكان بنو علي يرادفوهم في الرئاسة. وكان منهم بنو كثير بن زيد بن علي. وكان كعب هذا يعرف بينهم بالحاج لما كان قضى فرضه. وكانت له صحابة مع أبي سعيد العود الرطب شيخ الموحدين لعهد السلطان المنتصر أفادته جاها وثروة.

وأقطع له السلطان أربعا من القرى أصارها لولده كان منها بناحية سفاقس وبإفريقية وبناحية الجريد. وكان له من الولد سبعة، أربعة لأم وهم: آجر، وماضي، وعلي، ومحمد. وثلاثة لأم وهم: يزيد، وبركات، وعبد الغني. فنازع أحمد بن ترحم أحد المرداسيين أولاد شيخة في رئاستهم على الكعوب واتصل بالسلطان أبي إسحاق وفعل هم فعالا عظيمة. فلحقوا بالدعى عند ظهوره. ثم هلك أحمد واستقرت الرئاسة في ولده. وكان له من الولد جماعة. فمن عرفة إحدى نساء بني قاسم: أبو الليل، وأبو الفضل. ومن الحكيمة، قائد، وعبيد، ومنديل، وعبد الكريم، والسرى، وكليب، وعساكر، وعبد الملك، وعبد العزيز. وكانت

الرئاسة المذكورة بعد أحمد لأبي الفضل. ثم من بعد أخوه أبو الليل وغلبت رئاسة هؤلاء على قومهم وتآلفوا ولد إخوهم جميعا. وعرفوا مابين أحيائهم بالأعشاش إلى هذا العهد... إلى آخر كلامه.

أقول : ولم يذكر ابن خلدون هنا العلة التي سموا من أجلها أعشاشا. قد يقال إن المتعارف بين الناس أن الإنسان إذا كثرت ذريته يسمونه عشا تشبيها بعش الطائر الذي يجمع فيه العيدان والريش، والجمع عشاش وأعشاش، فعلى هذا سميت هذه الطوائف الكثيرة أعشاشا. والجاري على ألسنة العامة الآن هو ما ذكره الشيخ العدواني ومعناه هكذا : أنهم ينتسبون إلى رجل اسمه العش بن عمر بن سليمان بن محمد اليربوعي.

أقول : يربوع هو ابن حنظلة من مالك بن زيد مناة بن تميم بن مرة بن أد بن طابخة إلى آخر نسب الربايع السابق.

وكان مترل العش المذكور في قرية من أعمال نفزاوة يقال لها تلمين الكبرى.

وقال الشيخ العدواني : وكان العش مباشرا بها تحت عاملها المسمى إبراهيم بن كنعان الكربي فكلفه أمير تونس بقضاء بعض المآرب لاتهامه للعامل فيها. وبعد تمامها وعده بالولاية في خطة المذكور وأرجعه بهدية عظيمة وأمره بأن يأتي بكتابة من أهل البلاد في عدم رضاهم بابن كنعان وقبولهم ولاية العش عليهم وحسن سيرته معهم. فلما أراد العش قضاء ذلك الوطر بلغ خبره العامل فأحضره واستخبره فكتمه الأمر. فلازال يردده حتى أحس منه بالشر. فقال له إن الأمير بعث معي بهدية لك وعريضة فيها تجديد الولاية لك فأرسل معي من يأتي لك ويأتي معه بالهدية

إن لم يقدر على حملها. ودخل العش منزله وشرع في جمع الأثاث والنقود وحمل ذلك على أربعين جملا وأخرجها من ناحية أخرى من الدار.

وذهب معها النساء وأبناؤه السبعة وهم: الفقية، وسعد، ومرجان، وخليفة الأبتر، وجبنون، وجبر، وسفيان. وكانت لهم خيول ركبوها وساروا نحو طريق سوف إذ هي لأم الهارب. وهذا كله بمسمع ومرأى من حارث موصى بكتمه. وكان للعش بئر بأسفل داره جعل عليها فراشا وأجلس حارثا عليه موهما إياه أنه سيضيفه. فسقط فيها. ثم ركب العش حصانه ولحق بأبنائه فوجدهم نازلين في قرية عوينة حيث كان يخرج أهلها في الربيع إلى الصحراء وتبقى فارغة.ثم بطؤ خبر حارث على العامل فوجه من يتفقده فوجده في البئر فأخرجه وذهبا معا للأمير فأخبره بما وقع فوجه في أثره محلة تتألف من أربعمائة فارس وزحفوا للصحراء القبلية لظنهم أنه يتوجه إلى غدامس فجالوا زمانا ولم يجدوا شيئا فرجعوا خائبين.

وأنجى الله العش فسار بمن معه حتى نزل على سيدي حسن عياد الذي بشط نفطة قبلة غربا من نخيلها. فأمره من كان بزاويته بالذهاب إلى سوف بعد الاستخارة. ثم سار حتى نزل على سيدي محمد بن علي بن أبي ناب حيث كان بالصحراء يحفر بئرا للمارين بالقرب من شوشة البكرة التي مات فيها يهودي فصارت تسمى به وتنسب إليه ومازال سائرا حتى وصل الوادي فنزل على فريق أولاد أحمد فآووه وأكرموه وتصاهروا منه وانتموا إليه... إلى آخر كلام الشيخ العدواني.

أقول كلامه هذا وإن كان يصادف من جهة التعليل ففيه نظر من وجوه، ومن شاء الاطلاع على بقيته فليراجعه.

فسيدي حسن عياد المذكور هو تلميذ سيدي الصالح البسكري وهو تلميذ سيدي أبي مدين الغوث التلمساني وهو في زمن سيدي عبد القادر الجيلاني الذي مات عام 541 هـ-سنة 1147 م تقريبا. والعش على القول به جاء زمن سيدي المسعود الشابي في حدود عام 1020 هـ -سنة 1612 م.

ومن الأعشاش طوائف كثيرة بالمغرب الأقصى، وطائفة بشمال عين البيضاء. وبقرب وادي الزناتي، وأخرى بقرب باتنة ... وطائفة بنفزاوة لكنها قليلة فلربما التي جاؤوا منها؟

والذين ها هنا بالوادي عشر عمائر منها الأصلي ومنها الملحق وسيأتيك نسب الجميع على الخلاف السابق.والله أعلم.

العميرة الأولى : الفقهة :

بحسب ما جرى على الألسنة وتبعا للشيخ العدواني أنهم أبناء الفقيه بن العش.

وبمقتضى كلام ابن خلدون إنهم أبناء فاقا بن عاصم بن عبد العزيز بن أحمد بن شيخة بن يعقوب بن كعب بن أحمد بن ترحم بن حميد بن يحي بن علاق بن عوف بن امرئ القيس بن بهنة بن سليم بن منصور ابن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان.

وهم هنا: بنو غنبازي، وساعي، وحشيشة، وبكيني، وسي العربي، ويلحق بهم بنو الحاقة، والصحيح في الأخيرين أنهم من أولاد سيدي عبيد

ركاكة. ومع هذه العميرة أولاد عطية وهم بحسب المتعارف عند بعض الناس وتبعا للشيخ العدواني من أبناء محبوب بن رياح وبحسب ما سمعت من بعضهم أنهم من أبناء سيدي الزاير صاحب زاوية القيروان ويتصل نسبهم بالأشراف والله أعلم. وبمقتضى كلام ابن خلدون أنهم أبناء عطية بن كمون بن فرج بن توتة بن مبارك بن عار بن عطية بن دريد بن الأثبج بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر... الخ . والله أعلم بالحقيقة.

وهؤلاء هم أولاد سيدي سالم العايب صاحب الزاوية الرحمانية بالوادي، وأولاد موسى الذين فيهم قيادة الأعشاش منذ زمن طويل، وأولاد الغيلاني والرمرام، والمقزدر، والشايب، والغزال، وأولاد نصر، والعتاتسة، والعزايزة، والتوامي، وينضم إلى هؤلاء آخرون وهم: أولاد الساسي، والعيايش، وميعادى، وبوشارب، وبصة، والكرباطي، والصرايطة، وبوغزالة، والهقاقة، وأولاد بوكوشة، ولم أجد عند أحد خبرا صحيحا على نسبهم بمن يتصل إلى البطنين الاخيرين فقد قيل إنهما من بيوتات الأشراف الذين بالدويرات. والله أعلم.

العميرة الثانية : أولاد خليفة.

المتعارف الآن أنهم أبناء خليفة بن العش جريا وراء كلام الشيخ العدواني.

ومن نظر كلام ابن خلدون "والمنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب" أنهم أبناء خليفة بن رشاش بن وشاح بن عطية بن كمون بن فرج... إلى آخر نسب الفقه السابق.

وهؤلاء قليلون جدا إلا أن المنتسب إليهم كثير وسيأتي تفصيلهم. والذين هم هنا: أولاد الولابي، وبوظبية، وخشيبة، والأفاحمة. والله أعلم.

العميرة الثالثة : أولاد حميدة.

قدمت هذه العميرة وإن كانت متأخرة الدخول إلى وادي سوف لانضمامها إلى أولاد خليفة. بل بعضهم يزعم أنها منهم وليس كذلك وإنما هم من النمامشة.

وهم : أولاد عمار بن قدور، والمانع، وأولاد مسعود، وأولاد مية، وأولاد عائشة، والفنيك، والعبيدي، وظريف، وابن سعد، والتريكي، والنفنوف، والكلتومي، والهمامي، والدغمين ومن معهم وهم الجرمين أولاد جرمون بن جرار بن عرفة بن قارس بن حسن بن محمد بن عبده بن حسين بن فرج بن يوسف بن منبأ. ولم أقف على ما فوق ذلك.

وينضم إلى هؤلاء أولاد سيدي عبد الله بن أحمد، وتزعم العامة أن سيدي عبد الله المذكور هو الذي كان قبل في تكسبت وليس كذلك بل هذا متأخر أتى من سفاقس وأخوه الآن في الزقم وكلاهما ينسب للشرف. والصحيح في الأول أنه مات قتيلا وقبر حذو تكسبت القديمة وهو الذي شوهد ضوء بضريحه فسمي المكان ضواي روحه.

والمنتسبون الآن إلى السفاقصي قيل إنهم ليسوا أبناء صلبه وإنما خدمه أبوهم فتبناه وهو المقبور جوفي ضريح الشيخ. والله أعلم.

العميرة الرابعة : الجبيرات.

ينسبهم غالب الناس إلى جبر بن العش كما ذكر ذلك الشيخ العدواني.

وأما بحسب كلام ابن خلدون السالف فيكونون أبناء جابر بن فاتك بن رافع بن ذياب بن مالك بن بهنة بن سليم الخ. إذ هم كما في "المنهل العذب" مختلطون مع أولاد أحمد السابق ذكرهم وانحدروا معهم من برقة إلى طرابلس ثم إلى قابس ومنها إلى الصحراء.

أقول: إن منهم أولاد أحمد الأصليين وهم: أولاد البردي، وأولاد البريدي، وأولاد بكار. إذ ربما هم بنو بريد بن كعب بن أحمد بن ترحم إلى آخر نسب الفقهة المتقدم. والباقون هم: أولاد رزيق وأولاد الدو، وأولاد علاهم، والجبايلية، وأولاد داهم، وعموري، وعدوكة، وقمارى، وقدوربية، والنيد والأرقط، والسواسي، وصلوبة، والبلالم، والبشايرة، وجابر، وعمار بن العيد، وقيل الأخيرون غرابة.

ويلحق بهم أولاد عبد الملك، وأولاد محمد، وأولاد سليمان، وهم كثيرون. وتزعم العامة أن الملحقين جدهم يهودي أسلم وليس صحيحا. والله أعلم.

العميرة الخامسة : الكساسبة

لم يزد الشيخ العدواني على أن كسابا من جبل أبي سعادة.

أقول: إن كسابا هذا قد مات في سفاقص ويقال إن نسبه يتصل بنسب سيدي عبد الله المتقدم ذكره، وقد ترك ثلاثة أبناء أحدهم ذهب إلى خنقة سيدي ناجي ، والثاني إلى عين صالح، والثالث أتى إلى وادي سوف.

وأبناؤه هم : أولاد العايب خاصة وانضم لهم بنو كساب، وعون بن محمد، وأولاد مسية، وقعيد، وأولاد عمر، وعباس، وعمارة، بن بية،

والمثرد، وديدة، وأولاد بوصبيع، والفريجات. كما انضم لهم أولاد جبنون بن بركات بن كعب الخ. وقيل ابن حبيش الخ. وهم المحاريق، وأولاد لامة، واللامعة، وقزون.

وبسبب هؤلاء قدمت ذكر هذه العميرة وإن كانت متأخرة الدخول إلى وادي سوف. وشاع بين العامة أن الضمايدة منضمون إلى هؤلاء وهم: أولاد قمعون، وأولاد مامنية، وأولاد السخري وحسب التحقيق إنهم ملحقون بعميرة أولاد حميدة إذ نسبهم يتصل بهم والله أعلم.

العميرة السادسة : أولاد عيسى.

قال الشيخ العدواني : هم أولاد عيسى العدواني.

وقال القدماء إنهم من أولاد عيسى الذين هم بجبل نفوسة و الظاهر وما بينهما.

أقول : فإن كان من ذلك المحل فهم أبناء عيسى بن زغبة بن ناصر بن خفاف بن قيس بن بهنة بن سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان.

وهم : أولاد الباهي، والخلالدية، وأولاد مريقة، والأباسي وأولاد الدروني، وأولاد بن عيسى، والى الآن يزعم البعض أنهم ملحقون بأولاد حميدة وليس بصحيح والله أعلم.

العميرة السابعة : العيايدة

تقدم نسب هذه العميرة إلى أولاد أحمد الأولين فلا لزوم لإعادته.

وهم : أولاد العيادي، والمنصوري، ومنصور، والغفاق، وأولاد عيدة، وطعملة، وأولاد باسي وأولاد كنيوة ومن ألحق بهم.

تتميم:

بقي من الأولين بنو مجور منهم جماعة من أصحاب الهنشير الغربي كأولاد الغلوسية، وحمد وأولاد بكر، وإبراهيم بن منصور، وبوعزيز، والحاج عمارة، وصالح بن فرحات، ومسعود بن عبد الله ومحمد حميدة، الخ. والله اعلم.

العميرة الثامنة : الحليلات :

تنسب هذه العميرة إلى زعيمها حليلة الذي من الدويرات ولم يحققوا نسبهم.

وهم أولاد الشبخ علي، وأولاد اللموشي، وأولاد فرج، وابن رقية، وابن نجمة، والجروني، والمرخي، والمساسة، وأولاد رويحة، وابن حدى، ولمى، والبهيم، وأولاد هاني، والميعادى، وأحمد باي وأولاد سعد بن خليفة وأخيه، والحميات ومن ألحق بهم. والله أعلم.

العميرة التاسعة : الزبدة

سبق في المصاعبة نسب هذه العميرة مرفوعا.

وهم هنا : الحساسة، وأولاد زهمول، والهزلة، والدبابة، وأولاد بكار، العثمين، والنجار، والنفيسة، والشعباني، وبروبة، وأولاد عمار الأعور، وأولاد حمية، وأولاد شتحونة. والله أعلم.

العميرة العاشرة : مضغونة.

قد تقدم الكلام عنهم في المصاعبة بأن نسبهم يتصل بنسب الشابي.

وهم هنا : أولاد محمد بن مسعود، وأولاد رجال، وأولاد محمد ب فرحات ، وأولاد الحاج صالح، والكبسي، والهوامل، والقدايرة وهؤلا كثيرون. والله أعلم.

الفرجـــان

هذه القبيلة أصلها من الفقهة وفيها أبيات للربايع وتأخرت في الدخول إلى سوف عن جميع أقاربها فلذلك اعتبرها من لا يعرفها أجنبية عنه.

وهم كما في ابن خلدون: أولاد عطوة بن عطية بن كمون بن فرج بن توبة إلى آخر نسب الفقهة.

قال القدماء : إن الذين مع الفرجان من الربايع هم معظم أولاد جار الله.

أقول إن أولاد جار الله المذمورين هم من دريد كما قال ابن خلدون : أولاد جار الله بن عبد الله بن دريد...إلى آخر ما تقدم.

أما نسبة الربايع فمن جهة الأم فقط حسبما بلغني ممن يوثق بهم ولهذا لا أتعرض لذكرهم مع الربايع.

واشتهر أولاد جار الله بالصلاح فكانت لهم مآثر تناقلتها العوام وبنو علي المنتسبين منهم قبابا تزار إلى الآن بناحية مقبرة أولاد أحمد شرقا.

وسبب تسمية الفرجان بهذا الاسم هو كما ذكر القدماء أن جدهم كان كالمجذوب يتخيل كل شيء يؤذي فارتحل مرة إلى الصحراء وكانت كثيرة الفئران فصار يجري أمامه وعن يمينه وشماله وهو يصيح كلما مرّ فأر بإزائه قائلا : الفأر جاني، الفأر أتى إلي. وكثر منه ذلك وعرف به، وتداولت العامة الكلمة فتصرفوا فيها فصارت فرجان ويقال لذريته الفرجان.

وهم: أولاد هلال الذين يسمون الأهليات، والطوافقة وأولاد بلحسن ويلحق بهم العوينات وهم أخلاط. والله أعلم.

وهذا آخر الكلام على الأعشاش وبهم انتهى الكلام على اهل الوادي.

تنبيه :

مما يلزم ذكره أن جميع الأقوام الذين تقدمت أنسابهم هم من الواديين. كانت سكناهم جميعا داخل ما حواه الوادي في أرضه الآن. أما في عهدنا هذا قد صارت مساكن البعض منهم بضواي روحه، وسيدي بلقاسم بن عجال ونزلة رويحة، والبليدة، والعلالقة، والمحاريق، ونزلة البق، وسيدي مرغني، والفرجان، وأولاد تواتي،وسيدي سليمان، وسيف يونس، والعبابسة، والبياضة. وغيرها من مداشر عميش مثل النخلة، والرباح، والخبنة، والخبى، وكذلك في الأزريق، والخبنة الأخرى، والطريفاوي، وبلالة، ووادي زيتن، وعرعير، وأم الصحوين، وشقامط، وأمية الكلبة، وسحبان ووادي العندلي ووادي الترك وأولاد مبروكة، وسيدي عبد الله، والقارة، وتكسبت، وقطاي، والدريميني، وحاسي خليفة، والسويهلة، والذكار. وأما الرقيبة والدميثة فهما من جملة قمار.

وسأذكر فيما يأتي أنساب غير الواديين. والله المعين.

تاغــزوت

كان موضعها الأول بالغوط الغربي الشمالي من محلها الآن بالطريق الآتي من تقرت إلى قمار. و إلى اليوم توجد به آثار الجدران ومحراب الصلاة، وضريح يزار هناك بني حوله حائط مربع له باب يفتح شرقا جنوبا. وذلك المكان هو الذي أتاهم فيه سيدي مسعود الشابي المتقدم ذكره. وحين وقعت النفرة بينهم ارتحلوا إلى القدايم وهو المكان الموجود شرقا جوفا من مقبرتها وهناك أيضا وقعت بينهم مشاحنات ذهب بعض من أجلها إلى قمار وعمر سيدي مسلم القرية الكائنة في هذا العهد وخربت تلك وتفرق سكانها.

وأهل هذه يتركبون من أربع عمائر:

العميرة الأولى : القبيلة

هذه العميرة ملفقة من عدة أفواج. وأصلهم الأول الذي بنيت عليه هو: أولاد زايد أخو أحمد الذي هو جد قبيلة أولاد أحمد. أتى أبناؤه أي أبناء زايد إلى هذه النواحي بعد أولاد أحمد. ولذلك يقال أنهم طروديون.

وانضم إليهم أناس من تكسبت الجديدة يقال لهم الأباقيز، ذكر القدماء أن نسبهم يتصل ببني مزروع أي الغربيين.

أقول : مزروع هو ابن خليفة بن مخلوف بن يوسف بن بكرة بن منهاب بن مكتوب بن منيع بن مغيب بن محمد بن الغريب بن الحارث

بن مبارك بن زغبة بن ناصر بن خفاف بن قيس بن بهنة بن سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان.

وهناك مزروع آخر يقال له ابن صالح ذريته بإفريقية الشرقية. ويزعم بعض الناس أن أولاد الغريب وسيدي مسلم من هؤلاء وليس بصحيح إذ قد بلغني من ذوي العلم و التحقيق منهم أنهم ينسبون إلى الأشراف وقد وجدت بعد البحث في الشجرات أسما يشبه اسم جدهم بإبدال عينه بالغين المعجمة. والى الله صحة ذلك.

ومع هذه العميرة : التواغزيت أبناء التاغزوتيين اللذين كانا قدما يعلمان الصبيان وتصاهرا مع أولاد زايد وصارا في عديدهم.

وانتسب إليهم أناس من أولاد حمدة إخوة المختلطين بأولاد خليفة الذين هم بأعشاش الوادي يقال لهم الزعاترة. وكذلك جماعة من آل عدوان يقال لهم أولاد عمران. ومعهم طائفة من بني سليم يقال لهم الحطاطبة طوحتهم الطوائح إلى أماكن عديدة وانتسبوا إلى آخر محل انتقلوا منه إلى تاغزوت يقال له الحطيبة. ويذكر العامة أنه دخل في عديد هؤلاء جماعة من المخادمة يقال لهم الجلالة أي أولاد جلال بن حمرون بن مخدم ...الخ. وقيل إنهم من النمامشة لكنهم انتسبوا للمحل الذي سكنوه أخيرا وهو الشلالة، وعليه فهم يسمون الشلالة بالشين المعجمة لا بالجيم.

ومع الجميع أفراد قليلون من الزبدة أتوا من نفطة متأخرين واختلطوا بهم بعض الأفراد من طولقة وبوسعادة.

وسبب تسمية هذه العميرة بالقبيلة لأن أهلها اجتمعوا من شعاب متعددة وحين كثروا قالوا صرنا قبيلة كبيرة نقدر على القيام بشؤوننا. هكذا ذكر القدماء والله أعلم .

العميرة الثانية : العرش

سميت بذلك لأن أهلها أتوا إلى تاغزوت من طرود فأنفتهم القبيلة فتلاحقت بهم عائلات مختلطات من الوادي وكثروا فقالوا للقبيلة قد صرنا عرشا مستقلا من غير الانضمام إليكم.

الأصليون منهم هم أولاد بركات بن كعب بن علي بن يعقوب بن كعب بن ترحم بن حميد بن يحي بن علاق بن عوف بن امرئ القيس بن بهثة بن سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان.

ويليهم الزوامل في النسب. وقيل يتصل نسبهم بيعقوب بن كعب بن ترحم...إلخ.

وانضم لهؤلاء جماعة يقال لهم الكوامل. لم يذكر إلى أحد منهم نسبهم بمن يتصل ولا علة تسميتهم بهذا الاسم.

ومن الجميع المعارنة. ذكر لي بعض كبارهم الثقات أن نسبهم يرتفع إلى معر بن عسكر بن هبيب بن بهثة بن سليم...إلخ. والله أعلم.

العميرة الثالثة : الصيايدة

نسبة لمحمد الصياد الذي ذكره الشيخ العدواني. وسألت كثيرا من ذوي الخبرة منهم عن نسبهم فلم يحققوا لي شيئا منه. لكن البعض من أهل هذه العميرة معروف النسب كما سيأتي وهم: أولاد موسى بن يوسف

بن حريز بن تميم بن عمرو بن وشاح بن عامر...الخ. والباقون يقال لهم أولاد عبد الصادق.

وهذه العميرة كبيرة جدا لكن معظمها بقي في قمار بعد الرجوع إلى تاغزوت. والذين بها هم أولاد عمارة، والميداوي، وبوبة، وحمة سودة، والمبارك، والرجيل، وحمة الحاج، وحنوك، وأولاد تاتة، والدرويش، وزرود، وطراد، وبريك، وحمر، وأحمد بن صالح، والشخار، والزبري، والخزماط، والحبيري، وبو، ودهيليس، وفرحات.والله أعلم.

العميرة الرابعة: أولاد رابح.

قال القدماء إنهم ينتسبون إلى رابح بن تاغزوتي.

أقول: اختلف في نسب التاغزوتي المذكور. فقيل اسمه أحمد، وقيل اسمه زغيب(بالتصغير) وقيل عمران. ولم يذكروا اسم أبيه. ثم إنه سليمي قطعا إذ المحل الذي أتى منه وهو تاغزوت الزاب لم يدخله في ذلك الحين سوى بني سليم. وأما بنو رياح فقد انحازوا بالجبهة الغربية. وبلغني من بعض عامتهم أن نسبهم يتصل بمزروع بن صالح ومزروع المذكور هو ابن صالح بن ديلم بن حسن بن شبابة وهو هلالي لا سليمي ولعله اشتبه عليهم الاسم فيكونون أبناء زرعة بن صالح بن قماص بن سالم بن وهب بن رافع بن ذياب بن مالك بن بهثة بن سليم... الخ. والله أعلم بالحقيقة.

وهم عميرة قوية انتقل معظمها إلى تاغزوت وبقي قليلها في قمار فهي بعكس الصيايدة المتقدم ذكرهم.

وهؤلاء هم: أولاد سالم. ولم يزيدوا اسم أبيه.

أقول: لعلهم ينتسبون إلى سالم بن وهب بن رافع المتقدم. ومعهم الزغابة وحسب ظني أنهم ينتسبون إلى زغب بن جرو بن مالك...الخ.

ويتصل بهم أولاد جاء الله. قيل يرفع نسبهم إلى زايد بن سليمان بن وهب بن رافع بن ذياب...الخ.

ويلحق بالجميع أولاد فروة. ولم يذكر لي أحد منهم نسبهم.

وتقدم أن مع تاغزوت أهل دشرة بوبياضة. والله أعلم بالصواب لا رب غيره.

الــزقــم

كانت هذه البلدة في أول الأمر عامرة بآل عدوان فقط ثم اختلطت بعد ذلك بغيرهم من القبائل. وكانت قريتين اثنتين إحداهما تسمى الرقوبة والأخرى تسمى سيدي خضير فخربتا وانتقل أصحابهما إلى المكان المعروف الآن.

وأهل الزقم في هذا العهد يتألفون من خمس عمائر منها الأصليات ومنها الملحقات.

العميرة الأولى : بنو خضراء

ينتسبون إلى قرية سيدي خضير الملقبة بالخضراء تنويها بشأنها. واختلف في أصلهم فقيل أنهم من أحمر خده فإن يكن كذلك فمن الراجح أن يلتحق نسبهم ببني رياح.

وقيل إنهم من بني ازقن. ومنهم من ينفي ذلك

وهؤلاء قليل عددهم لكن اختلط بهم كثير من النمامشة السلميين.

العميرة الثانية : أولاد أحمد

قيل إنهم ينتسبون إلى حامد أخي أحمد جد قبيلة أولاد أحمد فيكونون حينئذ طروديين وإخوة لأولاد أحمد أهل الوادي . والله أعلم.

وقيل نسبة إلى حامد آخر أحد أجدادهم ويذكرون أن جدهم حامد هذا بعد أن استقر قراره بالزقم ترك ذريته بها ورجع بزوجته إلى ناحية الميتة إذ كان محبا للبادية فمات بها.

أقول إن الذي مات بجبهة الميتة هو حامد آخر أحد أجدادهم الأسافل وليس هو حامد الأول.

وينقسمون الآن إلى أربع فصائل الأولى: أولاد محمد ويرتفع نسبهم إلى سليمان بن عبد الرحمن بن سالم بن يوسف بن صالح بن حامد. الثانية: أولاد نصر يتصل نسبهم حسب ذكرهم بأبناء الهامل بن صالح بن حامد المذكور. الثالثة: الشحيمات ولم يذكروا لي آبائهم وأجدادهم المتصلين بحامد. الرابعة : الأعواف، اختلف فيهم لمن ينتسبُون والراجح حسب قول قدمائهم أنهم إخوة بني حامد والله أعلم.

العميرة الثالثة : أولاد شوية

اختلف عامتهم في معرفة جدهم الذي انتسبوا إليه وحسب ظني أنهم ينتسبون إلى شوية أحد رجالات بني حصن بن علاق بن عوف بن امرئ القيس ابن بهنة بن سليم...الخ. فيكونون حينئذ سليميين، أو إلى شوية أحد المنتمين إلى بني معاق بن حمزة بن معد بن خذل بن حصين بن زغبة بن رياح بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال ...الخ. فيكونون حينئذ هلاليين، والله أعلم بالحقيقة.

وينقسم هؤلاء لهذا العهد إلى أربع فصائل: الأولى: أولاد ونيس. والثانية أولاد منصور. والثالثة: أولاد سالم. والرابعة: أولاد الحاج. ومعهم بيتان من العيايطة البهيميين وهما أولاد عيشة، وأولاد العروسي. والله أعلم.

العميرة الرابعة : الشواوى

يذكر البعض أن سبب تسمية الأولين منهم بذلك هو ما وقع بين بعض أهل الزقم والنمامشة من مناوشات في شأن امرأة شاوية أخذها الأولون غصبا وآل أمرها إلى تزويجها بأحد الفضلاء يقال له سيدي الحاج محمد. وأولدها بنين انتسبوا لها لاستغراب أمرها. فصار يقال لهم أولاد شاوية ثم الشواوى.

وهم كثيرون معروفون بهذا الاسم وانضم لهم آخرون يقال لهم بنو عاصم، أصلهم من مصاعبة الوادي ويتصل نسبهم ببني مناع الذين في شبابطة الوادي.

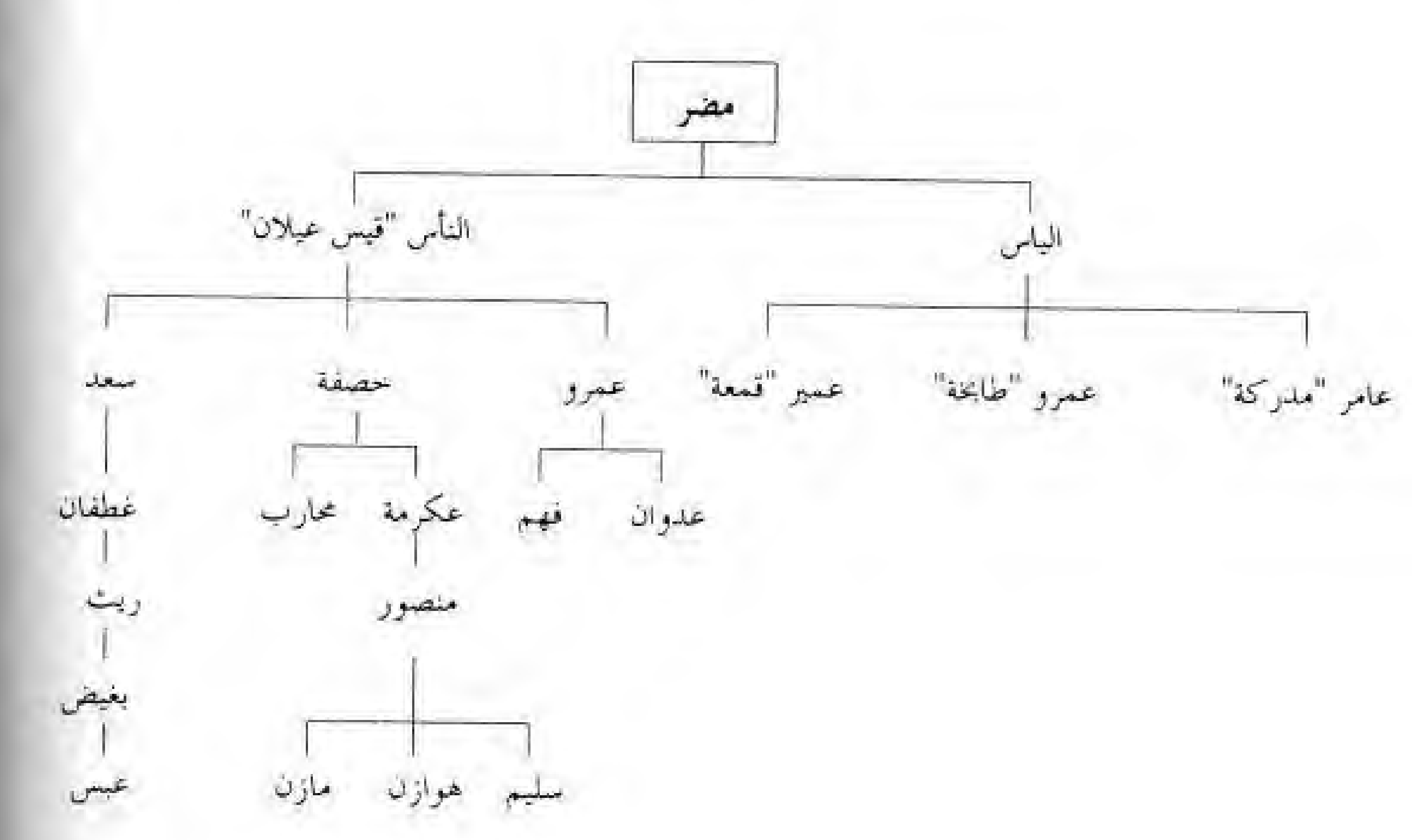
ومعهم أولاد حمد بن معمر إخوة أولاد سيدي عبد الله الذي هو في أعشاش الوادي كما سبقت الإشارة إلى ذلك. والتحق بهم قوم يقال لهم الكواكه، يتصل نسبهم بدريد إذ جدهم أتى من هناك مع أهل الوادي حين أتوا من تلك الناحية. فعلى هذا يكون إتيانه متأخرا، وتصاهر مع الشواوى فصار في عديدهم.

واختلط مع الجميع أبيات من النمامشة. والله أعلم.

العميرة الخامسة : أولاد سعيدان

أصلهم من أولاد حميدة الذين هم بأعشاش الوادي. سكنوا الدبيلة زمنا. وحين أتى الشيخ فرحات وخرب نصفها الغربي وكانوا هناك، وانجلوا إلى الزقم واستوطنوها. وهم بها قليلون. وأكثرهم لا

يعرفون آباءهم لأنهم ماتوا بالدبيلة في تلك الواقعة وقد فروا منها قبل التمييز والله أعلم.



قمـــار

أهل هذه البلدة يتركبون من خمس عمائر وهي:

العميرة الأولى : أولاد عبد القادر

ينتسبون إلى عبد القادر أحد أحفاد عبد القادر بن خليفة بن سعد بن خنفر بن مبارك بن فيصل بن سنان بن سباع بن موسى بن كمام بن علي بن خذل بن حصين بن زغبة بن رياح بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال...الخ.

وهم أكثر عمائر أهل قمار بيوتا. ومع هؤلاء بيوت أشراف يقال لهم أولاد سيدي التهامي.

ومعهم أفراد قليلة من آل عدوان كانوا يعرفون بأولاد صالح العدواني كما انضم إليهم أناس من بني معروف بن عطية بن كمون بن فرج بن توبة بن مبارك بن عامر بن عطية بن دريد بن الأثبج ... الخ. وعليه فهم في الأصل من أعشاش الوادي. ويوجد خلالهم أفراد يقال لهم أولاد راشد انضموا إليهم بالمصاهرة ويعسر تمييزهم منهم. ذكر لي بعض وجهائهم القدماء أنهم من جبل نفوسة الذي بقرب قابس ولم يزد على ذلك.

أقول إن أهل تلك الناحية أي نفوسة أكثرهم من أولاد جارية بن وشاح الذين تقدم نسبهم في أولاد جاء بالله الذين هم بعض من أولاد أحمد فلعل هؤلاء من إخوانهم والله أعلم.

العميرة الثانية : أولاد حميد

تقدم نسب هذه العميرة وتفصيل أمرها مستوفى مع العزازلة الذين هم بعض من مصاعبة الوادي.

وليس مع هؤلاء خلط إلا ما ندر وهو لا حكم له. والله أعلم.

العميرة الثالثة : الصيايدة.

مرت ترجمتهم قريبة في تاغزوت وإنهم ينقسمون إلى فصيلتين هما: أولاد موسى، وأولاد عبد الصادق. وأكثرهم هنا لم يرجع منهم إلى تاغزوت إلا القليل.

قال القدماء : ذهب من هؤلاء زمن المشاحنات جماعة إلى جبل أوراس فتصاهروا فيه ورجعوا مع أصهارهم ولكن لا يعرفون من هم أولئك الأصهار.

أقول: إنهم من شوايخة الوادي الذين هم مع شبابطة المصاعبة وأقاربهم.

وانضم إليهم من تاغزوت أناس يقال لهم التوام على ما أظن إنهم من عميرة القبيلة.

وانتمى للجميع أفراد قليلة من النمامشة السليميين، والله أعلم.

العميرة الرابعة : أولاد رابح.

سبقت نسبة هؤلاء في تاغزوت أيضا. وهم هنا قليلون جدا حتى أن بعضهم اقتصر على ذكر من انتموا إليه. وهم : الهويملات، أولاد هويمل، بن رابح. ولم يذكروا لي فوق ذلك.

ويزعم البعض أن معهم أبياتا من حراطنة غدامس وهم ينفون ذلك. كما اختلطت بهم عائلات من أولاد زايد أهل تاغزوت، وأناس من ورقلة قيل إنهم برابرة. والله أعلم.

العميرة الخامسة : أولاد بوعافية.

ذهب النسابون في تحقيق نسب هذه العميرة مذاهب شتى، منها أنهم من بني زيان بن ثابت بن محمد بن ينورسين بن طاع الله بن علي بن يصل بن فرقين بن القاسم. ومنها أنهم من صنهاجة بن عاميل بن زعزاع. ومنها أنهم أبناء عافية بن أبي بكر بن حمامة بن محمد بن ورزير بن فكوس بن كرماط بن مرين. فعلى الأقوال الثلاثة بربريون. وآخرها أقرب من جهة التعليل.

وقيل أيضا إنهم أبناء عافية بن داود بن مرداس بن رياح بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال ...الخ . وعلى هذا فهم عرب والتعليل يناسبه أيضا. والله أعلم بالحقيقة.

ومع هؤلاء كثير من الهمامة النوافلة، والبلابش، والبركات، والحوتة، وبعض السوارى من أهل البهيمة الذين سيأتي ذكرهم إن شاء الله.

وقد سبق القول أن الدميثة والرقيبة من جملة قمار والله أعلم.

البهيمـــة

قد علم الجميع أن البهيمة كان محلها الأول بقرب الزقم الآن غربا شمالا منها، وهو المحل الذي به الجدران والحجارة المبددة، وزاوية سيدي محمد الشريف إلى اليوم. وانتقل أهلها بعد خراب تلك إلى المحل الكائن لهذا العهد.

وأهلها الآن يتألفون من خمس عمائر.

العميرة الأولى : العيايدة.

تقدم نسب هذه العميرة مع أولاد أحمد الواديين.

واختلط بهم أناس من أولاد فادع بن علي بن عمر بن رياح بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال ...الخ. ويذكرون أن فيهم أبياتا من العرب الغرابة لا يدرون بمن يتصل نسبهم.

العميرة الثانية : العيايطة.

ينتسبون إلى جدهم العياط. وذكر الشيخ العدواني أن سبب تسميته بذلك أنه كان يعيط أي يصيح على نوبة شيخه أعني ينادي بالإقبال عليه ويحرض الناس على خدمته واتباعه.

والعياط المذكور لم يخرج من الزقم بل مات وهو المقبور في مقبرتها الجوفية (الشمالية) وإنما انتقل أبناؤه فقط وبقي منهم بيتان كما سبق ذكرهما في الزقم وهم: أولاد عيشة، وأولاد العروسي.

ذكر بعض العارفين بنسبهم أن جدهم المذكور يسمى أحمد العياطي، أصله من بني رحمن بن يزيد بن مرداس بن رياح بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال ...الخ. أتى أبوه من العرب الغرابة. فلما وصل إلى مكان بقرب جامعة حوز تقرت يقال له عياطة ولد له أحمد المذكور فنسب إلى ذلك المكان ثم انتقل منه وسكن الوادي مع أقاربه العزازلة. وكان ذا ديانة وورع لم ترضه سيرة بعض ممن هو معهم فانتقل إلى الزقم حتى قبر بها.

أقول : وهم الآن كثيرون واختلط بهم آخرون من بني عيار الذين هم حول تونس مع دريد. وتصاهروا معهم وتسموا بهم. والبعض يسمي الجميع العيايرة. والى الآن يعرفون بالإسمين الإثنين المذكورين.

ومع هؤلاء أبيات من الأشراف أتى جدهم من نفطة فبحث عن مشجرهم فلم أقف على أمر يقين. لكن سمعت من بعضهم أن نسبهم يتصل بنسب سيدي إبراهيم بن أحمد صاحب الزاوية القادرية بنفطة فالتسمت مشجرة من نجله الكريم الشيخ محمد الهاشمي الشريف صاحب الزاويتين القادريتين بعميش وتقرت فأمدني به ونصه هكذا. سيدي محمد الهاشمي بن القطب سيدي إبراهيم بن أحمد بن محمد بن عطية بن إبراهيم بن محمد بن إسماعيل بن عيسى بن أحمد بن عبد الوهاب بن عبد الله بن محمد بن أحمد بن أحمد الغمارى بن عبد الوهاب ابن عبد السلام بن مشيش بن ابي بكر بن علي بن عيسى بن مزور ابن هدى بن ضرار بن محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس بن إدريس بن عبد الله الكامل بن محمد بن الحسين بن فاطمة ابنة سيدنا محمد ﷺ.

وذكر الشيخ العدواني أن جد العيايطة هو أول من عرف الأثر (الجرة) بسوف.

أقول إن العياطي أتى إلى سوف فيما يقال قريبا من مقدم سيدي المسعود الشابي. ومعرفة الأثر سابقة لذلك العهد بل كانت قبل خراب تكسبت القديمة حين خرج من سورها وصيف سيدي عبد الله السابق ذكره في باب خراب تكسبت القديمة. والله أعلم.

العميرة الثالثة : الغوالين.

قال القدماء : كان في زمن الفتن التي وقعت بوادي ريغ وخربت بسببها وغلانة إحدى مداشر تقرت وتفرق أهل تلك البلدة أتت منهم جماعة إلى أرض سوف ونزلوا على أهل البهيمة وصاهروهم وانضموا إليهم وتسموا باسمهم،لكن بقيت عليهم نسبة أرضهم الأولى. فكانت في الأصل الوغلانيين ثم بعد تصرف الألسنة تحولت إلى كلمة الوغالين لكن العامة لا تراعي الألفاظ فأدخلوا عليها القلب المكاني بتحويل الغين المعجمة إلى موضع الواو، ونقل الواو إلى موضع الغين.

وهم إلى الآن غير كثيرين متميزين بالألوان والأسماء. وانضم لهم أفراد مولاتيون، وأبيات من طرود وأخرى من الربايع، وقيل إنه انتمى إليهم أيضا بعض من أهل علقمة النفطيين، وبعض الدبيليين. والله أعلم.

العميرة الرابعة : السوارى.

قال الشيخ العدواني: هم أولاد سارى العدواني. و لم يزد على ذلك.

أقول: وإن لم أقف على هذا الاسم في أنساب العدوانيين السفلى فقد وجدت في العليا السيد سارية بن حصن أو الحصين أو زنيم الديلمي الصحّابي وصاحب الواقعة المشهورة مع سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهما. فقد ذكر الشيخ زكرياء في شرح قول صاحب المنفرجة:

وأبى حفص وكرامته   في قصة سارية الخلج

قال إنهم قوم من العرب من عدوان ألحقهم عمر بالحارث بن مالك بن النضر بن كنانة.

وقال الشيخ السيوطي : "سموا بذلك لأنهم اختلجوا من عدوان أي اقتطعوا منه".

وانضم مع هؤلاء حسب قول القدماء لفائف كثيرة من أولاد مولاة وصاروا لا يتميزون عنهم ثم ذهب من الجميع أفراد إلى الدبيلة وآخرون إلى قمار.

أقول : إنهم من بني مزروع بن صالح الذين هم بتاغزوت الآن قد أتوا من هناك. والله أعلم.

العميرة الخامسة : الوهاهبة.

ينتسبون حسب قول قدمائهم إلى عبد الوهاب السلامي.

أقول : فإن كانت نسبة السلامى إلى أولاد سلام الذين هم بالهمامة الآن فهم من أولاد سلام بن لبيد بن لعتة بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن مالك بن زغبة بن نصر بن زايد بن سليمان بن وهب بن رافع بن ذياب بن مالك بن بهنة بن سليم...الخ. كما ورد ذلك في "المنهل العذب".

أقول : ويقرب هذا النسب لهم إذ أنهم يعرفون الآن بالزغبيين أيضا. ولعلهم انتسبوا إلى وهب بن ذياب الذي في سلسلتهم إذ العامة لا تضبط الأنساب. وإن كان المقصود سلام آخر فالله أعلم بذلك.

ويزعم بعضهم أنهم دخلوا أرض سوف متأخرين جدا بعد أن كانوا في برقة وانتقلوا منها إلى قمودة ومنها إلى وادي سوف فنزلوا مع الرضوين. ثم بعد حين وقعت بينهم مشاحنات انتقلوا من أجلها إلى البهيمة وهم بها إلى الآن. ويقال إن منهم أبياتا مع أولاد حامد بالزقم. والله أعلم.

كوينيـــن

قد سبق إن المكان الذي به القرية الآن سمي كوينين. وعليه فهي لم تنتقل من محلها وإن كان أهلها في أماكن متعددة بعد أن انتقلوا منها.

وأهلها في هذا العهد ينقسمون إلى خمس عمائر.

العميرة الأولى : القوارير

قال القدماء : إن جدهم الذي ينتمون إليه كان أصل آبائه من أشراف المغرب القادريين، أتوا إلى توات فاختلطوا بأهل قوررا. ثم ولد لهم هذا المولود هنا فنسب لذلك المحل. وبعد أن كبر طوحته المقادير إلى أن نزل على رسوم القريتين اللتين كانتا في طريق تقرت بقرب سيف سلطان فسكن هناك. وبعد زمن يسير انتقل إلى موضعه الآن الذي بقرب كوينين قبل عمرانها بمدة مديدة، وان العميرة الموجودة لهذا العهد تناسلت كلها منه إلا بيتا أو بيتين من غدامس ويعرفون من بينهم بهذه النسبة. والله أعلم.

العميرة الثانية : السوفية

أصلهم من أولاد خليفة الذين هم بأعشاش الوادي سكنوا الهنشير القديم فأتاهم رجل من نفزاوة يقال له سيدي زكري، عرف بينهم بالصلاح فأمرهم ببناء بويتات هناك واختلط بهم وتصاهر معهم فصار منهم. وأمرهم بالاحتكار في المأكل والملبس ورتب لهم عوائد لا يتجاوزونها.

ونهاهم عن الخروج عن طورهم قائلا لهم : إن حافظتم عليها -أي العوائد- تكونوا أنتم السوفية وسواكم يخرج من أرضه. فحافظوا على شروطه وتم لهم دوام السكنى بسوف كما قال وصاروا يفتخرون بذلك على غيرهم.

وانضم لهؤلاء جماعة يقال لهم: أولاد بلحسن أصلهم من تاجرونة التي بقرب عين ماضي ويعتقدون أنهم ينسبون إلى سيدي أحمد بن يوسف شهير النسب.

كما انضم لهم أناس يقال لهم الكناكنة أصلهم من الهنشير الآخر ونسبهم يتصل بأولاد زايد أهل تاغزوت.

ويقال إن معهم أناسا من الوهاهبة البهيميين الذين مر نسبهم

قريبا يقال لهم أولاد مبارك ومعهم جماعة يقال لها الشهاونة من أولاد خليفة أيضا لكنهم أتوا إلى كوينين متأخرين جدا. ويزعم البعض منهم إنهم أتوا إليها في عام الهمامة. والله أعلم.

العميرة الثالثة : الجبيرات

أصل الأولين من جبيرات الوادي وسميت العميرة بهم وإن كانوا متأخرين لكثرتهم.

ومعهم بنو محور الذين سبق تأصيلهم ويقال لهم العكاكشة ويزعم بعضهم أن العكاكشة غير بني محور.

ومعهم أيضا الزبدة وقد مر نسبهم بالوادي وفيهم تعينت القيادة على جميع أولاد سعود. وسيدي عون. ومعهم مصغونة وقد سبق تعريفهم في المصاعبة.

ويقال إن فيهم أبياتا من مزاريع تاغزوت الذين مر نسبهم. وانضم لهم جماعة يقال لهم أولاد حوية لهم بيت واحد من أقاربهم في تكسبت الآن، سألت القدماء فقيل لي إنه يتصل بفيصل بن سنان بن سباع بن موسى بن كمام بن علي بن خذل بن حصين بن زغبة...الخ.

كما انضم لهم قوم يقال لهم أولاد حمزة لم أتحقق من نسبهم والقرائن تشير إلى أنهم من أحد نسبي سعيد أو عتبة ابني مالك بن رياح بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال ...الخ. إذ كثير أخبروني بأنهم أتوا من الناحية التي بها أولئك.

ومع الجميع عائلات يقال لها أولاد غنام، الله أعلم بنسبهم. وطائفة من نفطة يقال لها العثمانية ينتسبون إلى سيدي عثمان بن زايد وهو رجل صالح مقبور الآن بكوينين وعلى ضريحه قبة تزار بجبانة (مقبرة) كوينين الغربية الجوفية (الشمالية). ويذكرون أنهم من الأشراف ولا أدري هل يقصدون بذلك شرفا نسبيا أو شرفا صوفيا فقط لأنهم يعتقدون أن جميع من أشير إلى أبيه أو جده بالخير والصلاح فهو شريف بصرف الطرف عن نسبه. والله أعلم.

العميرة الرابعة : المناصير

بحسب ما سمعت من الشيخ نصر أنهم ينتسبون إلى منصور أو ناصرة بن امرئ القيس بن بهنة بن سليم، إذ قال لي إنهم من المناصر الذين هم بمحاميد طرابلس.

وهم قليلون بكوينين ومعهم أبيات من بني جبنون بن حنيش أهل الوادي. والله أعلم.

العميرة الخامسة : القوائد

يظن من لا يعرفهم أنهم من قوائد الوادي وليس صحيح إذ أولئك بربر وهؤلاء عرب بل من مشاهير العرب ولهم وقائع معروفة بسرت في طرابلس.

جاء في "المنهل العذب" : القوائد أولاد قائد بن حريز بن تميم بن عمر بن وشاح بن عامر بن جابر بن فاتك بن رافع بن ذياب بن مالك بن بهثة بن سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان. ثم ذكر بعد ذلك أنهم كانوا بتلك المواطن مع أولاد أحمد. والله أعلم.

الدبيلة

تقدمت تسمية القرية في باب الأماكن المعروفة بسوف.

وأما سيدي علي بن خزان فاصلة من المغرب، أتى إلى هذه النواحي متأخرا وطاف عدة أماكن. فقيل إنه قدم إلى الوادي أولا وسكنه زمنا يسيرا ثم انتقل إلى قمار ولم تطل إقامته فيها. ومنها إلى البهيمة ثم سافر إلى تونس. وقيل إنه خدم سيدي علي الحطاب وقد لحق به أقاربه في المغرب فسكنوا الحلفاوين الذي هو حي من أحياء تونس.

ثم رجع سيدي علي المذكور إلى أرض سوف وسكن المكان المعروف الآن بالدبيلة الخالية شرقا من قرية الزقم ومنها انتقل إلى البهيمة فأمره بعض الصالحين بالانتقال إلى محل الدبيلة الحالي فانتقل إليه على نحو الصورة السابق ذكرها.

وقد ولد للشيخ سيدي علي بن خزان ولدان، ابن وبنت، الأول يقال له عمار، والثانية تسمى فاطمة وتلقب بالزايلة تشبيها لها بالزايلة العجماء لعدم تمييزها. تزوجت بإنسان من البهيمة ووقع بينهما نسل كثير وهم الذين يقال لهم أولاد فرج بقرية الدبيلة. وقيل أيضا إن البنت اسمها مبروكة ولم تعقب.

أقول : إن الراجح هو الأول لأن القائل بالأخير لم يذكر أولاد فرج لمن ينتسبون بعد أن سرد الذرية التي تناسلت من سيدي على الأصل.

وولد لابنه عمار أبناء وهم : عبد الملك، وعيسى، وخليفة، وأحمد، وبلقاسم، وعلي.

فمن الأول : قدور، ومنه أحمد، ثم صالح ومنه مليك.

ومن الثاني : خزان، ومنه محمد، والقدري، وسعد، ومبارك، وحمد، ومبروك، ثم محمد ومنه أحمد وبلقاسم.

ومن الثالث: عبد النور ومنه عيسى، ثم نصيب ومنه مبروك، ومحمد، وعلي، وخليفة، وعمار. ثم أحمد غنايم ومنه محمد، وعلي، ثم علي ومنه محمد، والأخضر، والشريف ثم عمارة ومنع عبد السلام، ثم مبارك ولم يعقب.

ومن الرابع : القدرى ومنه علي محمد. ثم حامد ومنه مسعود، ومهني وأحمد. ثم عمار ومنه سعد، والطاهر، ثم سالم ومنه حميدة وبلقاسم، ثم سعد ولم يعقب، ثم نصر ولم يعقب، ثم أحمد ومنه محمد، ثم عيسى ولم يعقب.

ومن الخامس : قدور ومنه يوسف، وبلقاسم.

ومن السادس : أحمد ومنه حامد، ثم عبد الحميد ومنه محمد، ثم مولود ومنه عبد الله، وعبد الرزاق، وسعد، ثم عبد العزيز ومنه عبد الجواد، وساري، وعلي، ثم عمار ومنه عبد النور، وبلقاسم، وعلي وأحمد واللبي. ثم عبد الستار ومنه الأخضر، وأحمد، وعمار، وعلي.

فهؤلاء هم أبناء علي الخزاني الأصليون. وما عداهم فليسوا منه إذ قد انضم إليهم أفراد من الوادي ومن قمار والبهيمة وكذلك من النمامشة وغيرهم والله أعلم.

سيـــدي عـــون

سبق القول أن القرية سميت باسم سيدي عون بن مهلهل وابن ابنه. والصواب أنها سميت باسم سيدي عون بن سيدي أحمد بن سيدي عون بن مهلهل وهو الذي جاء من أشراف المغرب وطاف كثيرا من البلدان إلى أن وصل إلى الزاب وكان محجوب البصر.

ومما حكي أنه التقى في الزاب بقوم من أهل الزقم يكتالون الحبوب فالتمس منهم الذهاب معهم إلى أرض سوف فقبلوا منه ذلك. ولما وصلوا إلى البعجة (وهي بئر في طريق الزاب) أمرهم بالاختفاء خوفا من وقوع الإغارة عليهم فامتثلوا واختفوا بمحل منخفض. وبعد هنيهة سمعوا وقع الركاب ولغط الراكبين من قطاع السابلة. وحين انجلى الغبار أمرهم بالسير فخرجوا من محل اختفائهم فإذا آثار الخيل قريبة من منزلهم. فازدادت محبتهم للشيخ وإكرامهم له على نصيحته وبعد نظره. ولما وصلوا أخبروا أقوامهم وأهاليهم بما وقع فنوه أهل الزقم بشأنه وزوجوه منهم امرأة خيرة فولد لهما ابن صالح يقال له أحمد الراشد، ولما كبر هذا تزوج وولد له ثلاثة أبناء وهم : سيدي عون الأصغر، وسيدي إبراهيم، وسيدي محمد، وثلاث بنات وهن : السيدة عزيزة، والسيدة مريم، والسيدة هنية.

ومات سيدي أحمد الراشد في حياة أبيه وقبر بمقبرة الزقم الشرقية وضريحه بها يزار إلى الآن.

وبعد زمن يسير انتقل سيدي عون الأكبر إلى الدار الآخرة وقبر بإزاء ابنه.

وكثير لا يعرفون قبره لهذا العهد. قيل كانت وفاته عام 1195 هـ- سنة 1781 م.

ثم وقعت وحشة بين أبناء سيدي أحمد الراشد خرج من أجلها سيدي عون الأصغر وأخته السيدة هنية ونزلا بقرب الطريفاوي شمال القرية الموجودة الآن وهو مكان به كثير من الطرفاء النابتة في حافات الواديين السابق ذكرهما. فجعلا مترلا هناك وانضم لهما أناس من الزقم، وقمار، والبهيمة فبنوا منازل قربهما وبجميعهم تقرت قرية.

وكان سيدي عون يرعى غنما بالصحراء فجرت له وقائع مع الذئاب وقطاع السابلة.

وبعد زمن رأت السيدة هنية رؤية مزعجة وأن تلك القرية ستخرب فأخبرت أخاها برؤياها فارتحلا منها ونزلا بالمكان الحالي المسمى سيدي عون باسمه.

وبعد رحيلهما من القرية الأولى وقع شنآن بين أهلها وبين بعض الأقوام، ففر أهلها منها والتحقوا بسيدي عون وأخته.

وولد لسيدي عون ذرية وأتتهم بعد ذلك ذرية أخيه سيدي إبراهيم فتركبت جميعهم البلدة الموجودة الآن.

وعندما مات سيدي عون شيدت عليه قبة تزار إلى اليوم.

والذين هم بتلك البلدة ينقسمون الآن إلى ثلاث عمائر وهي:

العميرة الأولى : **العواينية** : أولاد سيدي عون المذكور.

العميرة الثانية : **الإبراهيمية** : أولاد سيدي إبراهيم أخيه.

العميرة الثالثة : العوافي : وهم الأخلاط نسبوا كلهم إلى أولاد بوعافية أهل قمار لأنهم الأكثرية.

وهذا آخر الكلام على أنساب أهل سوف وما يتعلق بها.

والله سبحانه وتعالى أعلم.

مراجـــع الكتـــاب

- تاريخ الخطط للمقريزي
- تاريخ ابن خلدون
- تاريخ العدواني
- المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب
- رحلة العياشي
- كفاية الطالب
- رحلة بني هلال
- فتوح إفريقية
- رحلة ابن بطوطة
- تاريخ ابن خلكان
- المؤنس في تاريخ إفريقية وتونس
- تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية
- كناش الشيخ العروسي
- مخدرة الشيخ العروسي
- رقم الحلل ونظم الدول
- سرح العيون
- العقد الفريد لابن عبد ربه
- الشريشي الكبير على مقامات الحريري
- القزويني في عجائب المخلوقات
- حياة الحيوان الكبرى
- الشيخ داود الأنطاكي
- النخبة الأزهرية
- أقوال القدماء

موضوعات الكتـــاب



منظر عام لمدينة وادي سوف

أدرك المؤلف بوعيه الثاقب وعبقريته الفذة خطط الاستعمار الفرنسي بالجزائر الرامية إلى القضاء على اللغة العربية وإضعاف العاطفة الوطنية والدينية، فكرس جهوده وسخر جميع إمكانياته للدفاع عن كرامة الوطن، عن حمى الدين واللغة.

لقد أخذ المؤلف تجربته الثقافية وقيمته الدينية والأخلاقية عن علماء الجريد والجامعة الزيتونية بتونس، فمارسها قاضيا يحكم بما أنزل الله بلسان عربي مبين في واحة الوادي، في تقرت، في أولاد جلال المنفى الذي اختارته له غطرسة (قبطان بيرو-عرب) لم يثن عن عزمه هذا المنفى، ولا التهديدات، ولم تصرفه شتى المؤامرات عن رسالته المقدسة دفاعا عن العروبة والإسلام.

شارك ابن الواحة المرحوم إبراهيم بن عامر وجدان قومه، فأحس بتعطشهم إلى معرفة وطنهم، تاريخه، طبيعته، عناصر سكانه، حالته الأدبية، فجاد إذاك بكتابه الثمين، هذا الذي حاول فيه أن يشبع حاجيات قومه الروحية، ويروي عطشهم للغة هلال وسليم.

كان في الإمكان أن يضيع هذا الكتاب بعد وفاة مؤلفه، وتختفي تلك التجربة مثلما اختفت تجارب عبقريات جزائرية أخرى. وكان في الإمكان أن يهمل هذا التراث في رف تعلوه العنكبوت، لو لم يقيض الله الابن البار الوفي لتراث أبيه، وأعني بالابن البار أخانا الأستاذ الجيلالي العوامر الذي صان الكتاب صونه لنفسه؛ صانه وهو تلميذ. حفظه وهو أستاذ، بل نقحه وأضاف إليه ما تتطلبه الجزائر من عناية...

محمد بوبكري

خريج قسم الفلسفة-بجامعة القاهرة





ر.د.م.ك : 978-9961-905-57-9